مُنتَصِر أمِينْ

الطبعة ٤

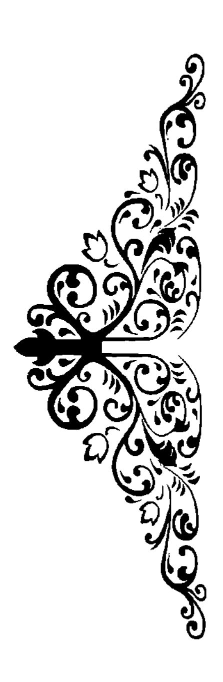
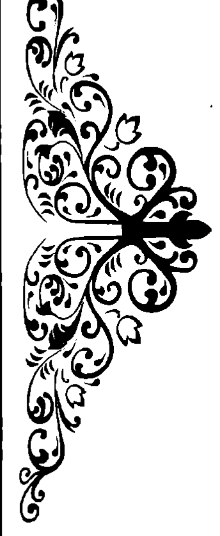
الطَوافْ

رواية



الطَّوَافُ

مُنتَصر أمينْ

عنوان الكتاب : الطواف

المؤلف : منتصر أمين

المراجعة اللغوية : عبد الهادي عباس

الإخراج الداخلي : رشا عبدالله

تصميم الغلاف : عبد الرحمن الصواف

رقم الإيداع : ١٣٧٦٩ / ٢٠١٥

ردمك : 978-977-85204-2-2

الطبعة الرابعة :ديسمبر 2015

المدير العام : هاله البشبيشي

مدير النشر: أحمد القرملاوي

مدير المبيعات : شريف الليثي



دار تويا للنشر والتوزيع

dartoya2015@gmail.com

Dar.toya دار تويا للنشر و التوزيع

@Dar_Toya

Dar.toya

(+2) 01140899887 - (+2) 01000706014

٢٦٣ ش عبدالوهاب عبد اللطيف -كوبرى القبة -
القاهرة – مصر



مُنتصر أمينْ

دار تويا للنشر والتوزيع

إهداء

هناك صنفانِ مِن البشرِ في هذا العالم. .

أحدُهما يقضي عمرَه باحثًا عن المعرفةِ والحقيقةِ، والآخرُ لا يفعلُ. .

إلى الصنفِ الأولِ. . أُهدِي هذه الروايةَ. .

مُنتصر أمين

«بداية»..

«التاريخُ مذبحٌ مُقدَّسٌ..
بدمائهِ تتكشَّفُ الحقائقُ»

(١)

في زمانٍ بعيدٍ مِن حياتي، كانت عائلتي هي أُنْسي وملاذي الأخير، كانتْ هي الضوءَ الخافتَ الوحيدَ الذي يُنير ليَ الطريقَ في عتمةِ الحياةِ المظلمةِ التي أحياها ، أمَّا اليومُ فتُحاصرُني حُجُبُ الغيوم مِن كلِ جانبٍ فلا أتمكن من الفرار منها ، فلْتَحُلَّ اللعناتُ عليَّ، لا مفرَّ مِن مواجهةِ المصير المحتوم.

في ذاك الزمان، كنتُ أؤمنُ بالقيم والمُثل العليا ، آمنتُ بالعدلِ والحق والمساواةِ، آمنتُ بهيبةِ القانونِ وسيادته، كنتُ أؤمنُ بالديمقراطية، غرستُ ذلك في تربةِ أبنائي الخصبةِ كي أحصدَ ثمارَه في المستقبل، فقد كانوا هم الحلمَ والأملَ، كانوا هم الغدَ الأفضلَ الذي رُبَّما لن أراه، لكنَّي اليوم بتُّ كافرًا بكلِ ما سبق وآمنتُ به.

أصبحتُ كافرًا بكل المبادئ والقيم؛ فهذه الدنيا ليستْ عادلةً على الإطلاق، أصبحتُ كافرًا بالديمقراطية، بعد أنْ أيقنتُ بأنَّها مجرَّد مصطلحٍ بشريً تمَّ اختراعُه لإحكام السيطرة على عوامَ الناس، انتهيتُ

إلى نتيجةٍ مؤدَّاها أنَّ بلادَنا لم يكنْ فيها حُكمٌ ديمقراطيٌّ على مدارِ عمرها الطويلِ الضاربِ في جذورِ التاريخ لأكثر مِن ستةِ آلافِ سنةٍ.

أفقْتُ مِن أفكاري فوْر رؤيتي لانعكاسِ صورتي في المرآةِ أمامي، تأملْتُها طويلًا، فقد وجدتُها تغيَّرت كثيرًا، نَهَشَ الزمانُ منّي حتى أيقنتُ بأنه لن يشبعَ أبدًا، حفر بأظفارهِ في روحي علاماتٍ وجروحًا لا يُمكن لها أنْ تندمل، لم تَعُدْ صورتي هي ذات الصورة التي اعتدْتُها طوال حياتي، تهدَّلت أكتافي ونَحُف جسدي بشدة، برزتْ وجنتاي وجفَّتْ عيناي، غزا الشيبُ شعري المجعَّد بعد أنْ كان منذ سنواتٍ قريبةٍ فاحمَ السواد، طال شاربي ولحيتي بلا تهذيب بعكس ما اعتدتُ عليه طوال عمري مِن حلاقتهما صباحَ كلِ يوم، تجاوز شكلي وهيئتي الثمانية والأربعين عامًا التي أنوءُ بحملها فوقَ كاهلي بأعوامٍ عديدةٍ، حتى لون بشرتي السمراء المميزة لأبناء الجنوب أصبح كالحًا باهتًا، غدوتُ شبحَ إنسانٍ، أصبحتُ شبحَ شحاتة المصريَ.

«خلَّصْ يا عم شحاتة، الدكتور مستنيك في مكتبه».

قاطعني صوتُ أشرف عامل التمريض في المستشفى والمسئول عن متابعة نزلاء العنبر الذي أمكثُ فيه الآن، ألتفتُ إليه بهدوءٍ غيرَ مبالٍ دون أنْ أنطقَ بكلمةٍ واحدةٍ، عدَّلتُ مِن هندام ملابسي المتواضعة ثمَّ أومأتُ برأسي دلالةَ الموافقة، سحبني مِن يدي، ثم أحكم إقفالَ بوابة العنبرِ من خلفنا، سعيْنا في طريقنا من خلال حدائقَ خربةٍ جدباءَ، تُوحي للناظرين بأنَّها كانت فيما مضى خضراءَ غنَّاءَ، صعدنا درجاتِ المبنى الإداري لمستشفى العباسية ثمّ عبَرنا ممرًّا طويلًا في الطابقِ الأرضيَ منه، حتى وصلنا إلى غرفةٍ عليها لافتةٌ بلاستيكيةٌ كُتِبَ عليها: «مديرُ

المستشفى»، طرَق أشرف البابَ ثلاثَ طرْقاتٍ مُهذَّبةٍ، ثم تريَّث قليلًا منتظرًا حتى أتاه صوتٌ مِن داخلها:

«ادخلْ» !

دخلتُ برفقته إلى الغرفة، كانت غرفةً فسيحةً مؤثَّثةً بطريقة تُوحي بذوقٍ كلاسيكيٍّ رفيع لصاحبها، تأمَّلتُ مكتبَه الأنيقَ وقد وُضِعَتْ عليه لافتةٌ نحاسيةٌ مكتوبٌ عليها: «أستاذ دكتور/ حسين شعلان»، كنتُ لا أزال أشعر بدوارٍ خفيفٍ يُداعب رأسي مِن جرَّاء العقاقير المهدئة التي أتناولها كجزء مِن علاجي، أحسسْتُ باسترخاء ممْتع يسريّ في أطرافي لبرودة الغرفة، أخذتُ نفسًا عميقًا بعد أنْ عمل الهواء المكيف مفعوله في رئتيَّ.

نهض الدكتورُ حسين مِن خلف مكتبه الأرابيسك، وأشار إلى أشرف بالانصرافِ، مضى يقتربُ مني بتمهُّل وقد شبَّك يديْه خلف ظهره وهو يتفرَّس في ملامحي بدقة واحترافيةٍ، كان رجلًا في أواخر العَقد السادس من العمر، خمريَّ البشرة، طويلَ القامة، حادَّ الملامح والقسمات، معتدلَ القامة، فضيَّ الشعر، وقد أكسبه انحسارٌ بسيط لشعره مِن مقدمة رأسه وقارًا، له شاربٌ رفيعٌ منمَّقٌ بعنايةٍ واضحةٍ للعيان، يفضح بريقُ عينيْه الحادُّ ذكاءه المتَّقد.

أشار بيده إلى مقعدٍ جلديٍّ وثيرٍ يتوسطُ الغرفة، وهو يقول بلهجةٍ رسميةٍ:

«اتفضلْ استريَّح يا أخ شحاتة» !

كان أمام المقعد الجلديَ منضدةٌ صغيرةٌ موضوعٌ عليها جهازَ تسجيلٍ قديم الطراز، تقدَّم نحوه الدكتور حسين وأخرج منه شريطَ كاسيتٍ مما عفى عليه الزمان، ولم يَعُد الناسُ يستخدمونها في هذه الأيام، وضع فيه شريطًا آخر ثم أغلق الجهاز، التفتَ إليَّ بعد أنْ جلس على أريكةٍ مجاورةٍ لمقعدي، ثم قال بابتسامةٍ باهتةٍ وهو يُعدِل مِن وضع نظارته الطبيَّة في حركةٍ لاإرادية:

«معلش يا شحاتة، أصل أنا راجل كلاسيكي ولسه بحب أشتغل بالطرق التقليدية» .

ثَبَتُّ نظري على نقطة وهميةٍ أمامي، حاولتُ استجماع شتات عقلي والحفاظ على هدوءِ أعصابي، تفرَّس ملامحي وتعبيرات وجهي مليًا، ثم هزَّ رأسه بهدوء، وقال:

«ما تتصورش يا شحاتة أنا التكنولوجيا دي بتضايقني إزاي» .

صمتَ قليلًا حتى يمنحني المجال لتجاذُب أطراف الحديث معه، غير أنني حافظتُ على النظرة الثابتة نفسها ولم أردَّ، أراح ظهره على الأريكة ووضع ساقًا فوق الأخرى، وأكمَل قائلًا:

«زمان كنَّا بنعمل كلَّ حاجة بنفسنا، ما كانش في حاجة تساعدنا، الموضوع ده كان بيساعد الواحد إنه يعتمد على نفسه ويبدع ويبتكر، إنما دلوقتي كل حاجة ممكن تعملها بلمسة زرار، مش كده واللا إنت رأيك إيه؟»

ظللْتُ على الحال نفسِها مِن الصمت المُطبق والتحديقِ في الفراغ، اعتدل الدكتورُ حسين في جلستِه وتأمَّلني قليلًا، ثم مال بجسده ناحيتي وهو يقول محذّرًا:

«ما هو كده مش هينفع يا شحاتة، لازم تتكلم معايا علشان أقدر أساعدك، لو فضلت على حالك ده يبقى خلاص، مالوش لازمة وجع القلب وتضييع الوقت» .

نهضتُ واقفًا لإنهاء هذا الحوار، وهممْتُ بمغادرةِ المكتب، إلَّا أنَّ الدكتور حسين استوقفني صائحًا في حدَّةٍ بالغةٍ:

«استنى عندك! أنا لسه ما خلصتش كلامي معاك» .

أنهى عبارته الأخيرة، ثم ذهب إلى مكتبه وأحضر ملفًّا ضخمًا ممتلئًا عن آخره بالأوراق، فتحه وتفحَّص ما في داخله، ثم قال بالحدَّة نفسِها:

«مكتوب هنا إن اسمك شحاتة عبد الصبور المصري، سنك ٤٨ سنة، متزوج من السيدة سلوى أمين عبد الحي، عندك ٣ أبناء، أمجد وأكرم وحبيبة» .

ازداد خفقانُ قلبي وعَلَتْ صوتُ دقَّاته، حتى بتُّ قادرًا على الاستماع لها بوضوح، أحسستُ برجفةٍ تسري في أوصالي وارتعشتْ عيني اليسرى رغمًا عني، فرفعتُ يديَّ أحاول أنْ أوقف حركتَها، تنبَّه الدكتور حسين لِما أصابني، فأكمل قائلًا بعد أنْ أدرك أنَّه قد بدأ ينجح في مسعاه:

«بتشتغل أمين مخازن في الهيئة العامة للكتاب، ساكن في شقة أوضتين وصالة في أرض اللواء، سُمعتك طيبة بين أهل المنطقة وزمايلك في العمل، هوايتك الوحيدة هي القراءة لدرجة إن زمايلك في الشغل مسمينك شحاتة الجبرتي علشان كمية المعلومات الكتير اللي عرفتها من قراياتك» .

صمتَ قليلًا ليرى مفعولَ كلامهِ على ملامحي، حاولتُ الحفاظَ على هدوئي وذات النظرة الفارغة، إلَّا أنَّ دمعةً خائنةً فرَّتْ من عيني اليسرى رغمًا عني، هزّ الدكتورُ حسين رأسه بتفهُّمٍ، ثم ناولني منديلًا ورقيًا وهو يقول بهدوء:

«إيه اللي حصل يا شحاتة؟ صدقني أنا هنا علشان أساعدك» .

نظرتُ إليه مُتعجبًا، ثم مسحتُ عيني وقلت بيأسٍ:

- مفيش حد ممكن يساعدني.

انفرجتْ أساريرُ الدكتور حسين عن ابتسامةٍ واسعةٍ، ثم قال:

- هايل يا شحاتة! أهي دي بداية كويسة للحوار، ليه بقى بتقول إنّ مفيش حد ممكن يساعدك؟

أطرقتُ برأسي إلى الأسفل، وأخذتُ أتمتمُ بصوتٍ خفيضٍ:

- أنا في الجحيم، أنا في لجحيم ظالم.

اقترب الدكتور حسين منّي مُربتًا على كتفي برفقٍ، ثم قال بلهجةٍ وُديةٍ:

- قصدك إيه يا شحاتة بإنك في الجحيم؟ ومين ده إللي ظلمته؟

رفعتُ رأسي ونظرت إليه طويلًا، ثم قُلت:

- معاك صورهم؟

- تقصد مين؟ ولادك؟

قالها الدكتور حسين وهو يعبثُ في محتويات الملفِ الضخم بيده.

أومأتُ برأسي دون أنْ أنطقَ حرفًا واحدًا، ابتسم الدكتور حسين بودٍ ومدَّ يده يُناولني صورًا فوتوغرافيةً أخرجها مِن الملف، تناولتُ الصور بلهفةٍ شديدةٍ ومضيتُ أتأمَّلُها بشوقٍ ولوعة، سالت دموعي مِن جديدٍ وخارت قواي، فانْهرْتُ على المقعد الجلديَ أنتحبُ بصوتٍ مرتفع.

اقترب مني الدكتور حسين، وربّت على كتفي بإشفاقٍ، ثم قال بهدوء:

- معلش يا شحاتة، أنا عارف إنك تعبان، لكن لازم تحكي لي كلَّ حاجة من البداية علشان أقدر أساعدك.

سألته راجيًا بنبرةٍ واهنةٍ:

- ممكن أحتفظ بالصور دي؟

صمتَ برهةً ثم قال بنبرةِ الطبيبِ المُتمرّس:

- ماشي يا سيدي، بس على شرط إنك تحكي لي كلَّ حاجة.

أومأتُ برأسي موافقًا وأنا أحتضنُ صور عائلتي، جلس الدكتور حسين على الأريكةِ وأشعل سيجارةً، سحب منها نفسًا عميقًا ثم ضغط على زرِّ تشغيل جهاز التسجيل، وقال:

ها، احكي لي بقى!

أسندتُ رأسي على مؤخِرة المقعد وأغمضت عينيَّ، اشتدَّتْ قبضتي على صور عائلتي، بدأتِ الصورُ والأحداثُ تتقافزُ أمام عينيَّ.

***

لا زلتُ أذكرُ أنني قد رأيتُ ذات مرة حلمًا رهيبًا، كلَّا! لم يكن حلمًا، بل كابوسًا مخيفًا ظللتُ مِن بعده أخاف أنْ أضع جنبي على الفراش، رأيتُ في منامي أنني أغرق في بحيرةٍ ضحلة ماؤها عكِرٌ، بينما أنا أنافحُ الغرق، رأيتُ لوحًا خشبيًا مهترئًا بالقرب مني، عانيتُ طويلًا حتى تمكنتُ من الوصول إليه بمشقةٍ بالغةٍ، بلهفةٍ تشبَّثْتُ به تشبُّث الطفل بثدي أمه.

سمعتُ صوتًا، أحسستُ بحركةٍ غريبةٍ في الماء، نظرتُ خلفي بهلع فلم أجد شيئًا، حاولتُ الصعود على سطح اللوح، لم أستطع، سمعتُ الصوت خلفي من جديدٍ ولكنه كان أكثر قربًا هذه المرة، التفتُّ مذعورًا وقد عمل الأدرينالين مفعوله فتهدَّجت أنفاسي وتسارعَتْ دقاتُ قلبي.

رأيتُ جسمًا يطفو فوق سطح الماء كأنه جذعُ شجرةٍ ضخمة، كان الجسمُ يتحركُ في اتجاهي ببطء، تسمَّرتُ في مكاني وازدادتْ يداي تشبثًا باللوح المُهترئ، لم أعُدْ أسمعُ سوى صوتِ دقات قلبي وهو يكادُ يقفزُ خارجًا من بين ضلوعي طالبًا النجاة، دقَّقتُ النظرَ مليًا في هذا الجسم الطافي، كان الظلامُ سائدًا فلم أرَ شيئًا، حاولتُ الصعودَ فوق اللوح الخشبيَ، لم أتمكنْ، حاولت مرارًا وتكرارًا، لكنني فشلتُ.

ازدادت سرعةُ ذلك الجسم بصورةٍ مُقلقة، أخذ يقترب مني أكثر فأكثر، رأيتُ عينيْن تبرزان من داخل مياه البحيرةِ العكرة، عينيْن مُخيفتيْن مُظلمتيْن باردتيْن، شممتُ فيهما رائحة الموت، دقَّقتُ النظر جيدًا مُزيحًا سحب الظلام الكثيفة، رأيتُ تمساحًا ضخمًا يندفعُ في اتجاهي مُسرعًا وقد فغر فاه عن آخره، فبرزتْ أنيابُه حادةً لامعةً.

اقشعرَّ بدني وتخشَّبت أعضائي، أدركتُ على الفور أنني مُلاقي الموت لا محالة، أخذ شريطُ حياتي يمرُّ أمام عينيَّ بسرعة، بدأتُ أتمتم بالشهادتين بصوتٍ مرتعش، رأيتُ زوجتي وأبنائي، كلَّا! لن أموتَ اليوم، تحوَّل تخشُّب أعضائي فجأةً إلى حركةٍ هستيرية، وأنا أحاولُ مُجددًا ارتقاءَ اللوح الخشبي المهترئ، نجحتُ بأعجوبةٍ في الوقوفِ عليه وقد أخذ يهتزُّ بشدةٍ من تحت قدميَّ، وكأنه يُحاول أنْ يُلقي بي فريسةً سهلةً للتمساح المخيف.

اقتربت الأنيابُ الحادَّةُ من اللوح المهترئ حتى كادت تنهش قدميَّ، لم أدرِ كيف أتصرَّفُ وقد تقطَّعت السبلُ جميعُها أمامي، كاد قلبي ينخلعُ ويتوقَّف عن الخفقان، انهمر عَرقي غزيرًا يغمرُ كلَّ أنحاء جسدي.

فجأةً، اندفع اللوحُ حاملًا إياي بسرعة شديدة مُتجهًا نحو يابسة لاحت في الأفقِ البعيد، ومِن خلفهِ التمساحُ يُحاول أنْ يفتكَ بي، حاولتُ أنْ أحافظَ على اتزاني فوق اللوحِ حتى لا أسقط في الماء العكر.

قذفني اللوحُ فوق اليابسةِ فسقطتُ على وجهي وقد سالت الدماءُ مِن جبهتي، سمعتُ من خلفي صوتَ التمساحِ الضخم يزحفُ على اليابسةِ محاولًا الوصولَ إليَّ، قمتُ مُسرعًا، ركضتُ بكلِ ما

أُوتيت من قوةٍ محاولًا النجاةَ والفرار منه، إلَّا أنَّ حركتي كانت بطيئةً للغاية، قدماي كانتا وكأنَّهما مُحمَّلتان بأطنانٍ مِن الرمل.

حاولتُ أكثر فأكثر، حتّى نجحتُ في النهاية بعد جهدٍ مُضْنٍ في الوصولِ إلى مرتفع صخريً، بدا كأنَّه هرمٌ مدرَّجٌ، هبطت الغيومُ فجاةً على المرتفع وكأنَّ السماءَ انطبقت على الأرض، أصبحتُ لا أرى أبعد مِن كفِّ يدي، أخذتُ أحاول تسلُّقه وقد استبدَّ بي التعبُ والإرهاقُ، تسلقتُ الدرجةَ الأولى بصعوبةٍ بالغة، مددتُ يدًا لأتشبثَ بأيَ شيءٍ يُعينُني على الصعود، لامستْ يَدِي جسمًا لزجًا طريًا فقبضتُها إليَّ بسرعةٍ بخوفٍ، سمعتُ صوتًا كالفحيح يصدر مِنه، نظرتُ مُدقِقًا مُخترِقًا حُجب الظلام، رأيتُ حيَّةً تتلوّى أمامي مُصدِرةً فحيحًا حادًا، وهي ترمقني بغضبٍ، تجنبْتُها قدر استطاعتي وصعدتُ مُسرعًا للدرجة التالية.

تكرَّر معي ما حدث في الدرجة السابقة، غير أنَّ الحيَّة في هذه المرة كانت أكبر حجمًا وعيناها تشعَّان غضبًا أكثر، تحاشيْتُ النظر إليها أثناء مروري بجوارها، تجنبْتُها والهلع يكاد يقتلني، صعدتُ مُسرِعًا للدرجة التالية.

ظللتُ على تلك الحال: أتسلَّق درجاتٍ فأجدُ حيةً جديدةً، أكبر حجمًا وأشدَّ غضبًا، حتّى وصلتُ إلى الدرجة السابعة، وقاربتُ على الانتهاء مِن صعود المرتفع الصخريَ، رأيتُ حيةً شديدةَ الضخامة، عيناها حمراوان تشعَّان ببريقٍ مُخيفٍ، أحسستُ أنها لا تنظر إليَّ بغضب كسابقاتها، ولكنها تنظر بسخريةٍ، لم أدرِ كيف أتعاملُ معها، فقد كانَ حجمُها يملأ مساحة هذه الدرجة بأكملها، تسارعتْ أنفاسي وازدادت

دقّاتُ قلبي عنفًا، لم أعدْ أرى شيئًا سوى عينيْها الحمراويْن. ازدادت عيناها احمرارًا واتساعًا أكثر فأكثر، ازداد رُعبي وهلعي، فغرَتْ فاها مُصدرةً صيحةً هائلةً.

أفقتُ من هذا الكابوس المريع، كنتُ في فراشي وقد غمرني العرقُ الغزيرُ، وأصابني التعبُ والإرهاقُ الشديدان، تلفتُّ حولي بفزع، كانت زوجتي لا تزال تغط في سباتها العميق، راسمةً على شفتيْها ابتسامة رضا طالما اعتدتُ أنْ أراها، توجّهتُ إلى المطبخ لأشرب قليلًا من الماء حتى يُداوي ما أصابني من جفافٍ في حلقي.

لم أجدْ لهذا الحلم اللعين تفسيرًا في ذلك الوقت، إلّا أنَّ ذكراه لم تُفارق خيالي لحظةً واحدةً، الآن أعتقدُ أنني قد عرفتُ تأويله، بعد ما مرّ بي مِن أهوالٍ وأحداثٍ، ولكنْ أين المفرُّ؟

***

ضغطَ الدكتور حسين على زرِّ إيقاف جهاز التسجيل، بعد أنْ تبدّلت ملامحُه غضبًا وهو يقولُ ثائرًا:

- إيه يا شحاتة إللي إنت بتقوله ده؟! إيه علاقة أحلامك وكوابيسك بموضوعنا؟

نظرتُ إليه بهدوء، ثم قلتُ:

- هوا مش حضرتك دكتور نفساني؟ أنا باحكي لك عن إللي كان بيحصل لي وباحس بيه على طول.

رمقني الدكتور حسين مغتاظًا ثم وقف غاضبًا، انتزع من يدي صور عائلتي، وقال بجدّةٍ:

- ماشي يا شحاتة، مفيش صور طول ما إنت عمَّال تلف وتدور، على العموم الموضوع انتهى بالنسبة لي لحدِ كده، أنت الخسران.

أخذتُ أرقُب يده وهي تدفنُ الصور في أعماق الملف المُتخم بالأوراق، اقتربتُ منه وأمسكتُ يده بلطفٍ، قلتُ متوسلًا:

- طيب معلش، بلاش تاخد الصور مني.

تجاهلني وكأنني لم أقلْ شيئًا، ثم نظر إليَّ من طرْف عينيْه، وهو يقول:

- مانت إللي مش عاوز تساعد نفسك وتساعدني.

خاطبتُه بنبرةٍ راجيةٍ:

- حقك عليا، خلاص هقول لك على كل إللي إنت عاوز تعرفه.

أطرق الدكتور حسين برأسه قليلًا، ثم قال:

- ماشي يا شحاتة، لما نشوف آخرتها معاك.

أخرج الصورَ مرةً أخرى، وناولني إياها قائلًا بنفاد صبرٍ:

- اتفضل يا سيدي، احكي بقى.

تناولتُ الصور من يده بلهفةٍ ودسستها في جيب سروالي سريعًا، في حين كان الدكتورُ يضغط على زرِ تشغيل جهاز التسجيل، أغمضتُ عينيَّ بأسًى وغَمْغَمْتُ بصَوتٍ خَفيضٍ:

- يا خفيَّ الألطاف نجنا مما نخاف.

***

الشريط الأول

«الماضي أشبهُ بالآتي
من الماءِ بالماء»

(٢)

بعد أنْ حدث معي ما قد كان، تحلَّق المارَّة حولنا يُحاولون بكلِّ استطاعتهم إطفاء ألسنة النيران خوفًا مِن أنْ تمتدَّ للسيارات الواقفة على جانب الطريق، انسللتُ مِن بينهم بهدوء وحذرٍ خارج دائرة الزحام، ثم ركضتُ بكلِّ ما أوتيتُ من قوةٍ وسرعةٍ، تنبَّه بعضهم إلى محاولتي الفرار فشرعوا يصرخون بصوتٍ مرتفعٍ:

«حراااامي، حراااامي ! !»

لم أبالِ بصياحهم وهتافاتهم، فقد أثار لديَّ مشهدُ الدماء ورائحةُ اللحم المحترق أحاسيسَ ومشاعرَ عجيبةً لم أختبرْها من قبل، كنت أحسُّ بالخوف الشديد والقلق من الردَّةِ العنيفة التي أصابتني في صميم كياني الإنساني، بتُّ أشعر وكأنني قد عُدْتُ للعصور المظلمة الأولى مِن مراحل تطوُّر البشَرية، لا أعلم لم كان شعوري السابق يُرافقه شعورٌ آخرُ غريبٌ باللذة، نَعَمْ ! لا تتعجب؛ فقد كنتُ أشعر بلذةٍ ونشوةٍ مُخيفةٍ.

أفقتُ من أفكاري على صوت أقدام المطاردِين وهي تقترب من خلفي، تلفتُّ حولي في ذعرٍ حقيقيٍّ، محاولًا البحث عن مخرج من هذه المصيبة، أبصرتْ عيناي من بعيدٍ مئذنة مسجد الرفاعيَ، بَدَتْ لي وكأنَّها أذرع الرحمة الإلهية وقد امتدت لتُخلص أهلَ الأرض من بؤسهم وشقائهم، توجَّهتُ صوبَه وأنا ألهثُ، بعد أنْ بدأ يُصيبني التعبُ والإرهاقُ من عناء الركض، تنبَّهتُ إلى أنني قد ركضتُ المسافة من شارع البارودي بالقرب من دار الكتب وحتى مسجد الرفاعيَ في فترةٍ زمنيةٍ وجيزةٍ، كنت أتلفَّتُ خلفي بين الفينة والأخرى لأطمئنَّ إلى ابتعاد المطاردِين عني، سمعتُ أحدَهم يصرخُ بصوتٍ مرتفع:

«أهو هناك عند الجامع، أبو جلابيه مقطَّعة، امسكوه!»

تحاملتُ على نفسي بعد أن ازداد تقطُّع أنفاسي ونال مني التعبُ مأربَه، عدوتُ بكل طاقتي حتى وصلتُ إلى سور المسجد، كان مُغلقًا في هذا الوقت ما بين العصر والمغرب، كنتُ أرغبُ في الدخول إلى فنائه حتى أتمكن من الاحتماء به والتخفي عن عيون المطاردين في صحنه ودهاليزه التي خَبَرْتُها جيدًا، كان هذا المكان يُمثِّل لي الملاذَ الأخيرَ، فقد قضيتُ فيه فترةً غير قصيرةٍ من الزمن بعدما مررتُ به من ويلاتٍ وأحداثٍ، هممتُ بالقفز فوق السور إلَّا أنَّ جلبابي المهترئ أعاقني عن إتمام ما انتويتُ، وقفتُ أرقبُ المطاردين بعد أنْ ضاقت المسافة بيني وبينهم، كانوا يقتربون مني بخطى حثيثةٍ وإصرارٍ مُخيفٍ، يتصايحون ويتوعَّدون، أيقنتُ أنَّ الهلاك قادمٌ لا محالةٍ.

من بعيدٍ على الجانب الآخر من الطريق رأيتُه، كان ينظر إليَّ بابتسامةٍ واسعةٍ، تعجَّبتُ من فعله!! كيف يبتسمُ في مثل هذه الظروفِ

العصيبة، ركّزتُ بصري تجاهه جيدًا، كان يُشير بيمينه في اتجاه طريق صلاح سالم، لم أفهم مغزى إشارته في البداية، إلّا أنّه أشار بيده مجددًا أنْ أتبعه، كان يعدو بسرعة وبخفة لا تُناسبان مظهره على الإطلاق، أيقنتُ أني قد رأيتُه من قبل، لكنّي لا أعرف أين أو متى، عبرتُ خلفه الطريق من أسفل كوبري السيدة عائشة وسط الزحام والسيارات المسرعة دون أنْ ألتَفتَ للمطاردين خلفي، كنتُ مُوقنًا أنّ نجاتي مرتبطةٌ بهذا الرجل.

عرّج الرجلُ خلف الوحدة العسكرية الواقعة بتلك المنطقة، داخلًا إلى الصحراء أسفل جبل المقطم، تبعتُه وقد أوشكتُ على السقوط أرضًا من شدة الإعياء، وقفتُ طلبًا للراحة والتقاط الأنفاس، بعد أنْ اطمأنَنْتُ لابتعاد المطاردين عني، تلفتُّ حولي بحثًا عن ذلك الغريب الذي دلّني على الطريق، ولكنْ كانت مفاجأتي كبيرةً، لم أجدْ له أثرًا قطّ، وكأنّه ظهر من العدم ثم عاد إليه مُجدّدًا.

افترشتُ الأرض، بعد أنْ أسندتُ ظهري إلى السور الخلفيَ للوحدة العسكرية، أخذتُ أسترجعُ ما مرّ بي من أهوالٍ في الفترة الأخيرة فهانتْ عليَّ نفسي، شَرَعْتُ أبكي وأنتحبُ كالطفلِ الصغير، نظرتُ إلى يديَّ كانتا مُتّسختان ملوّثتان بلونٍ أحمرَ قانٍ، أخذتُ حفنةً من التراب وشرعتُ أفركهما بها، إلّا أنَّ لونَ الدماء أبى أنْ يُفارقهما، كان جلبابي قد ازداد اتساخًا واهتراءً عمّا كان عليه في السابق، على عكس حاله حينما جاد به عليَّ أحد زوّار مسجد الرفاعيَ، قرّرت أنْ أغفو قليلًا حتى تغيبَ الشمسُ تمامًا ثم أحتمي بحُجُب الظلام، فهي خيرُ ونيس لمن هو في مثل حالي، غير أنَّ أصواتًا مُتباعدةً أعادت إليَّ يقظتي حين سمعتُ صوت أحدهم يقول:

- أكيد دخل في الصحرا إللي ورا الوحدة دي.

ردَّ عليه صوتٌ آخر:

- تعالوا نلف لفَّة حوالين سور الوحدة، وبعدين نشوف هندور عليه إزاي!

لم أفارق مكاني على الرغم من يقيني بأنّهم سيجدونني، كنتُ قد وصلتُ لحالة من اليأس جعلتني لا أرغبُ في مواصلة بؤس حياتي الظالمة، فتّشتُ بعيني في الأرض من حولي، وجدتُ ما كنتُ أبحثُ عنه، بقايا زجاجة مياهٍ غازيةٍ مُهشَّمة، بالكاد تصلحُ لتنفيذ ما عزمتُ عليه، أمسكتُ بيدي اليمنى إحدى هذه البقايا الحادّة مدببة الأطراف، تأمّلتُها مليّا، ابتسمتُ بسخريةٍ مريرةٍ وأنا أعملها في معصمي الأيسر.

لم أعُدْ أحسُّ بالألم، لأنني قد اعتدتُ مذاقه المرَّ في داخلي كلَّ يوم وليلةٍ، لحظاتٌ وبدأ الخدرُ يسري في أطرافي، بعد أنْ بدأ سائل الحياة الدافئ ينسابُ بغزارةٍ من شراييني المقطّعة، استكنتُ بجوار السور، كانت مشاهدُ حياتي البائسة تتتابع أمام عينيَّ في لقطاتٍ سينمائية متتابعة، بدأتُ أفقدُ تركيزي وإحساسي بالدنيا من حولي، فجأةً انقطع عني نورُ الحياة وأظلمت عيناي، بتُّ غير قادرٍ على التنفس، وأحسستُ بأنَّ روحي تنسحبُ من أطرافِ قدميَّ بعنفٍ شديدٍ، كان الألمُ مُزلزلًا عاصفًا لا يُحتمل، حاولت الصراخَ لكنَّ صوتي لم يستجبْ، كنت أحسُّ بأنني كومةٌ من الصوفِ الخشن، وأنَّ روحي إبرةٌ صدئةٌ تحاولُ الخروجَ مِن هذا الصوف، فجأةً ذهب عني الألم، صِرْتُ أشعرُ أني خفيفُ الوزن لدرجة غريبة، إحساسٌ غريبٌ بالحريةِ ملأ فضاء روحي الأجوف، يا الله! أهذا هو الموت؟ ما أروعه!

تحرَّرتُ مِن سجنٍ وقيدٍ كانا يُكبّلاني طوال حياتي، كأنني طيرٌ في السماء، هل أستطيعُ الطَّيرانَ والتحليقَ في السماوات؟ يجب أنْ أجرِبَ ذلك.

فجأةً أحسستُ بقوةٍ خفيةٍ تجذبني إلى الأعلى، رفعتُ نظري فرأيتُ مِن فوقي بؤرةً ضخمةً حالكةَ السواد، حاولتُ المقاومة، لكنني فشلتُ، اندفعت بفعلِ قوّةِ الجذب إلى داخل هذه البؤرة المظلمة، كانت نفقًا طويلًا يُخيّم عليه ظلامٌ كثيفٌ مِن نوعٍ لم تره عيناي من قبل، ظلامٌ تحسُّ معه وكأنَّ النهار لم يُوجد قط، تملّكني الرعبُ والفزعُ مُجددًا مِن هذا النفقِ المخيف مع سماعي لأصواتٍ كثيرةٍ متداخلة لم أستطع تمييزَها، ما تمكنتُ مِن تحديده فقط أنَّها جميعها أصواتٌ ممتزجةٌ بالألم والبؤس الشديد، بدأتِ الهواجسُ والأفكارُ السوداءُ تنهشُ عقلي، كنتُ لا أزال مندفعًا في هذا النفق المظلم بسرعةٍ عاليةٍ بدا معها وكأنه لا نهاية له.

أأنا في طريقي إلى الجحيم؟ كنتُ أعلمُ أنَّ المنتحرين يموتون كفارًا لجحودهم بنعمةِ المولى، لكنني لم أكن جاحدًا لنعمته أبدًا، بل على العكس كنتُ حامدًا شاكرًا في كلِ الأحوال، لكنها الظروفُ اللعينةُ هي التي اضطرتني لأنْ أفعلَ ما فعلتُ، ليس من العدل أنْ أسكنَ الجحيمَ بعد كلِ ما قاسيته في حياتي.

فجأةً بدأت سرعتي تقلُّ شيئًا فشيئًا، بزغ في الأفق البعيد ضوءٌ خافتٌ بدأ يزدادُ سطوعُه مع اقترابي منه، كان هذا الضوء هو طوْقَ النجاةِ الوحيدُ بالنسبةِ لي.

توقَّفتُ عن الكلام بعد أنْ سمعتُ صوت ضغط الدكتور حسين على زرِّ إيقاف جهاز التسجيل، فتحتُ عينيَّ ونظرتُ له مُستفهمًا، كان يرميني بنظراتٍ كالشرر، ثم ما لبث أنْ اتَّسعت شفتاه عن ابتسامةٍ عريضةٍ بدأت تتسع أكثر فأكثر، حتى تحوَّلت إلى قهقهةٍ بصوتٍ عصبيٍّ مرتفع.

تأمَّلتُه مُتعجبًا موقفَه، غير أنَّه بادر بأنْ نهض عن الأريكة واقفًا وقال عقِب أنْ أشعل سيجارةً نفث دخانها بهدوء متصنَّع:

- ماشي يا عم شحاتة، أنا هاكمل معاك اللعبة بتاعتك دي للآخر.

سألتُه بعد أنْ لاحت على ملامحي نظرةُ استفهامٍ، وقبضتُ على صور عائلتي في جيبي بشدَّةٍ:

- لعبة إيه يا دكتور؟ أنا مش فاهم حاجة! أنا بحكي لك على إللي حصل لي زي ما اتفقنا.

- تقدر تقول لي ليه ابتديت حكايتك من عند نهايتها؟ وبعدين مين الراجل إللي بيظهر ويختفي من العدم ده؟!

قالها الدكتور حسين وقد احمرَّت عيناه مِن الغيظ، وهو ينفثُ دخان سيجارته بعصبيةٍ شديدةٍ.

لانت ملامحُ وجهي وبدا عليها الارتياحُ وأسندتُ ظهري على مؤخِرة المقعد الوثير، ثم قلتُ:

- أمّا نقطةُ البداية فأنا اخترتها لأنَّ الحكاية لازم تبدأ من عندها، من ساعة لَّما بدأتُ أفهم وأعرف، أمّا بخصوص الرجل الغريب فده بقى حكايته حكاية هتعرفها لما أكمل.

أطرق الدكتور حسين رأسه فترةً وجيزةً بانت على ملامحه فيها أمارات التفكير العميق، عاود الجلوسَ على الأريكة مرةً أخرى بتحفّزٍ، ثم قال وهو يضغط زرَّ تشغيل جهاز التسجيل:

- ماشي يا سيدي، اتفضل كمل!

***

يقولون إنَّ النهاياتِ ليست دائمًا دلالةً على انتهاء الأشياء. ولكنها، وهذا هو الغريبُ في الأمر، قد تكون البدايةَ لأشياءَ كثيرةٍ لم تخطر لك على بال.

***

اقترب الضوءُ مني أكثر فأكثر حتى أصبحتُ غير قادر على احتمال وهجه، صار الضوءُ يُغلفني من كل اتجاه، تحوّل بعد أنْ كان أنيسًا لي في تلك الظلمة المُعتمة إلى كابوسٍ مخيفٍ تمنَّيتُ أنْ ينتهي ولو كان مصيري في قاع الجحيم.

فجأةً قُذِفَ بي خارج النفق بقوةٍ هائلة لم أعتدْها من قبل، وارتطم جسدي بالأرض بعنفٍ شديدٍ، حاولتُ النهوض فلم أستطع، كنتُ أحسُّ بالتعب الشديد والإعياء من جرّاء رحلتي العجيبة التي لم أعرفْ خلالها إنْ كنتُ حيًا أم مِن الأموات أصبحت؟! تحاملتُ على

نفسي وأسندتُ راحتي على الأرض محاولًا إلنهوضَ مرةً أخرى، كان ملمسُ الأرض رمليًا، نبّهني هذا الملمسُ إلى تفقّد المكان الذي تمّ إلقائي فيه، كانت أرضًا رمليةً شاسعةً بلا نهاية، الرمال بيضاءُ ناصعةٌ لم أرَ لها مثيلًا من قبل، أبصرتُ عن قريب بحرًا واسعًا صافي الزرقة يضربُ موجُه الشاطئ بلطفٍ ولين، كان الوقتُ نهارًا، أو . . . حقيقةً لا أعرفُ أنهارًا كان أم ليلًا، فقد كان المكانُ مُضاءً إضاءةً غريبةً غير مألوفة لم أعهد مثلها من قبل، كانت الرؤيةُ واضحةً بجلاء والسماءُ صافيةً تمامًا، لكن لم أهتدِ إلى مصدر تلك الإضاءة، أتراها الشمس وقد احتجبت في أفق الغيب، أم هو القمر وقد اكتمل بدرًا في ليل الخلود ؟

لم تَطُلْ حيرتي طويلًا، فبينما أنا على تلك الحال أتاني من خلفي صوتٌ رخيمٌ يملأ آذان سامعيه بمشاعر الرهبة والتبجيل، سمعته يقول:

- أأنتَ بخير يا ولدي؟

التفتُّ خلفي بحدَّةٍ وقد تملّكني الذعرُ، رأيته من جديدٍ، نعم كان هو مرةً أخرى، تأمّلتُه جيدًا هذه المرة، كان أول ما شدَّ بصري هما عيناه، كانتا واسعتين كحلاوين تشعّان بريقًا عجيبًا به مزيجٌ من السماحة والرهبة، تشعر بأنَّ نظراته تتملكك وتستحوذ عليك، تأسرك بسحرها فلا تستطيع مواجهتها، استغرقني الأمر برهةً حتى تمكنت من تحرير بصري من سحر عينيه، كان رجلًا في أوائل الأربعينيات من عمره، طويل القامة واسع الكتفين، تبدو عليه أماراتُ الوجاهة والصحة الجيدة، ذا جبهة عريضة وأنفٍ ملكيٍّ راق، شَعره أسود فاحمٌ طويلٌ ينسدل حتى يلامس كتفيه، له شاربٌ ولحيةٌ مُهذّبان بعناية وأناقة، يرتدي جلبابًا أبيضَ ناصعَ البياض يكشف عن حسن خلقته وقوّة جسده.

بادرني بالسؤال مجددًا:

- أأنت بخيرٍ يا ولدي؟

على الرغم من مشاعر الخوف والرهبة التي اجتاحتني، إلّا أنني وجدتُ نفسي أقول:

- يا ولدي! ولدي مين يا عم الحاج؟ ده إنت شكلك أصبى مني بمراحل.

ارتسمتْ على شفتيه المكتنزتين ابتسامةٌ هادئةٌ وقال بصوته الرخيم:

- ليس ظاهر الأشياء كباطنها.

كان شكِي قد تحوّل يقينًا بأني قد رأيته من قبل، بل كِدْتُ أجزم بأني أعرفه لكنني لم أنجح في تحديد متى وأين رأيته، تجاوزت عمَّا يجول بخاطري من شكوكٍ وأفكارٍ، وسألته:

- قصدك إيه؟ مش فاهم.

احتفظ بابتسامته الرائقة، وهو يقول بذات النبرة الرخيمة:

- وهل ترغب حقًّا في المعرفة؟

عادتِ الأفكارُ والهواجسُ تعصف برأسي مجددًا، بعد أنْ باغتني سؤاله ولم أحِرْ له جوابًا، لماذا يصرُّ هذا الغريب على إجابة كل تساؤلاتي بأسئلة أخرى؟، لم لا يُجيبني مباشرةً، ما الداعي لكل هذه الألغاز والأحاجي؟، مَن عساه يكون هذا الغريبُ المهيبُ؟! تغلبتُ على أفكاري بعد أنْ تنبَّهتُ إلى أنني في موقفٍ لا يسمح لي بإضاعة الوقت في

التُّرَّهات، خاطبته وأنا أحاول مجاراتِه عسى أنْ يكونَ بيده حلٌّ للخروج من مأزقي:

- طبعًا أرغبُ في المعرفة، وهوَّا فيه إنسان مش عاوز يعرف ويفهم!

رماني الرجلُ بنظرةٍ أحسستُ معها بتصاغُري وتضاؤلي أمامه وهو يقول بنبرةٍ ارتجّت معها كلُّ أعضائي:

- ليس كلُّ إنسانٍ عارفًا، ولا كلُّ عارفٍ بالضرورة إنسانًا.

لم أتمالك نفسي عند هذا الحد؛ فحاولتُ الصياح فيه مُحتدًّا إلَّا أنَّ صوتي لم يُطاوعني فخرج من حلقي هادئًا راجيًا رغمًا عني:

- أرجوك علشان خاطري أنا مش ناقص وفيا إللي مكفيني وزيادة، لو هتقدر تساعدني اتفضل، ولو مش هتقدر سيبني في حالي الله يرضى عليك.

تراجعتُ إلى الخلف مذعورًا عندما اقترب مني الرجل الغريب، إلَّا أنَّ شيئًا ما في نظراته جعلني أستكينُ وأطمئنُّ، مدَّ يده مُربِّتًا على رأسي برفق، كان ليده ملمسٌ مُريحٌ رائقٌ يبعث في جسدي إحساسًا رائعًا بالسكينة والطمأنينة.

خاطبني بهدوء يسطع بالحكمة:

- ليس بمقدورِ أحدٍ بعد المولى سبحانه وتعالى أنْ يُخلصك، فأنت وحدك يا عبد الله من بيده الخلاص.

- إزايّ بس هقدر أخلص من البلاوي إللي حطت على دماغي، دا أنا كمان طيَنتها زيادة وانتحرت. (خاطبته بيأسٍ وقنوطٍ.)

نظر الغريبُ إليَّ بإشفاقٍ، ثم قال بنبرة العالم ببواطن الأمور:

- إنَّ كلَّ ما حلَّ بك من بلايا لا يعدو أن يكون مثقال ذرةٍ مما أصاب أقوامًا قبلك.

نظرتُ إليه متعجبًا، وقلتُ:

- وإنت عرفت منين؟

ابتسم الغريب، وقال بهدوء:

- لأني عاصرتهم.

مططتُ شفتيَّ بضيقٍ، ثم قلتُ بنفاد صبرٍ:

- عاصرتهم إزاي يعني؟ ده سنك بالكتير قوي ما تزيدش عن ٤٥ سنة.

اتسعت ابتسامتُه كاشفةً عن أسنانٍ بيضاءَ تلمع كحبَّات اللؤلؤ وهو يقول بوقارٍ:

- ألم أقل لك من قبل إنَّ ظاهر الأشياء ليس كباطنها؟!

ازداد إلحاحي وعدم تصديقي، فقلتُ:

- أيوه بس إزاي عاوزني أصدق إنك عشت مع ناس تانية وعاصرتهم؟ وإنت شكلك يعني كده، إحمم، قصدي يعني، إنك شكلك راجل طيب وعلى قدِ حالك.

تغيَّرتْ ملامحُه وتبدَّل صوتُه بحيث أصبح عميقًا له صدًى يتردَّد في أرجاء فضاء المكان الفسيح:

- لقد رأيتُ أمورًا تشيبُ لها الولدان، وعاصرتُ أقوامًا بعدد ذرَّات الرمال، بعد أنْ طوَّفتُ سنينَ طوالًا في مشارق الأرض ومغاربها.

تملَّكني الفضولُ من إجابته، فسألته:

- طيب إزاي بس، فهمني؟

لمعت عينا الغريب وهو يقول بنفس النبرة العميقة:

- إذن، فأنت ترغبُ في المعرفة؟

أومأتُ برأسي دلالة الموافقة، فأطرق الغريبُ رأسَه إلى الأرض قليلًا ثم رفعها ورماني بنظرةٍ ناريةٍ اخترقت حجب روحي قائلًا بصوتٍ ارتجفتْ معه أوصالي:

- ماذا تريدُ أن تعرف؟

ازدردتُ لعابي من الخوف، وقلتُ بصوتٍ متلعثم:

- عاوز أعرف سبب إللي حصل لي، وهل ممكن ربنا يسامحني؟

ظلَّ الغريبُ على حالته المُخيفة، وقال بصوته العميق:

- إذا أردتَ أنْ تسلك طريق المعرفة فاعلم أنَّه لا بداية له ولا نهاية.

لم أفهم إجابته، فسألته أستزيدُ:

- إزاي يعني طريق مالوش بداية ولا نهاية؟

تجاهل الغريبُ سؤالي، وأكمل حديثه وكأنّه سارحٌ في الملكوت الإلهي:

- لا يُوجد طالبٌ للمعرفة يشكُّ في طول الطريق، ففيه يصبح كلُّ فردٍ مبصرًا قدر طاقته، فلا جرم إنْ وَضحَ الطريقُ لكلِّ سالكٍ على قدر استطاعته.

فغرتُ فمي مشدوهًا من مقالة الغريب، فعلى الرغم من قراءاتي المتعددة فيما سبق إلّا أنّ كلامه كان مُختلفًا عمّا قرأته أو سمعته سابقًا، كان له وقعٌ عجيبٌ في نفسي، تنبّه الرجلُ لِما أحدثته كلماتُه من تأثيرٍ عليَّ، فابتسم بودٍّ وقال بنبرةٍ حانيةٍ:

- لا تقلق يا بنيَّ، فإنَّ لكلِّ شيءٍ موعدًا.

هدَّأتْ من روْعي ابتسامتُه، فقلتُ بعدما استعدتُ رباطة جأشي:

- لكن برضه يا مولانا ما قلتليش، إزاي أسلك طريق المعرفة ده؟

هزَّ الرجلُ الغريبُ رأسه بهدوء، وقال:

- ولكنك لن تحتملَ هذا الطريقَ.

رددتُ عليه وقد تملَّكني الفضول:

- ليه بس كده يا مولانا؟

أطرق رأسه إلى الأسفل قليلًا، ثم رفعه ووجّه إليّ نظرةً أحسستُ بها تخترقُ ضلوعي قائلًا:

- وكيف تصبرُ على ما لم تُحِطْ به خُبرًا ؟

حاولتُ تصنُّع المرح، وقلت:

- إن شاء الله هاستحمل يا سيدنا، دا أنا قريت كتب كتير بس الزمن هوا إللي هدني.

احمرَّت عيناه الرجل الغريب بشدةٍ حتى تحوّلتا إلى ما يُشبه جمرتيْن من النار، وقال وهو يُمسك بتلابيبي بعنفٍ:

- لا تسبَّ الدهر فتخسر دنياك وآخرتك.

ارتعدتْ فرائصي من غَضْبَتِه، فقلتُ محاولًا تداركَ الموقف بصوتٍ مرتعشِ النبرات:

- معلش يا مولانا مش قصدي والله، لكن هوا أنا فين دلوقتي ؟ ميت ولا حيَ ؟

هدأتْ غضبةُ الغريب، وقال بعد فترةٍ من السكون:

- بالطبع حيٌّ، ولكنك في حياةٍ مغايرةٍ لِما اعتدت عليه من قبل.

تهلّلتْ أسا ريري بعد يقيني بأنَّني لا زلت على قيد الحياة، وقلتُ:

- ماشي يا مولانا، هنبدأ إمتى في طريق المعرفة؟

تبدَّلتْ ملامحُ الغريب إلى الجدية، وقال بنبرةٍ رصينةٍ:

- يجب عليك أنْ تبدأ بالطلبِ أولًا.

ابتسمتُ ساخرًا، وقلتُ:

- ما أنا يا سيدنا عمّال أطلب منك بقالي ييجي نص ساعة، وإنت مش واخد بالك.

ابتسم الرجلُ الغريبُ وقال:

- ليس الطلب هو ما ظننتَ.

صمتَ قليلًا ثم تحوّل صوتُه مِن جديدٍ إلى النبرةِ العميقةِ ذات الصدى، وهو يقول:

- عندما تسلك طريقَ الطلب فسيعترضك مائةُ تعب، هناك يلزمك الجدُّ والاجتهاد لأنَّ الأحوال انقلبت رأسًا على عقبٍ، فواجبُك أنْ يتطهر قلبُك من كل شيء، وإنْ اجتمع الكفر والإيمان أمامك فستقبل كليهما حتى يُفتح لكَ البابُ، فإذا ما فُتح لك البابُ يتساوى الكفرُ والإيمان حيث لن يبقى هذا ولا ذاك.

اتَّسعت عيناي عن آخرهما دهشةً من كلام الرجل الغريب، وقلت له:

- إيه يا مولانا الكلام الكبير ده؟! معلش سامحني أنا مش فاهم حاجة.

حَدَجني الغريبُ بنظرةٍ اقشعرَّ لها شَعْرُ جسدي كلُّه، وقال:

- أحقًّا ترغبُ في المعرفة يا شحاتة؟

رقص قلبي فرحًا لدى ذكره اسمي، فقد تولَّد لديَّ يقينٌ خفيٌّ بأنَّ هذا الرجل الغريب ما هو إلَّا أحدُ الأولياء الصالحين، فلابُدَّ أنْ ألازمه

عسى أنْ أرى كرامةً مِن كراماته، قلتُ بعد أنْ امتلأت نفسي شوقًا للمعرفة:

- أكيد يا مولانا .

نظر إليَّ الرجلُ الغريبُ مليًا ، ثم سألني بهدوءِ سؤال مَن يعلم مُسبقًا الإجابة:

- ماذا تعرف عن تناسخ الأرواح؟

أطرقتُ رأسي لبرهةٍ مُتفكرًا في سؤاله، ثم أجبتُ بعد أنْ استرجعتُ ما كنتُ أعرفه عن هذا الأمر مِن قراءاتي السابقة:

- على حسب معلوماتي فتناسخ الأرواح ده مجرد أقوال غير صحيحة، ومفيش دليل علمي واحد على حقيقته.

ابتسم الشيخ كاشفًا عن لمعان أسنانه، وقال بهدوء العارفين:

- هناك قوًى خارقةٌ وقدراتٌ خاصةٌ سخَّرها المولى واختصَّ بها بعضًا من عباده، فلابُدَّ أنك تعرفُ سليمان وما خصَّه به المولى مِن السيطرة على الجان وتسخير الرياح وما إلى ذلك، وهناك طاقاتٌ كامنةٌ يَخُصُّ بها المولى بعضًا آخر مِن عباده الصالحين كالكرامات.

أومأتُ برأسي موافقًا، وقلت مُعقّبًا:

- والله معاك حق يا سيدنا .

فرَدَ الرجلُ الغريبُ قامته فاستطالت حتى شعرتُ بأنَّه قد قارب السماء، ثم قال:

- إذن، هل أنت مستعدٌّ لبدء الرحلة؟

ترددتُ لوهلةٍ، غير أنني حسمتُ أمري وقلت بحماسٍ بالغٍ:

- على بركة الله يا سيدنا .

بسط كفيْه وأشار إليَّ أنْ أضع يديَّ فيهما ، غير أنني استوقفتُه سائلًا:

- بس إنت ما قولتليش لغاية دلوقتي، اسمك إيه؟

ابتسم الغريبُ ابتسامته المعهودة، وقال بصوته الرخيم:

- بإمكانك أنْ تُناديني بـ (الطَّوَّاف) .

توقَّفتُ عن الكلام بعد أن سمعتُ صوت توقُّف جهاز التسجيل مُعلنًا امتلاء الشريط الأوَّل عن آخره، فتحتُ عينيَّ ونظرتُ إلى الأريكة حيث كان يجلس الدكتور حسين عندما بدأتُ الكلام فلم أجدْه، سمعتُ صوته يأتي مِن خلفي قائلا بسخريةٍ:

- يا سلام! ! يعني إنت عاوز تقول لي إنَّ الراجل إللي إنت قابلته ده يبقى سيدنا الخضر؟ !

ارتسمتْ على وجهي ابتسامةٌ عريضةٌ، وأجبته دون أنْ ألتفتَ إليه:

- ليسَ كُلُّ طَوَّافٍ خِضْرًا، ولا كُلُّ خِضْرٍ بالضرورةِ طَوَّافا .

- ماشي يا عم الوليَ، أمَّا نشوف آخرتها معاك، اتفضل كمل يا مولانا !

بسخريةٍ لاذعةٍ قال الدكتور حسين عبارته الأخيرة، وهو يُبدِل الشريط المُمتلئ بآخَرَ جديدٍ .

اعتدلتُ في جلستي وأسندتُ رأسي على ظهر المقعد، أغمضتُ عينيَّ وأنا أسترجعُ ما كان معي في تلك الرحلة، ففيها ومنها بدأ وانتهى كلّ شيءٍ.

***

الشرطُ الثاني

«عندما تُقرِّر البدءَ بالرِحلةِ،
سيظهر لك الطريق».

(٣)

صحوتُ مِن نومي مذعورًا على صوتِ دويَ طَرقاتٍ عنيفةٍ تكاد تُهشِم باب الدار، كان الوقتُ قد قارب على نهاية الثلث الأخير مِن ليل اليوم الثاني مِن شهر رمضان في العام تسع وستين وخمسمائةٍ مِن الهجرة، كنتُ قد نمتُ بعد أنْ واعدتُ أبي على ملاقاته في المسجدِ القريب من دارنا لصلاة الفجر، انتبهتُ على صوت حركةٍ وضجيجٍ مرتفعٍ قد علا صخبه في الدار، سمعتُ صوت أمي تصرخُ بصوتٍ مُلتاعٍ:

«ماذا تريدون مِنا في هذا الوقت؟ أليس لبيوتِ المسلمين حُرمةٌ في هذا الزمان؟»

أفقتُ من ذعري فور سماعي صوتَها، وهممتُ بالقيام من فراشي إلَّا أنني فُوجئت باثنين مِن الرجال مُدجَّجيْن بالسلاح يقتحمان غرفتي وقد أشهرا سيفيْهما في وجهي، حاولتُ الحديث معهما، غير أنَّ أحدهما بادرني بالقول:

- أين عمارةُ الشاعر يا فتى؟

تلجَّمتُ في مكاني ولم أنبسْ ببنت شفةٍ، عاجلني الآخرُ بضربةٍ خفيفةٍ مِن مقبض سيفه على جبهتي، وقال بغلظةٍ:

- أفقْ يا غلام، لا وقت لدينا نضيّعه معك، أين أبوك عمارة اليمني؟

تحسَّستُ بيدي موضع الضربة، وقلتُ كاظمًا غيظي:

- لا أعلم، لقد فرغنا من تناول طعام السحور، ثم اتفقنا على أنْ نتقابل في المسجد وقت صلاة الفجر.

تأمَّلني أولُهما مليًا ثم قال بعد أنْ تبادل النظراتِ مع زميله، الذي أومأ برأسه في إشارةٍ بينهما:

- حسنًا يا فتى، إنْ قابلته قبل أنْ نصلَ إليه أبلغه أنَّ السلطان يطلبه لأمرٍ مهم، ومِن الأفضل له أنْ يأتي طواعيةً بدلًا مِن أنْ نُحضره قسرًا.

أنهى الرجلُ عبارته الأخيرة ثم أشار لزميله، غادرا المكان وهما يُطيحان ويعبثان بالأثاث الفاخر الذي كان يفترشُ أرضية مدخل الدار، تنبَّهتُ عقب رحيلهما إلى أمي وإخوتي، كانوا في حالٍ سيئةٍ مِن الخوف والذعر، تقدَّمتُ نحو أمي وربَّتُ على كتفها بعطفٍ ثم قبَّلْتُ رأسَها، رفعتْ عينيْها الباكيتيْن نحوي ثم احتضنتني بحنانٍ بالغٍ وهي تسكبُ الدمع الغالي النفيس، قلتُ لها وأنا أمسح دمعها:

- لا تخافي يا أمي، فإنَّ الله لن يرضى لنا الظلم أبدًا.

نظرتْ لي أمي بأسًى، ثم قالت:

- والله يا بني لا أخشى على نفسي، لكنني فقط أخافُ عليك وإخوتك من بطش السلطان.

تبدَّلتْ نبرتي إلى الحدَّة، وأنا أقول:

- لا تقولي عليه سلطانٌ! فهو خائنٌ غادرٌ.

ابتسمتْ أمي بحزنٍ، ثم قالت وهي تتأمَّل ملامحي بعد أنْ تحوَّلت إلى الغضب:

- لقد شبَّ عُودك يا عبد الله وأصبحتَ مثل أبيك بالتمام والكمال.

ردَدْتُ عليها وقد تملَّكني إحساسٌ بالفخار والعزة:

- صدقتِ والله يا أماه، وإنَّ ذلك لشيءٌ أفخر به.

هزَّتْ أمي رأسَها أسفًا، وقالت:

- ولكنْ، لا تنسَ يا ولدي أنَّ هذا هو ما ورَّطنا فيما نحن فيه الآن.

هززتُ رأسي نافيًا بعنفٍ، وقلتُ بيقينٍ:

- كلا، ولكنَّ الباطلَ يرغب دائمًا في القضاء على الحق.

أغمضتْ أمي عينيْها بأسًى، وقالت:

- لا وقت للجدال الآن يا بنيَّ، ما يهمُّ هو أنْ تسعى إلى المسجد لإخبار أبيك بما حدث قبل أنْ يصلوا إليه.

أومأتُ برأسي موافقًا، وذهبتُ إلى غرفتي أرتدي ثيابي على عجلٍ، وضعتُ الخفَّ في قدميَّ وهممتُ بالرحيل قاصدًا المسجد القريب، عند باب الدار استوقفتني أمي واحتضنتني مرةً أخرى، لثمتْ خدي ثم قالتْ بنبرةٍ كلَّما سمعتُها غمرني حنانُها الفياض:

- كنْ على حذرٍ يا بُنيَّ، فنحن ليس لنا من بعد الله سواك.

ربتُّ على كتفها بحنانٍ، ومسحتُ على رأسها قائلًا:

- لا تخافي ولا تحزني يا أماه، إنَّ الله معنا.

غادرتُ الدارِ بعد أنْ أحكمْتُ إغلاق بابه من خلفي جيدًا، وأكدتُ على أمي ألَّا تفتحَ الباب لأيَ طارقٍ مهما كانت الأسبابُ حتى أعودَ بالخبر اليقين، سرتُ عبر الدروب الضيقة والطرقات المؤدية إلى المسجد.

كانتْ دارنا تقعُ في قاهرة المعز، بالقرب من القصر الشرقيَ الكبير الذي أنشأه الخليفةُ مقرًا لحكمه، للأسف لم تَعُدْ تُسمَّى بهذا الاسم الآن بعد أنْ دخلها السلطانُ الغادر، فقط أصبحت تُلقَّب بالقاهرة.

«تبًا لي! حتى أنا أخلعُ عليه لقب السلطان، هذا الدعيُّ المسمى بصلاح الدين وهو منقطعُ الصلة بكليهما!»

كانت الطريقُ خاليةً مِن المارَّة في مثل هذا الوقت مِن الليل، بعد أنْ خشي الناسُ على أنفسهم مِن بطش صلاح الدين وجنوده، وكيف لا يخشوْن على أنفسهم منه؟ وهو الذي لم يسلم مِن غدره وبطشه قريبٌ أو بعيدٌ؛ فلا زلتُ أذكر ما رواه لي أبي من غدره بوليَ نعمته حاكم دمشق نور الدين محمود بعد أنْ قرَّبه منه وأسبغ عليه مِن فضله ونعمه،

فقد كان نور الدين محمود هو السببَ في قدوم صلاح الدين إلى مصر برفقةِ عمه أسد الدين شيركوه عندما ضعفت شوكة الخلافة الفاطمية وتفككتْ، وأصبح وزراؤها هم المتحكمين في مقاليد السلطة الفعلية في البلاد.

فقد تمَّ تنصيبُ الخليفة العاضد لدين الله كآخر الخلفاء الفاطميين، وهو طفلٌ بالكاد بلغ الحادية عشرة من عمره، وبلغ الصراعُ على السلطة أَوْجَهُ بين الوزير شاور وتابعه ضرغام مِمَّا ترتَّب عليه في النهاية إعلانُهما الحرب فيما بينهما، انتصر فيها ضرغام وفرَّ شاور إلى الشام طالبًا الحماية والمساعدة من نور الدين محمود لإعادته إلى كرسيَ الوزارة في مصر.

كان نور الدين محمود في ذلك الوقت يُعاني في صراعه مع الفرنجة، الذين كانوا يحتلون مساحةً كبيرةً مِن أراضي الشام، فاغتنم الفرصةَ السانحةَ لإقحام مصر في الصراع حتى تتّسع جبهاتُ القتال والصراع أمام الفرنجة مِمَّا يُؤدي إلى تخفيف الضغط على الشام، بالإضافة إلى أنه لو نجح في إعادة شاور إلى كرسي الوزارة في مصر ستتسعُ رقعةُ نفوذه، بحيث يُصبح مُسيطرًا على كلٍّ من الشام ومصر، التي لا تخفى على الجميع أهميتُها البالغةُ في إحكام السيطرة على المنطقة، فقد كان أبي يُطلق عليها (جوهرة الخلافة) التي يجب أنْ تُزيِّن عمامة أيَ خليفةٍ للمسلمين.

تنبَّهْتُ مِن شرود ذهني بعد أنْ رأيتُ المسجد ظاهرًا أمام عينيَّ، أسرعتُ الخُطى حتى وصلتُ إلى بابه، سمعتُ الإمام يقرأ بصوتٍ خاشعٍ قولَه تعالى: «ويمكرون ويمكرُ الله، والله خيرُ الماكرين».

انشرح صدري لسماعي هذه الآيةَ الكريمةَ وأحسستُ بأنها بشارةٌ مِن المولى سبحانه وتعالى بأنَّ نصره قريبٌ، وقفتُ متأخرًا في الصفوف الخلفية للمصلين؛ فقد كان المسجدُ ممتلئًا كعادته في مثل هذه الأيام المباركة.

عقب أنْ انتهيتُ من أداء الصلاة، تقدَّمتُ إلى الصفوف الأمامية في المسجد حيث كان أبي يعتادُ الوقوف، لكنني لم أجده، تلفتُّ حولي أبحثُ عنه بين وجوه المتواجدين، لكنني لم أبصره.

انتبهتُ على يدٍ حانيةٍ تُربَتُ على كتفي من الخلف، التفتُّ بسرعةٍ متوقعًا أنْ ألقى وجه أبي، لكنَّ رجائي ارتدَّ إليَّ خائبًا، كان القاضي الفاضل هو من رأيتُ.

بادرني بالقول بوجههِ الصبوح:

- كيف حالُك اليوم يا عُبيد الله؟

كانت تلك هي عادته في تدليلي، كلما رآني استخدَمَ صيغة التصغير لاسمي دلالةً على أني سأظلُّ صغيرًا في نظره مهما طال بي العمرُ، فقد كان القاضي الفاضل صديقًا مُقربًا من أبي منذ أنْ جئنا إلى مِصر، لا يفترقان إلا حينما يحين وقتُ النوم، كان رجلًا فاضلًا صالحًا، إلَّا أنَّه مع الأسف أصبح مُقرَّبًا من صلاح الدين أيضًا بحكم عمله كقاضٍ في البلاد، وكان صلاحُ الدين يُوليه ثقةً كبيرةً، كان كثيرًا ما يشكو إليه من اعتراض أبي على حكمه وتحريضه للناس على المطالبة بعودة حكم العُبيْديين كما يحلو له أنْ يُلقبهم، على الرغم مِن أنه لم يتعرض له من قريب أو من بعيدٍ، وكان صلاحِ الدين دائمًا ما يسأل القاضي الفاضل عمَّا إذا

كان أبي يتبع مذهب العُبيديين ويُخفي ذلك خوفًا من بطش المُحيطين به، كان لا يعلم أنَّ أبي سنيٌّ شافعيٌّ، فقط كانت معارضتُه نابعةً مِن كونه لا يرضى بالظلم والجور.

انتبهتُ على صوته يقولُ ضاحكًا:

- أين شرد بك عقلك يا فتى؟ لقد كنتُ أسألُك عن حالك؟!

تجاهلتُ ما قال، لم أكن في حالٍ تسمحُ لي بتقبُّل الدعابة، وسألته بنبرةٍ جادَّةٍ:

- عذرًا سيدي، ألم ترَ أبي اليوم في الصلاة؟

تفرَّس القاضي الفاضل ملامحي جليًا، ثم قال بنفس الجدية بعد أنْ أدرك أنَّ ثمَّة أمرًا خطيرًا:

- لقد هممتُ بأنْ أسألك ذات السؤال، فأبوك لم يتغيبْ عن أداء فرضٍ في المسجد قط منذ أنْ عرفته.

تبدَّلتْ ملامحي إلى الدهشة، وقلتُ مفكرًا بصوتٍ مسموعٍ:

- عجيبٌ هذا الأمر، أين تراه قد ذهب في مثل هذا الوقت؟ لا بُدَّ أنّ هذا الملعون صلاح الدين قد أمسك به.

عقد القاضي الفاضل حاجبيْه متفكرًا، وقال متسائلًا:

- ماذا تقصد يا عبد الله؟

أجبته بحنقٍ:

- لقد اقتحم رجلان مِن جنود صلاح الدين دارنا شاهرِيْن سيفيْهما، كانا يبحثان عن أبي وأخبراني بأنَّ صلاح الدين يبحث عنه.

أطرق رأسه إلى الأسفل، ثم قال بحزنٍ وأسفٍ:

- لا بُدَّ وأنَّ الوشاية بأبيك قد آتت ثمارَها.

سألتُه بلهفةٍ:

- ماذا تقصدُ يا سيدي بأنَّ الوشاية بأبي قد آتت ثمارها؟

أجاب بنبرةٍ حزينةٍ:

- لقد حذَّرتُ عمارة مرارًا وتكرارًا بأنَّ لصبر السلطان حدودًا، وأنَّه لا يصحُّ أو يليقُ أنْ يستمرّ في دعمه لأبناء العبيديين بعد أنْ تقوَّضت أركانُ خلافتهم، ولكنه للأسف لم يستمعْ لنُصحي.

غلت الدماءُ في عروقي دفعةً واحدةً، وقلتُ بغضبٍ:

- وكيف تريدُ له أنْ يستمعَ لنصحك؟! وأنت تعلمُ أنه لم يلقَ منهم إلاّ كلَّ خيرٍ وتقديرٍ، منذ أن ارتحلنا من اليمن إلى مصر واستقبلونا بكلِ ودً وترحابٍ، وأغدقوا علينا الهدايا والمال الوفير على الرغم من أنِّ أبي لم يكن على مذهبهم، بل إنك تعلمُ ما حدث منه عندما كان جالسًا في مجلس الخليفة، وقام بعضهم يتملَّقون الخليفة فسبُّوا الصحابيْن الجليليْن أبا بكرٍ وعمر - رضي الله عنهما - فما كان منه إلّا أن اعترض على مرأى ومسمعٍ من جميع الناس على تلك الفعلة الشنعاء وغادر مجلس الخليفة، وظلَّ مُلازمًا لداره مُنقطعًا عن حضور المجلس حتى أتاه رسول مِن الخليفة يُخبره بأنَّ ذلك لن يتكررَ مرةً أخرى.

هزَّ القاضي الفاضلُ رأسَه موافقًا، وهو يقول:

- بالطبع أعلم ما كان من أبيك في تلك الليلة، لكنَّ ذلك لا يغفرُ له معارضته الدائمةَ على العلن لحكم السلطان، وتحريضه لعامَّة الناسِ على معارضته وعصيانه.

ازداد عنادي بعد سماعي لعبارته الأخيرة، فقلتُ وقد ارتفعتْ حدَّةُ صوتي:

- وهل كانت معارضتُه له حقًّا أم باطلًا؟ ألم يقمْ صلاح الدين بقتلِ الخليفةِ العاضد بعد أنْ قرَّبه منه وأعطاه الأمان حتى أصبح مساعدَه ووزيره؟ ألم يُغلق المسجد الأزهر منارة العلم في المنطقة بأسرها؟ ألم يقمْ بهدم دار الكتب وأحرق ما فيها من نفائس الكتب والمخطوطات؟ ألم يقمع ويقتل كلَّ من عارضه وثار ضده في شتى ربوع مصر؟ هل يمتُّ ذلك للإسلام بصلة؟ هل مع كل ما فعله من جرائمَ يظلّ له علينا واجب السمع والطاعة؟

هزَّ القاضي الفاضل رأسه بأسًى، وهو يقول:

- يا بُني، دَعْ عنكَ هذه الأقوال الرنانة، فالأمرُ لا عَلاقة له بالدين من قريبٍ أو بعيدٍ، جُلّ ما فيه أنَّه صراعٌ على مقاليد الحكم في البلاد، وواجبناً أنْ نقفَ مع السلطان حفاظًا على وحدة الأمةِ وحقنًا لدماء المسلمين.

نظرتُ إليه مُتعجبًا، ثم قلتُ مستهزئًا:

- حتى وإنْ كان قد وصل للحكم بالقتلِ وسفك الدماء؟!

هزَّ الرجل رأسه مُتفهمًا، وقال بنبرةٍ مشفقةٍ:

- دعك من هذه التُّرهات، فلم يقم دليلٌ يقينيٌّ على قتله للخليفة ولا تنسَ أنَّ العاضد كان مريضًا في آخر أيامه، المهم أنْ نجد أباك قبل أنْ يتمَّ الإمساكُ به حتى أتمكَّنَ من الحديث بشأنه مع السلطان، عسى أن يكون حديثي مقبولًا لديه.

لمعتْ في عينيَّ الدموعُ، وسألتُه:

- وماذا عساي أنْ أفعل الآن؟

ربَّت القاضي الفاضلُ على كتفي بحنانٍ أبويً، ثم قال مُشجعًا:

- عُدْ إلى أمك وإخوتك، وأخبرهم أنَّ القاضي الفاضل لن يهدأ له بالٌ حتى يَجِدَ عمارة ويعيده سليمًا معافًى لأهل بيته.

شكرتُه بحرارةٍ وودَّعتُه عند باب المسجد عقب أنْ طمأنني مرةً أخرى أنه سيبحثُ عن أبي لدى بعض الأصدقاء عساه أن يكون لدى أيٍّ منهم، وأنه سوف يُعيده إلينا في المساء على أقصى تقديرٍ.

***

أفقتُ على يد الدكتور حسين تهزُّني برفقٍ، وهو يقول:

- إيه يا شحاتة، رحت فين؟

فتحتُ عينيَّ ببطء شديدٍ، جُبْتُ بهما المكان من حولي لأعلم أين أنا، بادرني الدكتور حسين بالقول مبتسمًا:

- دا إنت دخلت في الحكاية جامد جدًّا، مش حاسس إن الكهربا قطعت؟

اعتدلتُ في جلستي بعد أنْ شعرتُ بارتفاع حرارة الجو عقب أنْ توقَّف جهازُ التكييف عن العمل، وقد تفصَّد جبيني بالعرق، سألته وأنا أمسحُ وجهي براحتي:

- هوا النور قاطع بقاله كتير؟

ابتسم الدكتور حسين، وقال هو يُشعل سيجارته:

- لأ لسه ما بقالوش خمس دقايق.

سحب نفسًا عميقًا من السيجارة ثم زفره بشدةٍ في الهواء، قال وهو يُراقب حركة الدخان:

- بس إنت يا شحاته كل ده ما حكيتليش حاجة عن حياتك وعيلتك.

تجاهلتُ عبارته وكأنه لم يقلْ شيئًا، مددتُ يدي إلى جيب سروالي أطمئنُّ على صور عائلتي، نظر إليَّ الدكتور حسين متأملًا ردَّة فعلي، وقال محاولًا تغيير دفَّة الحوار:

- بس إنت ما قولتليش، إزاي انتقلت للعصر القديم ده؟ هوا صاحبك الطوَّاف كان معاه آلة الزمن؟

ضحك الدكتور حسين ساخرًا مقهقهًا بعد أنْ أنهى عبارته السابقة، ثم نظر إليَّ مُتحديًا، تأملتُه طويلًا، وأنا في حيرةٍ من أمري، أأغضبُ منه أم أشفق عليه!

مددتُ يدي إلى علبة سجائره الموضوعة على المنضدة أمامي بجوار جهاز التسجيل وأَخرجتُ منها سيجارة، حدجني الدكتور حسين بنظرةٍ مليئة بالدهشة، ثم ما لبث أنْ مدَّ يده بقداحته مشتعلةً، ربَتُّ على يده شاكرًا وأنا أسحبُ نفسًا عميقًا، تأمَّلني فترةً وأنا أستمعُ بنفخ الدخان، ثم قال بهدوء:

- مش ناوي تتكلم بقَى يا شحاتة، صدقني أنا عاوز أساعدك، أنا خلاص فاضل لي شهور بسيطة وأطلع معاش، وأنت تقريبًا أغرب حالة قابلتها ومش هاسمح لنفسي بالفشل في نهاية حياتي المهنية.

نفختُ دخان السيجارة بشغفٍ متأملًا عبقرية حركاته الراقصة، ثم قلتُ:

- عاوز تعرف إيه؟

أطفأ الدكتور حسين سيجارته، ثم ردَّ بلهفةٍ:

- عاوز أعرف حياتك وعيلتك كانوا إزاي!

استكنتُ برأسي على مؤخرة المقعد الجلديَ الوثير، بدأت الذكرياتُ والأحداثُ تتلاحقُ في عقلي، ربَتُّ بحنانٍ على الصور في جيب سروالي.

***

كنتُ طوال حياتي أنأى بنفسي وعائلتي عن الوقوع في المشاكل، كان جلُّ همي وغاية طموحاتي تتمثل في العبور بأبنائي إلى برّ الأمان، مثل أيَ ربِ أسرةٍ مصريً كنتُ أكدح وأشقى في عملي البسيط المتواضع

نهارًا، ثم أعملُ على كتابة الرسائل العملية ليلًا لطلبة الدراسات العليا، عسى أنْ يُوفِر ذلك لنا دخلًا إضافيًا يُعينني على تحمل تكاليف الحياة الشاقة التي لا تنتهي.

كنتُ الابنَ الأوسط بين ولديْن للحّاج عبد الصبور المصري، كان -عليه رحمة الله- يعملُ غفيرًا لمنزلٍ ريفيٍّ مملوكٍ لنديم بك لمعي، ابن أحد الإقطاعيين من بقايا النظام الملكيَ البائد، كان هذا المنزل الريفيُّ والأرضُ المقام عليها هو آخر أملاك عائلة شوكت باشا لمعي والد نديم بك بعد أنْ أمَّمها عبد الناصر في ستينيات القرن الماضي، كانت المنطقةُ بأكملها آيةً في الجمال تكسوها الزراعاتُ والأشجارُ الوارفةُ، قبل أنْ تتحوَّل إلى كتلةٍ مشوهة من المباني السكنية المتلاصقة بعد أنْ دخلتْ إلى كردون المدينة، انعكستْ هذه التشوهاتُ على شخصياتنا نحن قاطني أرض اللواء.

لا زلتُ أذكر- على الرغم من صغر سني آنذاك- حوارات أبي مع زملائه من غفراء الأراضي المجاورة، حينما كانت أمي تُرسِلني إليه بالشاي، كنتُ دومًا أسمعه يتحدث بانبهارٍ بالغ يصلُ لدرجة التقديس عن شخصية جمال عبد الناصر وكيف أنه كان زعيمًا بحَقٍّ، أعاد للمصريين كرامتهم التي سلبها منهم الملكُ الخائنُ عميل الإنجليز، جعل من مصر قوةً عسكريةً كبيرةً يخشاها القاصي والداني، حتى إنَّ أبي كان كثيرًا ما يُردِد:

«والله لو الريس جمال أمر، لنطلع كلنا على اليهود بالعصي والنبابيت ونرميهم في البحر».

كم كان أبي طيب القلب نقيَّ السريرة، كانت صدمتُه عنيفةً عندما وقعت النكسة، أصيب بحمَّى ألزمته الفراش أسبوعًا، إلا أنَّه ظلَّ على حبه ووفائه لعبد الناصر، حتى إنه عندما مات أقام أبي له سرادقًا على أول الطريق بالقربِ من مزلقان القطار، ووقف يتلقى فيه واجب العزاء.

وعلى الرغم من كراهية أبي الشديدة للعصرِ الملكيَ وكل ما يمتُّ إليه بأية صلة، إلا أنه كان يُكنُّ حبًا وتقديرًا عميقًا لنديم بك صاحب الأرض، فطالما حدَّثني عن كرمه وجوده، قائلًا بلهجته البسيطة:

«ده أصله راجل مأصل، باشا وابن باشا».

لم أفهم هذا التناقض العجيب في شخصية أبي في ذلك الحين، ولكني شببتُ مثله أحبُّ عبد الناصر وأكره الملك والإقطاعيين، لكنني أقدر وأحترم نديم بك لمعي.

أسماني والدي شحاتة لأنه لم يتكلف مليمًا واحدًا أثناء ولادة أمي - رحمها الله - لي، فقد جاءت القابلةُ إلى حجرتنا المتواضعة مُحاملةً من نديم بك، واهتمَّ الجيرانُ بتحمُّل تكاليف الطعام والشراب اللازمين للرعايةِ بصحةِ أمي بعد الولادة طبقًا للعادات السائدة في ذلك الوقت، حتى عندما مرضتُ بمرض السعال الديكي بعد ولادتي بشهور قليلة اهتمَّ أحدُ مُلَّاك الأراضي المجاورة لنا بنقلي إلى المستشفى وتحمل تكاليف علاجي.

حاول أبي أنْ يكفل لي حياةً مختلفةً عن حياته؛ فاهتمَّ بتعليمي بعد أنْ رأى أني مختلفٌ عن إخوتي، وكان في سبيل تحقيق ذلك يسعى

لجعلي قريبًا من أبناء نديم بك عندما كانوا يقضون إجازتهم الأسبوعية في بيتهم الريفي، كان الرجلُ للحق سخيًا كريمًا معي للغاية عندما لمح لديَّ نبوغًا وتفوقًا وميلًا إلى التعلم على العكس من باقي إخوتي.

توفي أبي وأنا في الثانوية العامة دون أنْ يترك لنا مالًا يكفل لنا حياةً كريمةً، أصرَّ نديم بك على بقائنا في حجرتنا، وعلى أنه سيتحمَّل كل تكاليفَ تعليمي على أنْ يحلَّ أخي الأكبر محلَّ أبي في حراسةِ الأرض، كان لصدمةِ وفاة أبي المفاجئة تأثيرٌ قويٌّ عليَّ فلم أتمكن من الحصول على مجموع جيدٍ في الثانوية العامة، لذا فقد التحقتُ بمعهد الخدمة الاجتماعية على العكس من أحلامي التي كنتُ أرى نفسي فيها طبيبًا مرموقًا أو مهندسًا مشهورًا.

مرَّتْ علينا الأيامُ والشهورُ وتغيَّرت معها أحوالُ الدنيا، تخرَّجتُ بتقديرٍ مقبولٍ بالطبع، حاول نديم بك إلحاقي بالعملِ لديه في إحدى شركات مجموعته الاستثمارية بعد أن اكتسب ثروةً تجاوز ثروة عائلته أيام الملكية بفضل تتابُع السياسات وتغيُّرها لصالحه؛ من الانفتاح وحتى السوق الحرَ والخصخصة، كما أخبرنا بنيَّته في بيع المنزل الريفيَ والأرض المقام عليها بعد أنْ تبدَّلت الأحوال ولم تَعُدِ الزراعةُ مشروعًا يُغري بالاستثمار فيه، رفضتُ عرضه المحترم بأدبٍ جمٍّ، واعتذرتُ برغبتي في الاعتماد على نفسي.

قام الرجلُ بنقلي وأمي إلى شقة متواضعة في نفس المنطقة، كانت بسيطةً ولكنها تفي بالغرض، بعد ابتعاد أخي الأكبر عنا وعمله في مجال سمسرة الأراضي والذي كان رائجًا في تلك الأيام، أمَّا أخي الأصغر فقد

سافر إلى الخليج مثل آلافٍ غيره ليعملَ في مجال المقاولات، انقطعتْ صلتُه بنا منذ ذلك الوقت، وبقيتُ أنا وأمي وحدنا نكافح من أجل البقاء.

كانتْ هذه الشقةُ هي السبب في معرفتي بجارتنا، والتي أصبحتْ فيما بعد زوجتي، فقد كانت تقطن وأهلها في الشقة المقابلة لنا، ازدادتْ أواصرُ المعرفة بعد مرض أمي المفاجئ الذي كان يستدعي تواجد أحدٍ معها ليرعاها باستمرارٍ، لم يكن هناك أفضل من زوجتي سلوى، التي كانت لا تزال تدرسُ في معهد التمريض.

كنتُ طوال الوقت أسعى وأكدُّ بحثًا عن عملٍ بلا جدوى، أملًا في أنْ يصلني خطابُ تعيين الشئون الاجتماعية حتى أتمكنَ من العملِ بشهادتي الجامعية، وصلني خطابُ التعيين ويا ليته لم يصل! فقد تم تعييني أخصائيًا اجتماعيًا في إحدى مدارس محافظة الوادي الجديد، لم أقدم أوراقي بالطبع وظللتُ على نفس الحال من السعي والكد بلا فائدةٍ، تقطّعتْ بي السبلُ ولم يَعُدْ أمامي سوى أحد خيارين، إما الاتجار بالعملة أو الاتجار بالمخدرات، أصبحنا نعيشُ على المعونةِ الشهريةِ التي يُرسلها لنا نديم بك وفاءً لذكرى أبي.

حتى جاء اليوم الذي أرسل إليَّ سائقه الخاص يبلغني بأنَّ هناك وظيفة مشرف مخازنَ في الهيئة العامّة للكتاب، حيث إنَّ مدير الهيئة وهو ضابطٌ سابقٌ بالمعاش قد أصبح صهرًا لنديم بك، تمّ تعييني في هذه الوظيفة واستطعت توفيرَ بعض المال اللازم للإنفاق على مرض أمي.

كانت سلوى قد تخرّجتْ من المعهد وتمّ تعيينُها بأحد المستشفيات الحكومية كممرضة، أصبحت أمي لا تستطيعُ الاستغناء عنها، لذا فقد فاتحتني صباح أحدً الأيام برغبتها في تزويجي منها.

على الرغم من أنَّها لا تتوافر فيها مواصفاتُ فتاة أحلامي التي طالما قضيتُ معها أحلى الأوقات نومًا ويقظةً، إلا أنَّ رغبة أمي كانت بالنسبة إليَّ أمرًا مُقدسًا واجب النفاذ.

تمَّ زفافُنا في حفلٍ بسيطٍ على سطح منزلنا حضره المعارف والجيران، أرسل نديم بك سائقه الخاصَّ للمباركة وسلَّمني مظروفًا فيه مبلغٌ من المال، لم يحضر أحدٌ من إخوتي، بعد الزواج بدأتُ أتعرَّف على شخصية زوجتي الرائعة بحقٍّ، فقد كانت مثالًا للزوجة المطيعة المتفانية في حب بيتها وزوجها، كان المنزلُ بالنسبة لها هو مملكتها التي تتربعُ على عرشها لا تبتغي سوى سعادة الملك المتوَّج على عرشها، ولحسن حظي كنت أنا هذا الملك.

لم تصمد أمي طويلًا أمام ضربات المرض المتلاحقة فصعدت روحُها إلى بارئها قبل أن ترى أبنائي.

توقَّفتُ عن الكلام عقب أنْ عادت الكهرباءُ إلى غرفة الدكتور حسين، نظرتُ إليه، كان يُحاول التشاغل بقلب الشريط بعد أن تبين له أنَّ وجهه الأول قد امتلأ عن آخره، نظر إليَّ وقال بنبرةٍ مُشفقةٍ:

دا أنت قاسيت كتير يا شحاتة.

حدجتُه بنظرةٍ ساخرةٍ، وأنا أقول مُتهكمًا:

- الحمد لله يا دكتور.

هزَّ الدكتور حسين رأسه متفهمًا، وقال:

- ماشي يا شحاتة، ممكن نكمل دلوقتي.

أومأتُ برأسي موافقًا، وأنا أغمضُ عينيَّ حبسًا لدموعي من الانهمار أمامه، ذهبتُ إلى عالمي الخاص وأنا أسمعُ صوت ضغط الدكتور حسين على زرِّ تشغيل جهاز التسجيل.

***

مرَّت ثمانيةُ أيام منذ التقيتُ القاضي الفاضلِ في المسجد، ولم يَعُدْ أبي إلى دارنا بعد، كُنتُ في تلك الأثناء أجوبُ كلَّ طرقات وأزقةِ القاهرة بحثًا عنه، سألتُ كلَّ الأصدقاء والمعارف، ولكن دون جدوى.

ذهبتُ للقاء القاضي الفاضل أكثر من مرةٍ ولكنه كان على نفس الحال، يُطمئنني ويُخبرني ألَّا أقلق على الإطلاق، وأنه يبذل قصارى جهده في سبيل العثور على أبي.

حتى كان أمس، التقيتُ بأحد أصدقائي يعملُ والده حارسًا بالقصر الشرقيَ الكبير، أخبرني بأنَّ أبي قد سقط في قبضةِ صلاح الدين وأنهم يتهمونه بالتآمر على السلطان، وأنَّ بعض المُقرَّبين مِن صلاح الدين قد أخبروه بأنه قد اتَّصل بالفرنجةِ سرًّا يُحرضهم على غزو مصر لتحريرها من قبضة صلاح الدين.

أصابني الوجومُ والهلعُ مِمَّا سمعتُ، فقد كانت عقوبةُ هذه الفعلة هي الموت شنقًا بلا شكٍ، غير أنني تحاملتُ على نفسي ولم أُخبر أمي بما بلغني من أخبار، وذهبتُ من فوري قاصدًا بيت القاضي الفاضل بالقرب من القصر الغربيَّ الصغير، ولكن صدمني الحراسُ على بوابة بيته عندما رفضوا السماحَ بدخولي لمقابلته، أخبروني بأنَّ القاضي لا يُقابل أبناء الخونة، لم يُصدق عقلي ما سمعتْه أذناي، أأصبحَ أبي خائنًا عشيةَ ليلةٍ وضحاها؟!

عُدتُ في طريقي إلى الدار تائهًا شاردًا، أجرُّ أذيال الخيبة والهوان، لم أدرِ ماذا أقولُ لأمي وإخوتي، هل أخبرهم بأنَّ أبي عمارة اليمنيَ الشاعر الكبير قد أصبح خائنًا في نظر القاهريين، هل أخبرهم بأنَّ القاضي الفاضل قد تنكر لصداقته بأبي بعد أنْ كان لا يُفارقه لحظةً واحدةً؟!

أفقتُ مِن شرود ذهني على صوتٍ يأتي من خلفي، بعد أن شارفتُ على الوصول إلى دارنا:

- عبد الله، عبد الله.

التفتُّ برأسي في اتجاه مصدر الصوت، كان المعتصم صديقي الوحيد الذي بقي محتفظًا بصداقتنا ولم يفصم عُراها، كان الوحيد الذي ظلَّ محتفظًا بمذهبه الشيعيَ بعد استيلاء صلاح الدين على السلطة، فعلى الرغم من أنَّ كل سكان القاهرة كانوا على المذهب الشيعيَ لأكثر من قرنينْ من الزمان، إلا أنهم غيَّروا مذهبهم ليتبعوا مذهب سلطانهم الجديد بعد أن استتب له أمرُ الحكم، فقط بقيت قلةٌ قليلةٌ حافظتْ على مذهبها سرًا، خوفًا من فتك وبطش صلاح الدين، كان من هؤلاء صديقي المعتصم وأهله.

- هل علمتَ بأمر أبيك؟

قالها المعتصمُ وهو يلهث جرَّاء ركضه ليلحقَ بي، أومأتُ برأسي دون أنْ أردَّ، نظر إليّ وهو يلتقط أنفاسَه المتقطعة:

- وماذا تنوي أن تفعل؟

فرَّتْ دمعةٌ ساخنةٌ من عيني بعد أنْ شعرتُ بعجزي وقلة حيلتي، قلتُ بصوتٍ متهدج:

- وماذا أستطيعُ أن أفعل؟

تهللت أساريرُه فرحًا وقال يُبشرني:

- لقد تجمَّع أناسٌ كثرٌ في الساحة بين القصريْن الشرقي والغربي، وأقسموا أنهم لن يبرحوا مكانهم إلا بعد أنْ يُخلي صلاح الدين سبيل أبيك ومن معه.

تساءلتُ بدهشةٍ:

- وهل أمسك صلاح الدين بأناسٍ غير أبي؟!

أومأ المعتصمُ برأسه، وهو يقول:

- نعم لقد أمسك بخمسةٍ من الرجال من بينهم مؤتمن القصر، ويزعم أنهم قد تآمروا مع أبيك وقاموا بمراسلة الفرنجة لتحريضهم على غزو البلاد، وأنَّ عيونَه وجواسيسَه قد تمكنوا من القبض على رسولهم إلى ملوكِ الفرنجة، وأنَّ هذا الرسول قد أقرّ بجُرمه وأبلغ عن أبيك والآخرين.

صررتُ على أسناني غضبًا، وقلتُ بصوتٍ مكتوم:

- عليه لعنةُ الله، لا بُدَّ أنْ يلقى هذا الدَّعيُّ جزاءه العادل.

هزّ المعتصمُ رأسه وقال:

- لا وقت لدينا لهذا الحديث؛ فالمجتمعون بالساحة يرغبون في حضورك بينهم، لأنَّ ذلك سيمنحهم قوَّةً قد تُشجع آخرين على الانضمام لنا، وكلَّما زاد العددُ زاد الضغط على الطاغية.

انتابتْني الحماسةُ واستدرتُ عائدًا بصحبته إلى حيث تجمُّع الناس يُطالبون الطاغيةَ بفكِّ أسْر أبي ومن معه، طوال الطريق كنتُ أفكِّر كيف تغيَّر بنا الحالُ بعد أنْ كنا نعيشُ حياةً مُترفةً منعَّمةً في بلدتنا الأصلية (زبيد) باليمن، يالله كم أحنُّ وأشتاقُ إلى تلك الأيام الجميلة! كان أبي لديه طموحاتٌ واسعةٌ وآمالٌ عريضةٌ، لذا فقد رأى أنَّ مكوثه في بلدته الأصلية لن يُحققَ له ما يصبو إليه، لذا فقد ارتحلنا معه إلى (عدن) حيث الرخاء والثراء، كانت عدن خاضعةً لملوك آل زريع المعروف عنهم كرمُهم وسخاؤهم الشديدان مع العلماء والفقهاء والشعراء، لذا فما لبث أبي أنْ استقرَّ لفترةٍ يسيرةٍ في عدن حتى نالَ ما يستحقه من التقدير والعرفان من ملوكها.

استمرَّ طموحُه العريضُ يدفعه ويُحركه سعيًا نحو الكمال وبلوغ المكانة العالية التي كانت نفسُه تهفو إليها، فارتحلنا معه من جديدٍ إلى الأرض المقدسة؛ مكة المكرمة.

لبثنا فيها فترةً كانت من أسعد فترات حياتنا، كانت لأبي فيها حلقة علم في المسجد الحرام، سطع نجمُ أبي وبزغ اسمُه بين علماء مكة، حتى وثقَ فيه أميرُها وأرسله سفيرًا إلى مصر لمقابلة الخليفة الفائز بن الظافر ووزيره طلائع بن رزيك، وفي مصر طاب لأبي المُقام، حيث وجد ضالته المنشودة، ففيها أصبح مُقربًا من خليفة المسلمين، له رأيٌ مسموعٌ وقولٌ نافذٌ.

انهمرتْ خيراتُ الدنيا علينا من كلِ مكانٍ، وظنَّ أبي أنه قد ملك تاج المجد والسعادة بين يديه، ولكنْ مع الأسفِ أدرك بعد فترة أنَّ الحياة الطيبة التي كنا نرفل فيها قد أصبحت سرابًا، فبعد أنْ قتل الغادر صلاح الدين الخليفةَ العاضدَ في الجمعة الثانية من شهر المحرم في العام سبع وستين وخمسمائة من الهجرة استتبَّ الأمرُ لصلاح الدين، فأعاد الخطبة للخليفة المستضيء بأمر الله العباسي على منابر مساجد قاهرة المعز دون أيَ ضجةٍ.

أفقتُ من شرودي عليِ وكْزةٍ خفيفةٍ في كتفي اليسرى، نتيجة اصطدامي بأحدِ المارة في طرقات القاهرةِ الضيقة، التفتُّ إليه وقد استشطتُ غضبًا، ثم قلتُ بحدَّةٍ:

- ما بالك يا هذا، ألا تُبصر؟

استدار الرجلُ ناحيتي فهالني ما رأيت، كان أول ما شدَّ بصري عيناه، كانتا واسعتيْن كحلاويْن تشعَّان بريقًا عجيبًا فيه مزيجٌ من السماحة والرهبة، تشعر بأنَّ نظراته تتملكك وتستحوذ عليك، تأسِرك بسحرها فلا تستطيع مواجهتها، انتبهتُ على صوته العميق الوقور:

- معذرةً يا بُني، فأنا لم أقصد الاصطدام بك.

تلعثمت الحروفُ فوق لساني، وخرج صوتي ضعيفًا باهتًا رغمًا عني:

- لا عليك يا سيدي، لم يحدث شيء.

تدخَّل المعتصمُ في الحديث قائلًا:

- هيا بنا يا عبد الله، لا وقت لدينا نُضيعه.

رمقه الغريبُ بنظرةٍ ارتعدتْ لها فرائصُ المعتصم وألزمتْه الصمت، ثم خاطبني قائلًا:

- لا أقصدُ التطفلَ يا بني، ولكن أين طريقُكم؟

على الرغم من غرابةِ سؤاله وتطفُّله الفجّ، غير أنني وجدتُ نفسي مدفوعًا لإجابته:

- نحن في طريقنا إلى ساحةِ بين القصرين لنساعدَ الناس بعد أنْ تجمّعوا للمطالبة بفكِ أسْر أبي ورفاقه من قبضة صلاح الدين.

تأمّلني الغريبُ طويلًا، ثم قال بنبرةٍ بدتْ من عمقها وقوّتها أنها قد زلزلت الأرضَ من تحت قدميّ:

- وهل في الدين صلاحٌ أو فسادٌ يا بني؟

لم أفهم معنى عبارته، فبادرتُه قائلًا:

- معذرة يا سيدي، لم أفهم ما قلتَ!

هزّ الغريبُ رأسَه، ثم قال بيقينٍ عجيبٍ:

- لكلِ أجلٍ كتابٌ.

شدَّني المعتصمُ من ذراعي، وهمس في أذني:

- هيا بنا يا صديقي، لا وقت لدينا نُضيعه مع هذا المجذوب.

نظرتُ تُجاه الغريب فلم أجده، كان قد ابتعد عنا ماضيًا في طريقه، غير أنه توقّف فجأةً ثم التفتَ إلينا، أطال إليّ النظرَ، ثم قال بصوتٍ جهوريٍ ارتجف معه قلبي:

- يا خفي الألطافِ، نجّنا ممَّا نخاف.

جذبني المعتصمُ من يدي بجدَّةٍ، حتى نكملَ طريقنَا، وهو يقول:

- ما بالُ هذا الزمان؟ لقد كثر أمثالُ هذا المجذوب حتى بات المرءُ لا يستطيع السيرَ في الطرقات منهم!

نظرتُ إليه ساهمًا وأنا أفكر فيما قاله هذا الغريبُ، لم أكن أجده مجذوبًا، بل على العكس تمامًا، كأن شيءٌ ما في نظراته يحمل إليَّ إشارةً ما، أو رسالةً محددةً، لكنني لم أفهمها.

- مرحبًا بالكريم ابن الكريم.

تنبَّهتُ على هذه العبارة، فنظرتُ صوْب قائلها، كان البشير السوداني تاجر النوق الشهير وأحد أصدقاء أبي المقرَّبين، كان من القلة التي حافظتْ على مذهبها الأصلي وظلَّتْ على وفائها لدولة الخلافة، أكمل البشير حديثه، وهو يُربِت على كتفي بقوةٍ بعد أن احتضنني:

- لقد شبَّ عودُك يا عبد الله، وأصبحت شبيهًا لأبيك بالتمام والكمال.

ابتسمتُ بمجاملةٍ واضحةٍ، وقلتُ:

- أشكرك يا سيدي، وإن كان أبي هو الأصل وأسأل الله أن أكونَ مثله في كل شيء.

أومأ البشيرُ برأسه موافقًا، وقال:

- صدقتَ يا بني، المهم أننا نحتاجُ إلى كل من نعرفهم للاصطفافِ معنا في هذه الساحة حتى نضغطَ على الطاغِوت صلاح الدين ونطلقَ سراح المأسورين.

تقدَّم أحدُ المتواجدين من البشير، اقترب منه وهمس في أذنه ببضع كلماتٍ ثم انصرف إلى حال سبيله بعدما أشار إليه البشيرُ بذلك، التفتَ إلينا البشيرُ وقال يُخاطبني:

- لقد علمنا أنَّ صلاح الدين قد انتهى من المحاكمةِ الظالمة، وسيقوم بنقل أبيك ومن معه إلى القصر الشرقيَ الكبير حتى يتم إعلانُ نتيجتها على مرأى ومسمع من الناس كافةً، كما علمتُ أنَّ أباك قد طلب مقابلة القاضي الفاضل غير أنه رفض مقابلته.

عضضتُ على نواجذي من الغيظ وقلت بنبرةٍ مستاءةٍ:

- هذا شيءٌ مُتوقعٌ، لقد فعل معي ذات الفعل.

نظر المعتصمُ صوْب البشر المحتشدين في ساحةِ بين القصرين، وظهرت على وجهه علاماتُ الدهشة، ثم قال مُحدثًا البشير:

- قُلْ لي يا عمَّاه، كيف استطعتم أنْ تحشدوا كلَّ هذا الجمع في مثل هذا الوقت القصير؟

لمعت عينا البشير، وقال بيقينٍ:

- يا بني، لا زال في الناسِ خيرٌ كثيرٌ، فبعد أنْ غيَّر الطاغوت صلاح الدين مِلة أهل البلاد قسرًا وقتلِ خليفتهم لم يُبْقِ لهم شيئًا سوى الغيرة على دينهم، وهذا ما فعله البطلُ عمارة اليمني، إذ إنه لم يعترض على أفعال صلاح الدين إلا غيرةً على هذا الدين.

ظهر على وجهي بعضُ الارتباك، وقلتُ له مُستشعرًا الحرج بعد أن استنتجتُ أنه قد أساء فهم موقف أبي:

– معذرةً يا سيدي، ولكنْ ليس للدين أدنى عَلاقة بهذا الأمر، فإنَّ موقف أبي كان مبنيًا على الوفاء لمن أكرموه وأنزلوه منازل التقدير.

رماني البشيرُ بنظرةٍ نارية، ثم قال بصوتٍ مبحوح:

– يا غلام، إنَّ هذا الأمر أكبر مما تتصورُ فلا تُسفِه من عقائد وإيمان المتواجدين، لقد آمنوا بموقفِ أبيك وأيقنوا بأنَّ ما فعلِه كان دفاعًا عن الدين، فليس من حقك الآن أنْ تسلبهم هذا اليقين.

ازداد ارتباكي وتلعثمت الكلماتُ في حلقي، وقلتُ:

– معذرةً يا سيدي، فأنا لم أقصد . . .

لم أستطع إكمال عبارتي الأخيرة، فقد قاطعني البشيرُ بحسم، وقال بعد أنْ مدَّ يمينه بسيفٍ لمعَ نصله بشدةٍ تحت ضوء الشمس:

– لا تُكمل يا فتى، فقط أمسكْ بهذا السيف حتى تتمكنَ معنا من الدفاع عن أرواح وأعراض أنصار أبيك.

اتسعت عيناي من هوْل المفاجأة، لم أمدَّ يدي ليده الممدودة بالسيف، تراجعتُ بضع خطواتٍ إلى الوراء وقد بدأ الخوفُ يشرع أجنحته على فؤادي، تقدّم مني البشير بخطى وئيدةٍ، ثم قال بنبرةٍ ناعمةٍ مُستفزةٍ:

– لا تُخف يا بُني، فذلك ما أحسسنا به جميعًا عند قتالنا في المرة الأولى.

قلتُ بصوتٍ خرج مرتعشًا رغمًا عني:

- ولكنْ إنْ أمسكنا بالسلاح فسيكونُ ذلك مُبررًا لصلاح الدين لاستخدام القوة معنا ومع جميع المتواجدين بالساحة، وأنا أرى فيهم الكثيرَ من النساء والأطفال والشيوخ الضعفاء.

ضاقت عيناه وارتسمتْ على شفتيْه ابتسامةٌ ماكرةٌ، ثم قال بدهاء:

- وهذا هو عينُ الطلب، حتى يعلمَ الناسُ في مشارق الأرض ومغاربها بأنَّ هذا المجرم لا يهتمُّ بأرواح وحرمات المسلمين.

- ولكنْ يا سيدي...

لم أتمكَّن من إكمال عبارتي بعد أنْ تعالت الصيحاتُ مِن أفواه المتواجدين، وهم يُشيرون باتجاه أعلى السور الأماميَ للقصر الشرقيِ الكبير.

رفعتُ نظري حيث أشاروا، كان أبي واقفًا على حافةِ السور مع خمسةٍ مِن الرجال مُقيَّدين بالسلاسل والأصفاد، تعرَّفتُ مِن بينهم على مؤتمن القصر، على مقربةٍ منهم كان القاضي الفاضل واقفًا وقد أطرق رأسه إلى الأرض، وبجواره وقف بعضُ الجند شاهرين رماحهم، على الرغم من بُعْدِ المسافة إلا أنني أدركتُ أنَّ أبي كان مُتعبًا شديد الإجهاد، كان ينظرُ إلى الأسفل بعد أنْ تهدَّل كتفاه وازداد جسدُه نحافةً، جذبني البشيرُ من يدي وسار من خلفنا المعتصمُ نقترب من السور، حتى أعاقتنا الحشود عن الإستمرار في التقدم، توقفنا على مقربة من موقع أبي ورفاقه.

كانت الصيحاتُ والهتافاتُ تتعالى من الحضور بغير ترتيبٍ:

«قاتلك الله يا عدوَّ الدين !»

«أفرجوا عن الأبطال أيها الخونة !»

هتف أحدُهم بصوتٍ جَهْوريٍّ:

«لا إله إلا الله، صلاح الدين عدو الله !»

تحمَّس المتواجدون لهذا الهتاف وشرعوا يُرددونه خلفه بصوتٍ ارتجَّت له أرضُ الساحة، اقترب المعتصمُ مني وهمس في أذني قائلًا:

- هذا الأمرُ لا يُبشِر بالخير على الإطلاق.

فجأةً وبسرعةٍ خاطفةٍ، دفع الجنودُ أبي ورفاقَه من أعلى حافَّة السور، عدوتُ بأقصى استطاعتي مخترقاً جموع البشر مُحاولًا أنْ أتلقَّفه ، إلَّا أنَّ الأوان كان قد فات، توقَّف جسده عن السقوط وتدلَّى متأرجحًا في الهواء بعد أنْ ربطوا عنقه بحبلٍ غليظٍ مثبتٍ في السور، تسمَّرتُ واقفًا أسفل جسده المتدلي فاردًا ذراعيَّ حتى ألتقطه، ولكنه ظلَّ يتأرجحُ وينتفضُ لبرهةٍ من الوقتِ ثم خمد ساكنًا إلى الأبد .

انهمرت الدموعُ من عينيَّ وانفجرتْ معها براكينُ غضبي، بتُّ أتلفت حولي كالمجنون لا أعلم ماذا أفعل، كانت أجواءُ الساحة قد اشتعلت بعد أنْ تم إعدامُ أبي ورفاقه على الملأ، اعتلى رماةُ صلاح الدين أسوارَ القصرين الغربي والشرقي، أحاط بنا جندُه من مدخليْ الساحةِ الأمامي

والخلفي، أصبحنا محاصرين من كل الاتجاهات، ارتفعت الهتافاتُ المعاديةُ لصلاح الدين والمطالبة بالقِصاص من القَتَلة.

اقترب مني البشيرُ وربَّتَ على كتفي بحنانٍ مصطنعٍ، لم يزد على أنْ قال كلمةً واحدةً:

«الثأر!»

كانت هذه الكلمةُ بمثابة الشرارة التي أشعلت فتيل المعركة غير المتكافئة بيننا وبين جند صلاح الدين.

اندفع أحدُ الشباب المتواجدين في الساحة في اتجاه الجنود ببسالةٍ نادرةٍ، هاتفًا بصوتٍ جهْوريّ:

«الله أكبر، لا إله إلا الله، صلاح الدين عدو الله!»

اندفعت من خلفه الجموعُ المحتشدةُ في الساحة، انتبهتُ على البشير وهو يمدُّ يده بالسيف، تناولتُه دون تفكيرٍ كالذي يسيرُ نائمًا، تبعتُ الجموع المتوجهة لملاقاة مصيرها المحتوم، كان آخر ما نظرتُ إليه هو جسد أبي المتدلي من سور القصر الشرقي، كان آخر ما سمعتُ صداه يتردد بداخلي هو صوتُ الغريب يقول:

«لكلِّ أجلٍ كتابٌ»

أحسستُ بصعوبةٍ بالغةٍ في التنفس وأُصبت باختناقٍ شديدٍ، شهقتُ بقوةٍ بحثًا عن نصيبٍ عادلٍ من الهواء يُبقيني على قيد الحياة، حاولتُ تحريك يديَّ بحثًا عن النجاة، غير أنهما كانتا مكبَّلتيْن بقيدٍ متينٍ، فتحت عينيَّ فجأةً، كان الطوّافُ أمامي جالسًا على رُكبتيه، مُغمضًا

عينيْه وقد أمسك بيديَّ ضاغطًا عليهما بشِدَّةٍ، ما لبث أنْ فتح عينيْه ببطء ثم صوَّب إليَّ نظراتِه العميقةَ وهو يقول بصوتٍ بدا لي خارجًا من قعْرٍ سحيقٍ:

– هل رأيتَ ما يكفيك يا شحاتة؟

انتزعتُ يديَّ من قبْضته بحدَّة، وقمتُ واقفًا متراجعًا إلى الوراء عدَّة خطواتٍ بفزعٍ حقيقيٍّ، ظللتُ أنظرُ إليه طويلًا مُتأمِّلًا نظراته العميقةَ التي تسبرُ أغوارَ نفسي ولا أقوى على معارضتها، إلَّا أنني وجدتُ صوتي يخرج مُحتدًّا رغمًا عني:

– ليه كده؟ أنت كنت هناك! أنا شفتك، ليه ما ساعدتوش؟ ليه ما ممنعتش الكارثة دي إنها تحصل؟

استمرَّ الطوَّافُ يرميني بالنظراتِ العميقةِ نفسها التي تُحرِّك في داخلي مشاعرَ وأحاسيسَ عجيبةً لم أختبرها من قبل، ثم قال:

– هل أصابك الوهنُ في أول الطريق؟

أصابتني رعشةٌ مفاجئةٌ، ووجدتُني أقولُ بنبرةٍ هادئةٍ:

– لأ.

هزَّ الطوَّاف رأسه وهو يقول:

– إذن، لَمَ السؤال؟

قرنتُ حاجبيَّ بدهشةٍ بالغةٍ، وأنا أقول:

– علشان أفهم وأعرف سبب الحاجات الفظيعة إللي حصلت دي.

فَرَدَ الطوَّاف قامته واقترب مني مُربتًا على كتفي، وهو يقول بصوته العميق:

- ولكنَّك أنتَ مَن طلبتَ سلوكَ الطريق؟

ازدادتْ دهشتي، فقلتُ:

- طيب وإيه المشكلة في إني أسأل؟

رماني الطوَّاف بنظرةٍ أحسستُ معها بالضآلة، ثم قال:

- السؤال عكس الطلب.

قلتُ بنبرةٍ مُهذَّبةٍ:

- مش فاهم يا مولانا!

ابتسم الطوَّاف في وجهي، وهو يقول:

- يا ولدي، نورُ السرَ، هو سرُّ النورِ، وسرُّ الإشارة يكْمُن في البشارة.

أنهى عبارته السابقة ثم جلس على ركبتيْه مُجدَّدًا باسطًا يديه أمامه، ثم قال:

- أما زلت ترغبُ في استكمال رحلتك؟

أطرقتُ مُفكرًا لثوانٍ قليلة، ثم ما لبثتُ أنْ جلستُ على ركبتيَّ أمامه، أغمضتُ عينيَّ بعدً أنْ أسلمتُ يديَّ بين قبضتيْه.

***

توقفتُ عن الكلام مع توقُّف جهاز التسجيل عن العمل مُعلنًا انتهاء الشريط الثاني، كان الدكتور حسين يحكّ ذقنه ويتفرَّس في ملامحي جليًا، يُحاول أنْ يسبر ما يدورُ في أعماقي، نظرتُ إليه بابتسامةٍ حاولتُ بها مداراة إحساسي الشديد بالإرهاق، ثم قلت:

- إيه يا دكتور؟ فيه حاجة؟

انتفض الدكتور حسين واقفًا، وأخذ يجوبُ الغرفة مجيئًا وذهابًا، عاقدًا يديْه خلف ظهره ثم قال فجأةً:

- بس أنت مش شايف يا شحاتة، إن الحكاية بتاعتك دي صعبة حبتين، وما فيش أي دليل على صدقها؟

اختفت ابتسامتي وتحوّلتْ ملامح وجهي إلى الجديّة، وأنا أسأله:

- تقدر تقول لي يا دكتور، إيه دليلك على إن العسل طعمه حلو؟

صمت الدكتور حسين قليلًا مُتحيرًا في إجابة سؤالي المباغت، ثم قال بعد فترةٍ:

- دي حاجة ما قدرش أثبتها إلا لمَّا أدوق العسل.

ابتسمتُ مِن جديدٍ، وقلتُ بنبرةٍ تقمَّصتُ فيها شخصية الطوَّاف:

- فهذا مثل ذاك.

قال الدكتور حسين بحيْرةٍ:

- قصدك إيه؟ مش فاهم.

أجبتُ بهدوء:

- أقصد، أنَّ من ذاق عرف.

هزَّ الدكتور حسين رأسه دلالةَ الفهم، ثم ابتسم وهو يربَت على كتفي قائلًا:

- ماشي يا شحاتة، ماشي، كفاية عليك النهاردة لحدِ كده، بكره نكمل باقي الحكاية.

***

الشريطُ الثالثُ

«كي تصلَ، لا تكفَّ مُطلقًا
عن ترديدِ:
هل مِن مزيدٍ؟»



(٤)

كانت الحرارةُ قاسيةً والجوعُ لا يُحتمل، كان عطشي لا يُطاق، فالشمسُ تُرسلُ أشعتَها حاميةَ الوطيس بعد أنْ توسَّطت كبد السماء لتَصْلي جباه البشر وجلودهم، كان جسدي قد ضَعُف ونال منه الهزال، قارب على الخمودِ إلى الأبد مُعلنًا مُفارقتي لهذه الدنيا الفانية بما عليها .

حاولتُ أنْ أُحرِكَ ذِرَاعَيَّ لكنني لم أستطع بعد أنْ فقدتُ الإحساسَ بهما ، كانت الدماءُ الغزيرةُ التي فقدتُها قد آتتْ مفعولها في جسدي، فغدوتُ كالشاةِ بعد ذبحها .

لا يزال الألمُ يجتاحُني بين الفيْنة والأخرى، كان هذا الألمُ هو ونيسي الوحيد وسلواي التي تُهدِئ من روْعي وتُطمئنني بأنني ما زلتُ حيًا ، كنتُ قد أقسمتُ بأنني لن ألفِظَ أنفاسي الأخيرة إلا بعد أنْ أطمئنَّ إلى راحة آخر أحبائي .

حاولتُ أنْ أرفعَ جفني لأبصرهم وآنس برؤياهم بعد أنْ تجمَّعت هوام الطير على وجهي، لكنَّ الشمسَ الحارقةَ ووهني منعاني من إتمامِ

ذلك، اسْتَعَرَتِ الآلامُ في كل أنحاء جسدي المتهالك مُجددًا، لا أعلم إنْ كان سببُها هذيْن المسمارَيْن اللعينيْن، أم هي جروحي المتقيِّحة.

بِتُّ أشعرُ بذات الألم الذي خبرْتُه حين غطَّى الأوغادُ جراحي بالملحِ، حاولتُ أنْ أحرِكَ قَدَميَّ بعد أنْ سرى فيهما الخدرُ، كاد توازني يختلّ وأوشكت قدماي أنْ تفلتا من فوق الدرجة الخشبية الصغيرة التي بالكاد تسمحُ لي بالوقوف عليها، عُدتُ إلى وضعي السابق وقد افترسني ألمٌ غاشمٌ فتك بساعديَّ.

كان هذا هو حالي الذي قاربتُ على مفارقته، منذ أنْ قام الملاعين بشَبْحي فوق صليب خشبيٍّ صبيحة هذا اليوم المشئوم، أصبحتُ أسألُ المولى في كل لحظة أنْ يُعجِّلَ بإرسال رسوله لقبض روحي، كلا لن أموتَ الآنَ، لن أموتَ قبلِ أنْ أطمئنَّ على أحبائي، رُحماك يا الله! لمَ كلّ هذا العذاب؟ ألمْ يكنْ يسيرًا عليهم أنْ يقتلوني بضربة واحدةٍ؟ لمَ كلّ هذا التشفي والكره! أهذا جزاء الوفاء، أهكذا يكونُ جزاء من يُقدِّر المعروفَ والإحسان؟!

تنامى إلى سمعي صوتُ صخب وضجيج يأتي عن يميني، فتحتُ طرف عيني بصعوبةٍ بالغة مُتناسيًا آلامي ومُحاولًا أنْ أخطف نظرةً سريعةً لأرى سبب هذا الضجيج، أبصرتُ أجسادًا لأناس عرفتُهم وعاشرتُهم، عُلِقَ بعضُهم فوق الصلبان الخشبية التي اصطفَّت على جانبيْ الطريق من بوابة الفتوح حتى بوابة زويلة، وغُمِرَ بعضُهم الآخر في حُفر طينية حتى منتصف أجسادهم، منهم مَن رحل عن دنيانا ومنهم مَن أوشك، كانوا فيما مضى تملأ أسماؤهم الأرض ومَن عليها احترامًا وتقديرًا، تتبعتُ

صوت الصخب والضجيج حتى أبصرتْ عيني المتورمةُ مِن أثر العذاب ما لم تحتمل رؤيته.

كان بعضُ الصبية يعبثون ويلعبون بجسدٍ مُدلى من رقبته بحبلٍ غليظٍ مِن أعلى بوابة زويلة، كانوا يُمسكون العصيَّ الطويلة ويتقافزون ليضربوه على قدميْه الحافيتيْن وقد اصطبغ لونهما بزرقة الموت، وهو بلا حولٍ ولا قوةٍ، وبعضُهم الآخر أخذ يقذفه بالحصى والحجارة وهو يتصايح ضاحكًا:

«هذا جزاءُ من يعصي السلطان الظاهر!»

لم تتحمَّل أذناي ما سمعته، غلت الدماءُ في عروقي، أو غلى ما بقي فيها من دماء، وأنا أتذكر هذا الجسد وقت أنْ كان يرفل في النعيم بعد أنْ خدم الدوْلة والسلطان، أهكذا يلقى حتفه؟!

لِلّهِ دَرُّكَ يا أبي!

أدرتُ وجهي نحوه ببطء شديدٍ وفتحتُ عيني الأخرى بصعوبةٍ كي أنعم برؤيته رؤيةً واضحةً جليةً، لم أره جسدًا متدليًا خامدًا يعبث به الصغار، رأيته فارسًا مغوارًا يمتطي صهوة فرسه بشجاعةٍ نادرةٍ، وهو يُقاتل التتار بجوار السلطان قطز.

كان أتون المعركة قد استعر وبلغ أوْجَهُ، حينما كان قطز يصول ويجول في صفوف التتار حتى أصيبت فرسه، فنزل أبي عن فرسه له، إلا أنَّ السلطان رفض، وقال: «والله لا أحرم المسلمين منك في هذا اليوم المجيد»، قال له أبي: «إنك لو قُتلت هلك الإسلام وسقطت البلادُ وضاعت الملة»، فردَّ عليه السلطانُ: «هيهات أنْ يضيع الإسلام وله

ربٌّ يحميه»، ظلَّ السلطانُ يُقاتل راجلًا حتى أتوه بفرسٍ أخرى، وتحقَّق لهم النصرُ المظفر، كان السلطانُ قطز بطلًا بحقٍّ، واستحقَّ عن جدارةٍ لقب السلطان المظفر، وكذلك كان أبي، سنقر الحلبي.

كان أبي يدين بالولاء لقطز لكونهما من المماليك البحرية، ولأنَّ قطز كان قد عهد إليه بولاية دمشق بعد أنْ هُزم التتارُ وتركوا ديار الإسلام بغير رجعة، فبعد نحو سبعة أيام من النصر المبين الذي تحقَّق في عين جالوت، دخل قطز وجيشُه إلى دمشق دخول الفاتحين المنتصرين، في حين طارد الأمير بيبرس فلول التتار حتى بلغ نهر الفرات فقتل منهم أعدادًا كثيرةً.

شرع قطز يُوزع العطايا والإقطاعات على أمرائه من المماليك، وكانت دمشق من نصيب أبي جزاءً وفاقًا له على جهاده وانتصاراته المبينة، عاد بيبرس من رحلةِ مطاردته للتتار فوجد أنَّ بلادَ الشام قد وُزعت بالكامل على الأمراء.

كان بيبرس قد سأل قطز فيما مضى أنْ يُعطيه إمارة حلب، إلا أنَّه أخبره بأنَّه يحتاجُ إليه بجواره في القاهرة عند عودته، وأنعم بإمارة حلب على الأمير علاء الدين، ابن بدر الدين لؤلؤ الذي كان في زمن منصرم قد زوَّج ابنته للسلطان عز الدين أيبك وكانت تلك الزيجة الشؤم سببًا في قتله على يد زوجته الثانية شجر الدر.

غادر قطز وجيشُه دمشق في طريقهم إلى القاهرة التي كانت في أبهى حللها استعدادًا لاستقبال السلطان المظفر، شرع أبي يُرمم ويُعيد بناء ما خرَّبه التتار في دمشق فرمَّم القلعة التي خُربتْ، وبنى الجسور التي هُدمت، وأحيا الأسواق التي هُجرت، وعَبَّدَ الطرق التي قُطعت.

ابتسمت لنا الحياةُ وأظهرت لنا جانبها المشرق الوضَّاء، صار لنا قصرٌ منيفٌ يُضاهي القصورَ الأمويةَ في ضخامتها وزينتها، يتحاكى بفخامته وأبهته كلُّ الدمشقيين، امتلكنا العبيد والخصيان، أصبح لدينا من الجواري والقانيات ما يصعب على المرء عدُّه وإحصاؤه.

حتى كان صباح يوم مشرقٍ بديع دعاني أبي لمقابلته، دخلتُ عليه بهو ديوانه الكبير المزرَّكش بالنقوشّ الأموية البديعة، كان خاويًا من الحضور على عكس المعتاد، تأمَّلني أبي مليًا ثم قال:

- لقد شبَّ عُودك يا شمس الدين، وأصبح الناس يتحاكون عن حسنك واكتمال خَلْقِكَ وخُلُقِك.

ابتسمتُ بخجلٍ وأنا أنظر إليه صامتًا، هزَّ رأسه بإعجابٍ ثم قال:

- لقد وصلني رسولٌ من السلطان المظفر قطز بهديةٍ خاصةٍ.

لمعتْ في عيناي نظرةٌ مُلئت بالفضول، إلا أنني آثرتُ الصمتَ حتى يُبلغني أبي بكنهِها، ابتسم بعد أنْ فهم ما يدورُ في خلدي وقال:

- إنَّ السلطان يرى أنكِ قد أصبحت رجلًا وتلزمك الزوجة الصالحة التي تصلح أنْ تكونَ أمًا لأبنائك.

ازدادت حدَّةُ فضولي ولم أعد أطيقُ صبرًا، فقلت مُتعجلًا:

- وماذا بعدُ يا أبي؟

ضحك أبي ملْء شدقيه، ثم قال بعد أن اعتدل في جلسته:

- لقد وهبك السلطانُ واحدةً من أطيب جواريه كي تتزوجها.

صَمَتَ قليلًا ثم قال بنبرةٍ ذات مغزى:

- لقد وَهَبَكَ سُلَيْمة.

كان لاسمها وَقْعٌ غريبٌ على نفسي، وَقْعٌ يدفعني دفعًا للخوض في عوالم وأكوان أخرى؛ سُليمة، حبيبة الصبا، معشوقة الروح.

كم اشتقتُ لرؤيتها والحديث معها، مثلما اعتدنا الجلوس نتحدَّث بلا توقُّفٍ في حديقة بيت الأمير قطز، عندما كان أبي يصحبني برفقته لزيارته، وقت أنْ كان أميرًا لدى السلطان أيبك، كم طالتْ جلساتُنا هناك نتسامر ونتباري في حفظ أبيات الشعر وإلقائها! كانت دومًا هي المنتصرة، كان لها ذوقٌ خاصٌ في الأبيات التي تحبُّ أنْ تَقْرُضها، كانت كثيرًا ما تبدأ القصيدة ببعض من أبياتها الأصلية ثم تقوم بالارتجال والتعديل على بقيَّتها، حتى يناسب الموقف الذي كنا فيه، كانت حينما تنشد الأبيات أحس بأنَّ صوتها ليس بشريًا، بل صوتٌ ملائكيٌ يجذبك معه إلى الملكوت الأعلى، كانت سُليمة.

كانت سُليمة جاريةً بجاوية، اسمها في الأصل زُمُرُّد، ولكن أسمَوْها سُليمة لكمال وصفها وصفاتها، شديدة الجمال، لعينيْها سحرٌ أخَّاذٌ، لها أنفٌ دقيقٌ على العكس من غالب قومها، بشرتُها ناعمةٌ سمراء، سمارها فيه لمعةٌ تأسرك برونقها، رشيقة القد، قوامها فاتنٌ في استدارته وثنياته، حسنة اللسان، لها صوتٌ رخيمٌ يخلِب الألباب ويسلب العقول.

أُصبحت جاريةً للسلطان أيبك عقب أنْ أهداها له كبيرُ قومها، إلا أنَّه كان يُفضل التركيات، لذا فقد أهداها إلى مملوكه ومساعده المُقرَّب الأمير قطز، الذي كان مُخلصًا لزوجته فلم يتزوج بأخرى ولم يقرب جاريةً قط.

علم الأمير قطز أنَّ هواها ملأ قلبي حبًا وشغفًا، وأنها تُبادلني ذات الشعور فلم يُهدِها لأيٍّ من أتباعه إكرامًا لخاطر أبي، على الرغم من أنَّ كثيرين من قوَّاده وأعوانه كانوا قد طلبوها منه. تعهدها بالرعاية حتّى كبرت واشتدَّ عودها فأرسلها إلى أبي ليزوجني بها.

لا زلت أذكر فرحة أمي عندما أخبرتها بالأمر، شرعتْ- بعد أن احتضنتني بين ذراعيها وقبّلت رأسي- تُفَصِّلُ لي الفروق بين النساء، فقالت:

«للهنديات حسنُ القوام وسُمرة الألوان، وحظٌّ وافرٌ من الجمال مع صفرةٍ وصفاء بشرةٍ وطيب نكهة، ويصلحن للولد، لكنَّ الشيخوخة تُسرع إليهن؛ أما نساءُ البربر فقد طُبعنَ على الطاعة، نشيطاتٌ للخدمة ويصلحن للتوليد؛ والحبشياتُ لهنَّ نعومةُ الأجسام ولينها وضعفها، لكنهنَّ لا يصلحن للولد؛ والتركيات يجمعن بين الحُسن والبياض والنعومة، لكنَّ عيونهنَّ وإنْ كانت فيها حلاوةٌ إلا أنَّ فيها صفرةٌ، وقدودهنَّ تميل إلى القصر فالطول فيهنَّ قليلٌ؛ ونساءُ الروم بيضٌ شقرٌ طوال الشعور، وهنَّ نساء خدمة ومناصحة وأمانة، لكن لا يصلحنَ للولد؛ أما الأرمنيَّات، فلهنَّ أقبح الأوصاف وأبشع الصفات؛ أما البجاويات...

صمتت أمي قليلًا لتبتلعَ ريقها، ثم نظرت لي نظرةً ذات مغزى بعد أنْ غمزت بعينها، قالت وهي تبتسم ابتسامةً رائقة:

- أمّا البجاويات فهنَّ نساءُ المتعة، حسناتُ الوجوه، ناعماتُ البشرة، لينات القد، وإذا اجتمع للبجاوية خنث المكيات وآداب العراقيات، مع ما هو لديها من الأصل فإنها تستحق أنْ تُوضع في العيون وأنْ تُخبَأ في الجفون.

تهللت أسا ريري ورقص قلبي فرحًا، وقلتُ لها:

- إذن ما رأيك يا أمي؟

سالت دموعُها فرحًا واحتضنتني بحنانٍ بالغٍ، ثم قالت وهي تربَت براحتها على رأسي:

- على بركة الله يا بُني.

أعتقتُ سُليمة وتزوجتُها، لا زلت أذكر أول ليلةٍ لنا معًا، أذكر دخولها إلى حُجرتنا وجُلوسها بمودةٍ إلى جواري على طرف الفراش، كانت تبتسمُ بخجلٍ، لا زلت أذكرُ تعبيرات وجهها وقسماته، وقد بدا ظاهرًا عليها الراحةُ والسكينة بعد أن اغتسلتْ بماء الورد، لا زلت أذكر حركات يديْها عندما بدأت تُبادلني الحديث وتشرح لي ما كان معها وقت غيابي، تبثني ألمها لفراقنا وتغمرني بفرحها لزواجنا.

كانت ترتدي ثوبًا أبيضَ رقيقًا مكشوف الصدر، يكشفُ عن روعة استدارة مفاتنها وبديع خلقتها، مددتُ يميني أداعب خدَّها الأيسر فمالت برأسها وقبّلت أصابعي، هممتُ باحتضانها لكنها تمنّعت بدلالٍ، قامت تخطو متمايلةً بأنوثةٍ أشعلت نيران الشوق داخلي، حتى وصلتْ إلى القنديل الزيتيّ فأطفأتْ نوره الخافت، اقتربتْ مني وقالت بصوتٍ هامسٍ بعد أن استلقت على الفراش بدلالٍ:

- تعالْ، اقتربْ!

أسرَني عبقُ عطرها الورديّ فسلَّمتُ نفسي لها هائمًا في بحر حبها، وأسلمتني هي إلى عالمٍ آخر، فعلتْ معي ما لم يفعله أحدٌ من قبلُ، ولا مِن بعدُ.

- استلقتْ مستكينةً في ذراعيَّ بعد أنْ نهلنا من بحار العشق حتى خُيِّل إلينا أنْ قد ارتوينا، أغمضتْ عينيْها بوداعة، أخذتْ تُداعبُ صدري براحتها اليمنى وهي تنشد أبياتًا من الشعر بصوتها الأخَّاذ:

«أصابكَ عِشقٌ أم رُميتَ بأسهم، فما هذه إلَّا سَجيَّة مُغْرَم»

أخذتُ أنظرُ إليها بولهٍ وهيام بعد أنْ اعتدلتُ على جَانبي الأيسر، رَدَدْتُ عليها ببيتٍ مِن ذات القصيدة التي كانت تشدو بها:

«ألا فَاسْقِني كَاسَاتٍ وغَنِّ لِي، بذِكْرِ سُليمة والرَبَابِ ونَعِم»

رمتني عيناها بنظرةٍ ساحرةٍ تأمَّلتُ فيها كلَّ تفاصيل وجهي، ثم قالت وهي تبتسمُ بدلالٍ:

«أغَارُ عليهِ مِن أَبيهِ وأُمهِ، إذا حَدثاهُ بالكلامِ المُغَمْغَمِ»

قلتُ وأنا أتحسَّسُ براحتيَ اليمنى ثنايا جسدها:

«أغَارُ عَليها مِن ثِيابِها، إذا لَبِسَتها فَوقَ جِسمٍ مُنعَّم»

غنجتْ بجواري ثم تنهَّدت بحرارةٍ أشعلت نيرانَ الهوى، لفح حرُّ صدرها صدري فاستعرت جذوتي مجددًا، أحسَّتْ بما يختلج في باطني فأخذت تُداعب رقبتي براحتها اليمنى وهي تُدندن بصوتٍ حالمٍ:

«أغَارُ عَليهِ مِن فَمِي المُتكلمِ»

أغمضتُ عَينيَّ رغمًا عني، فأنا لم أعدْ أنا، صرتُ جُرمًا يدور في فلك كونها بغير توقفٍ، رفعتُ رأسي حتى قاربت أذنها وقلتُ هامسًا:

«وأحسُدُ أقداحًا تُقبِّلُ ثغرها . . . إذا وَضَعتها مَوضِعَ اللَّثم في الفمِ»

نـدَّتْ عـن فمهـا آهـةٌ وتنهيـدةٌ دارت معهـا رأسـي، أحسسـتُ بذراعها اليسـرى تضمُّـني بقوةٍ، بيمينهـا أمسـكت رأسـي وضمتـه إلى صدرها بعنفٍ، بوضوحٍ صرتُ أسمع صوت قلبها، كلا لم يكنْ قلبها الذي أسمع صوته، بل كان قلبي أنا، ازداد شعوري بها وتوحُّدي معها، قَبَلتني قُبلةً رائعةً، وأطالت القبلة، قبلةً اختفى معها الوجود، توقَّف عندها الكونُ عن الدوران، سكن فيها البحر عن الجريان، خَلَتْ الأرضُ لحظتها من البشر، لم أعد أرى في الوجود سواها، أخذتُ أنهل من عسلها حتى شبعت، وظننت أنني لن أجوع بعدها أبدًا.

ظللنا على تلك الحال أيامًا وليالي طوالًا، نجني ثمرة العشق والهوى، تيقنَّا أنَّ هـذه هـي الجنة التي أورِثناها، حتى جاء ذلك الصباحُ حاملًا النذير المشئوم.

***

أوقف الدكتور حسين جهازَ التسجيل، وقال بنبرةٍ ساخرةٍ:

– إيه يا عم شحاتة حكايتك النهاردة؟ أطلب لك اتنين ليمون؟

فتحتُ عينيَّ ببطء، نظرتُ إليه مبتسمًا وقلت:

– ليه بس يا دكتور؟ في إيه؟

حدجني بنظرةٍ ساخرةٍ وهو يقول:

– طالبة معاك رومانسية النهاردة، مش كده؟

اتسعت ابتسامتي، وأنا أقول:

– ربنا يسامحك يا دكتور.

هزَّ الدكتور حسين قدمه بعصبيةٍ، ثم قال بجدَّةٍ:

- هيسامحني يا سيدي، مالكش دعوة أنت بس.

نظرتُ إليه بحيرةٍ، وقلتُ:

- هو إيه إللي حصل بس؟

نهض واقفًا وأشاح بيده بغضبٍ، ثم قال:

- يعني مش عارف إيه إللي حصل، مضيَّع وقتي وعمَّال تحكي لي عن غراميات قيس وليلى بتوعك.

صمتَ قليلًا ثم قال بعد أنْ رمقني بنظرةٍ حادَّةٍ من خلف نظارته الطبية:

- على فكرة أنا شكلي كده لازم أغير معاملتي معاك.

ذكَّرتْني عبارتُه بصعوبة موقفي، فأطرقت رأسي إلى الأرض وقلت:

- خلاص يا دكتور مالوش لازمة الكلام ده، أنا هاكمل لك حكايتي.

ضغط على زرِ جهاز التسجيل بعصبيةٍ شديدةٍ، وهو يقول بنفاد صبرٍ:

- اتفضل. . كمِّل!

أغمضتُ عينيَّ، وأنا أحاول اجترار ما كنتُ قد دفنته من ذكرياتٍ خِلْتُ أنها لن تعودَ إلى الحياة مجددًا.

***

دارت بي عجلةُ الزمان بقسوتها التي لا ترحم، ومضى معها قطارُ عمري في رحلته التي لا يعلمُ نهايتها إلا الله، رزقني الله بثلاثةٍ من الأبناء، أصبحوا هم كلَّ ما يشغل دُنياي، ارتقيتُ درجات السلم الوظيفي حتى أصبحتُ أمينًا لمخازن الهيئة العامة للكتاب، مع كلِّ درجةٍ كنتُ ارتقيها كان الزمانُ يأخذ مقابلها مِن رصيد عمري وعافيتي.

واجهتُ العديد منِ الصعاب في رحلتي غير أني تجاوزتها بالصبر، وبفضل زوجتي، فقد ظلّتْ سلوى هي الحضن الدافئ الذي ألجا إليه في نهاية كلِ يوم، بعد أنْ ماتت أمي - عليها رحمة الله- ، لم نشعر يومًا بأنَّ عملها قد أثّر على واجباتها في البيت، فقد كانت خير زوجةٍ وحبيبة، كانت خير أمٍّ، كم سهرت بجانبي الليالي الطويلة! تشدُّ مِن أزري وتُواسيني حتى أتمكن مِن مواصلة رحلة الحياة الشاقة.

صدقتِ يا أمي حين أخبرتني أنّ الجمال ليس جمال الخِلقَة، ولكنه جمال الروح والطباع، لقد كانتْ أمي مُحقّةً.

كبر الأبناء وشبُّوا، حتى صار أكبرهم أمجد في السنة الدراسية الثانية بكلية الحقوق، وعلى الرغم من أنّه حصل على درجاتٍ مرتفعةٍ في الثانوية العامة تؤهله لدخول أيٍّ مِن كليات القمة، كما يحلو للناس تسميتها، إلا أنه أصرَّ على الالتحاق بكلية الحقوق أملًا في أنْ يصبح قاضيًا يحكم بالعدل، أو دبلوماسيًا يرفع راية بلاده.

لم أُحَاول أنْ أتدخل في اختياره، مع علمي بأنَّ حلمه صعب المنال لكوننا أسرةً بسيطةً رقيقة الحال، ليس لنا من دون الله شفيعٌ أو وسيطٌ، فَضّلْتُ ألّا أكسر في داخله الحلم والأمل، عسى أنْ تتغيّر الأوضاعُ في بلادنا إلى الأفضل، أصبحت أناديه دومًا بلقب سيادة المستشار.

أمجد كان نسخةً طبق الأصل مني أيام الشباب والصبا، كنتُ كلّما نظرتُ إليه رأيتُ صورتي التي أحبُّ أنْ أتذكرها، كلّما استمعتُ إليه أحمدُ الله على أنه نال من العلم والثقافة حظًا أوفر مني، كنتُ مُعتادًا أنْ أنظرَ إليه وأطيل النظر حين يتحدث، كانت تلك العادة هي المكافأة التي أجزلها لنفسي مقابلًا لشقائي وحرماني من أجلهم، فقد بذلتُ غاية جهدي حتى يشبَّ أمجد مُحبًا للقراءة، وإحقاقًا للحق فهو لم يخيّب ظني أبدًا وأصبح يُنافسني في حبّه وشغفه بالكتب والاطّلاع، أصبح مُحدِثًا بارعًا وخطيبًا مفوّهًا يتحاكى باسمه زملاؤه في الجامِعة، لم أكن أعلم أنَّ الأمور ستنتهي إلى ما انتهت إليه، كنتُ أريده أنْ يكون أفضل مني، وأنْ يبدأ من حيث انتهيت، آآاه! لو كنت أعلمُ الغيبَ لاخترتُ له مصيرًا آخر.

دائمًا ما كنا نجتمعُ صباح يومِ الجمعة مِن كلِ أسبوع، إذ كانت سلوى تُعد لنا إفطارًا مصريًا بسيطًا نتناوله بنَهَمٍ وسعادةٍ بالغة، على مائدة الطعام كنا نتناقش في كلِ المشاكل التي مرّتَ بنا طوال الأسبوع، كثيرًا ما كانت تدورُ المناوشاتِ بين أمجد، بحكم أنه كان قارئًا مطلّعًا، وأخيه الأصغر أكرم، ابني الأوسط.

على الرغم من القول السائد بين الناس أنَّ الابن الأوسط يكون في غالب الأحيان شخصيةً مثيرةً للمشاكل والجدل سعيًا لإثبات الذات، إلا أنَّ عاطفة أكرم الجياشة وطيبته الشديدة كانتا هما الصفتان الأساسيتان اللتّان تميّزان شخصيته، غير أنَّ ذلك لم يمنع اتصافه بالعناد الحادِ وتشبُّثه بآرائه طوال الوقت، فهو مِثْلُ أمه تمامًا سواءً في الهيئة أو الطباع، يميلُ جسده إلى الامتلاء قليلًا، قصير القامة، قانعٌ بما قسمه الله له طوال

الوقت، هادئ الطموح، تشعرُ وكأنه يُجاوز سنوات عمره البسيطة، رجلٌ يُمكنك الاعتماد عليه، على الرغم من أنَّه كان لا يزال في الصف الثاني الثانوي.

كان دائمًا ما يُحاول إثبات ذاته أمام شخصية أمجد الفنيَّة القوية وحضور وجاذبية أميرة قلبي، صغرى أبنائي حبيبة، آخر العنقود.

كانت تُذكرني بأمي - عليها رحمة الله -، تُشبهها في كل شيء؛ قسَماتها، لفتاتها، حركاتها، حتى ضحكتها، كلَّما وقعت عينايَ عليها لا أملُّ من إطالة النظر إليها، أشعر وكأنني أنظرُ إلى أمي.

تذكَّرتُ الآن ذلك الجدال الذي حدث صباح أحد أيام الجُمع بين أمجد وأكرم، حين ذكر أمجد قضية خالد سعيد التي كانت تشغل الرأي العام المصريَ في ذلك الوقت، ذلك الشابُّ المسكينُ الذي لقي حتفه على إثر تعذيب بعض أفراد الشرطة له أسفل منزله، كان أمجد شديدَ التأثر والحماس لتلك القضية، ويرى أنَّها ستكون سببًا في انتفاضة الشعب للقضاء على دولة الفساد وحكم الفرد الواحد، بعد سنواتٍ طويلةٍ من الظلم والاستبداد، عارضه أكرم فيما انتهى إليه، وشرع يسوقُ المبررات والتحليلات التي قرأها في الصحف وسمعها في برامج التلفاز.

طال أمدُ النقاش وتحوَّل إلى السفسطائية ومنها إلى صياحٍ مُتبادلٍ بينهما، بعد أنْ اتَّهم أمجد أخاه الأصغر بأنه سطحيٌّ ولا يستطيع الإلمام بخيوط الموضوع بأكمله، لصغر سنه وتكاسله عن القراءة والاطلاع، انتفض أكرم غاضبًا وبدأ يُسفه من آراء أخيه، متهمًا إياه بأنَّ شبكات التواصل الاجتماعيَ قد خرَّبتِ عقله وعقول شباب هذا الجيل، وأنَّه من

الأفضل لهم إيجاد حلٍ لمشكلاتهم بدلًا من الاعتراض الدائم دون التوصل لأية حلولٍ.

كنتُ أنظرُ إليهما مُتعجبًا، لقد تغيَّر العالمُ كثيرًا، فبعد أنْ كانت أقصى أمنياتنا تتمثَّل في التجمُّع حول المذياع لمعرفة الأخبار وسماع حفلات كوكب الشرق في الخميس الأول من كل شهر، أصبح العالم قريةً صغيرةً، أصبح العالم في ظلِ النظام العالميَ الجديد شديد التداخُل والترابُط، فما يحدث في أقصىِ الأرض يمكنك معرفته بلمسة زرً صغيرٍ، بل أصبح باستطاعتك التفاعل معه أيضًا، لا أعلم إنْ كان هذا التطورً والتقدم الجنونيّ قد أوصل البشر إلى الأفضل، أم أنَّه سوف يُودي بهم إلى الهلاك.

كانتْ سلوى قد تدخَّلتْ في الوقت المناسب لفض المعركة الكلامية الناشبةٍ بين ابنيْها، قبل أنْ تتطورَ إلى مرحلةِ التلاسُن، وبعد أنْ نالا منها قسطًا وفيرًا من التوبيخ واللوم، ذهبا إلى غرفتهما يستعدان للصلاة في حين بقيتُ أنا على المائدة أفكرّ فيما يجري مِن حولنا مِن أحداثٍ عبثيةٍ، انتبهتُ على يد سلوى تُربَت على كتفي وتقول بمودةٍ:

- إيه يا شحاتة، مالك يا خويا؟ شكلك شايل الهم كده ليه؟

أجبتُها ساهمًا، وأنا أفكر فيما جرى بين الولديْن:

- ولادك يا سلوى كبروا وبقى ليهم رأي.

سحبت سلوى كرسيًا خشبيًا وجلستْ بجواري، ثم قالت بنبرةٍ متبرمةٍ:

- يقطع النت على التليفزيون، دي العيال تخلص البتاع الهباب إللي اسمه الفيس بوك تقوم داخله على برامج التوك شو، لما خلاص ما بقتش عارفه أكلم حد فيهم.

تنهَّدتُ بصوتٍ مرتفعٍ، وقلتُ:

- مش عارف هيستحملوا الدنيا دي إزاي.

وكزتني في كتفي وكزةً خفيفةً مُداعِبة، وقالت ضاحكةً:

- يا خويا ما تشغلش بالك بكرا ربنا يعدلها، وبإذن الله ربنا يفرَّحك بيهم وتشوفهم في أعلى المناصب، وتشيل ولاد ولادهم.

ابتسمتُ لمداعبتها، ثم قلتُ:

- يا ربّ يا سلوى، يا ربّ!

صمتتْ قليلًا ثم قالتْ بشيء من التردُّد:

- بس الواد أمجد مش عاجبني اليومين دول.

عقدتُ حاجبي مستغربًا، وقلتُ:

- ليه بتقولي كده؟ هو فيه حاجة؟

هزَّت رأسها نافيةً، ثم قالت بحيرةٍ:

- لأ يا خويا، كفى الله الشر. بس حاله مش عاجبني، العيال إللي ململوم عليهم دول ما وراهمش حاجة غير الكلام في السياسة، إشي

فساد، إشي توريث، إشي ديمقراطية، وإحنا يا خويا مش هنستحمل لو حد جه خده واللا اتجرجر عالقسم، مش هانعرف نجيبه.

نظرتُ لها باسمًا لطيبة قلبها الفطريَّة، ثم قلتُ:

- يا ستي سيبي الواد شوية، خلاص ده كبر وبقى راجل، لازم يتدردح ويعتمد على نفسه، وبعدين هما بيعملوا إيه يعني؟ أهو شوية كلام بيتقال بيفكوا بيه عن نفسهم، باقول لك إيه، سيبيهم يتسلوا.

هزَّت رأسها بعنادٍ وهي تقول:

- بس أنا برضه قلبي مش مطمن، لازم تشوف لك حلّ معاه، إحنا يا خويا ماحيلتناش غير العيال، دول هما إللي طلعنا بيهم من الدنيا.

ضحكتُ بصوتٍ مرتفع وأنا أقول:

- يا وليه جمدي قلبك شوية.

لم تُعجبها سخريتي فشرعتْ تأخذُ أطباق الطعام لغسلها وقامت مُغادِرةً إلى المطبخ، توقفتْ قليلًا ثم التفَتَتْ إليَّ وقالت:

- خليك فاكر الواد ده لو جرى له حاجة مش هاسامحك أبدًا.

يقولون إنَّ ارتباط الأم بأبنائها ورعايتها لهم لفترةٍ طويلة بالإضافة إلى غريزتها الفطرية، يُولِدان لديها حدسًا صادقًا، فقلبُ الأمِّ لا يكذب أبدًا، ليتني لم أسخر من حدسها، ليتني أيقنتُ بصدق كلامها!

***

انتبهتُ على صوت الدكتور حسين وهو يقول بصوتٍ مرتفعٍ مخاطبًا نفسه، عقب أنْ أوقف جهاز التسجيل:

- تمَّ تكرار (ليت) مرتين في آخر حديثه، و(ليت) لفظٌ يفيدُ التمني، وهو طلب المتعذر أو بعيد الوقوع.

وجَّهتُ نظري صوبَ الأريكة فلم أجده جالسًا، أدرتُ جسدي باتجاه مكتبه الأرابيسك العتيق، كان جالسًا خلفه ممسكا بمفكرةٍ صغيرة وقلم رصاصٍ يُدوِّن به بعض الملاحظات.

انتبه الدكتور حسين إلى حركتي فقام من خلف مكتبه مُمسكًا بمفكرته، ينظر متمعنًا فيما خطَّه قلمُه، دنا من مقعدي حتى أصبح خلفي بالضبط، سمعت صوته يأتيني من أعلى قائلًا:

- يعني إنت يا شحاتة حاسس إنك ندمان علشان ما سمعتش كلام سلوى؟

أطرقت رأسي إلى الأسفل، صمتُّ برهةً بعد أنْ تذكَّرتُ أحداثًا طالما تمنيت لو لم تحدث، ثم ردَدْتُ:

- مش عارف.

بخطواتٍ وئيدةٍ تحرَّكَ الدكتور حسين حتى بلغ الأريكة بجانبي، جلس عليها بهدوء وهو يرقبني ثم قال:

- يعني إيه «مش عارف» يا شحاتة؟

أجبتُ بعصبيةٍ بعد أن استفزَّني سؤاله:

- يعني مين قال لك إني لو كنت اتدخلت كان ممكن حاجة من إللي حصلت تتغير؟!

رمقني من خلف نظارته الطبية وقال بعد أنْ وضع ساقه اليسرى فوق اليمنى:

- طبيعي إنّ لو مقدمات الأحداث اتغيرت، أكيد نهايتها هتكون مختلفة.

ابتسمتُ بسخريةٍ مريرةٍ، ثم قلتُ بقنوطٍ:

- يا دكتور، كلُّه مقدَّر ومكتوب.

سألني بطريقة الأطباء النفسيين، كانت نبرته هادئةً للغاية ومستفِزَّةً لأقصى درجةٍ:

- أتفق معاك، بس إنت مش شايف إن دي سلبية زيادة حبتين؟

انفعلتُ بشدَّةٍ بعد أنْ انتهى من عبارته الأخيرة، وقلتُ بحِدَّةٍ:

- سلبية إيه إللي بتكلم عليها!! يا دكتور إحنا عايشين في بلد إللي له ضهر فيها محدش يقدر يضربه على بطنه، والغلابة إللي زي حالاتي مالهومش غير ربنا.

سألني بالنبرة الهادئة المستفِزَّة نفسها:

- وأنت مش شايف إن ربنا ضهر كافي ليك في الدنيا؟

رمقته بغيظٍ ثم قلتُ ساخرًا:

- والله يا دكتور سؤالك ده ما يتوجهش ليا.

- أمال أوجهه لمين يا شحاتة؟

أسندتُ رأسي على مؤخرة المقعد رغبةً في إنهاء هذا الحوار المستفزِّ، ثم قلتُ:

- تقدر توجهه لأسيادنا البهوات إللى بيتغيروا علينا بقالهم زمن، وما فيش حد فيهم حسّ بينا.

دوَّنَ الدكتور حسين بعض الملاحظات في مفكرته مجددًا، ثم قال وهو يضغط زرّ تشغيل جهاز التسجيل:

- ماشي يا شحاتة، ماشي، تقدر تكمل دلوقتي.

***

في صباح ذلك اليوم كنتُ أقفُ في حديقةِ البيت أستمتعُ بالنسماتِ العليلةِ لهواء دمشقَ الصافي الرائق، حين حطَّ بالقرب مني غرابٌ داكنٌ شديدُ السواد، أخذ الغرابُ ينظر إليَّ طويلًا وكأنَّه يتأمَّلُني، شرع يضرب بمنقاره الحشائش لبُرهة، ثم نظر إليَّ مجددًا وطار إلى حال سبيله، لا أعلم السبب الذي دفعني لأنْ أتذكر قصَّة غراب ولديْ آدم عليه السلام، أدركتُ بأنَّ هذا اليوم لن يكون كسابقه مِن أيام السعادة والهناء، أيقنتُ بأنَّه سيكون أحد تلك الأيام النَحِسات المشئومة.

انتبهتُ مِن نوبةِ أفكاري المتشائمة على صياحٍ يأتيني مِن خلف باب الحديقة بصوتٍ مرتفعٍ:

- سيدي شمس الدين، سيدي شمس الدين!

هُرِعتُ مِن فوري لمعرفة صاحب الصوت وقد انقبض قلبي، كان غسان أحد غلمان أبي وقد تفصَّد جبينُه بالعَرق وبدَتْ عليه علاماتُ الإرهاق والتعب الشديدَيْن، استنتجتُ أنَّه قد أتى إلى بيتي ركضًا، فتحتُ له الباب وأنا أقول:

- ما خطبُك يا غسان؟ علامَ كلُّ هذا الصياح؟

توقَّف غسان قليلًا واتكأ بكفَّيْه على ركبتيْه محاولًا التقاط أنفاسه، ثم قال بصوتٍ مُتهدِج:

- مولاي سنقر الحلبي، يطلُبك في الديوان على وجه السرعة.

اعترتني المخاوفُ والهواجس، فأمسكتُه مِن كتفيْه أهزُّه بعنفٍ قائلًا:

- ما الأمر يا غسان؟ تكلَّمْ سريعًا، هل أبي على ما يرام؟

أومأ غسان برأسه وهو يقول محاولًا طمأنتي:

- لا تقلق يا سيدي، إنَّ مولاي بخير صحة وعافية، ولكنني سمعتُه يتحدَّث مع مساعديه عن رسلٍ أتتْ بالأمس من القاهرة، مِن عند السلطان.

هززتُ رأسي متعجبًا بعد أنْ تركتُه، وقلتُ مُحدثًا نفسي بصوتٍ مرتفعٍ:

- وما الداعي إلى العجلة في الأمر؟ لعلَّه قد أرسل إلينا بهديةٍ أو عطيةٍ كعادته، فسلطاننا المظفر شديد الكرم والسخاء.

لم يُحِرْ غسان جوابًا، فلم يَزِدْ على أنْ قال:

- لا أعلم يا سيدي، ولكن مولاي أمرني ألّا أعود مِن دونك.

أومأتُ برأسي، ثم قلتُ وأنا أستديرُ داخلًا إلى البيت:

- حسنًا، اذهبْ وعُدْ إليه الآن، سأرتدي ملابسَ ملائمةً وأتبعك إلى الديوان.

دخلتُ إلى غرفتي لارتداء ملابسَ تُلائمُ كوني ابن نائب دمشق، التفتُّ عقب انتهائي مِن ارتدائها ناحية الفراش، كانت سُليمة لا تزال نائمة وقد التحفتْ بغطاء خفيفٍ ناعم يُبرز استدارة جسمها الفاتنة، اقتربتُ منها بخطًى خفيفةٍ حتى لا أوقظَها ولثمتُ جبينها، فتحتْ عينيْها ببطء، ورمتني بنظرةٍ ممتلئةٍ بالحب والهيام، ثم قالت بكسلٍ واستكانةٍ:

- إلى أين تذهبُ في هذا الوقت المبكر يا شمسي وشمس الأكوان كلها؟

أجبتُها وأنا أداعبُ خصلاتٍ مِن شعرها بعد أنْ سقطت على جبينها:

- لقد طلبني أبي في ديوانه على وجه السرعة.

ذهب النعاسُ عنها وبدَتْ على وجهها علاماتُ الجدية، اعتدلتْ جالسةً ثم قالت:

- هل حدث مكروهٌ؟

هززتُ رأسي نافيًا وقلتُ:

- كلا بالطبع، ولكن أتتْ إليه رسلٌ مِن السلطان أمس، لا بُدَّ أنهم محمَّلون بالهدايا والعطايا كما هي عادته.

هدأتْ ملامحُها مرةً أخرى، ثم قالت بدلالٍ:

- حسنًا، إنْ كانِ الأمر كذلك فلا تذهب وادخل إلى جِواري في الفراش، فإنه لا يزال دافئًا .

ارتسمت على وجهي ابتسامةٌ عريضةٌ بعد أنْ أدركتُ مرادها، وقلت:

- لا أستطيع، يجب أنْ أذهب للقاء أبي، وسيكون لدينا متَّسعٌ من الوقت عند عودتي.

استدارتْ بجسدها للجهة الأخرى، وقالت تتصنَّع الغضب بعد أن أعطتني ظهرها:

- يبدو أنك قد مللتَ مني سريعًا، أو أنك ترغبُ في الزواج مِن أخرى.

جلستُ على الفراش واحتضنتُها من الخلف، ثم قبَلتُ عنقها وأنا أقول صادقًا:

- والله لو عرضوا عليَّ كلَّ نساء الأرض لما قَبلتُ بسواكِ.

استدارت مرةً أخرى وتعلَّقتْ برقبتي، قبَّلتْني بحرارةٍ ثم قالت بصوتٍ هامسٍ:

- إذنْ، لا تتأخر! سأنتظرك.

ودَّعتُها ثم انطلقتُ ممتطيًا فرسي في طريقي إلى ديوان أبي، طوال الطريق كنتُ أفكر فيما دعاه لطلبي على وجه السرعة، لعلَّ السلطان قد أرسل إليَّ بهديةٍ جديدةٍ، ما أروع هداياه! في المرة السابقة أهداني

سُليمة أجمل نساء الأرض، لعله الآن سينعم عليَّ بإحدى الإمارات أو البلدان، حقًّا سيكون شيئًا رائعًا أنْ أنتقلَ مع سُليمة إلى بلدٍ جديدٍ نكون نحن حُكامه، يا الله! ما أكرمه هذا السلطان المظفر!

دخلتُ بهو الديوان، لكنني لم أُبصر أبي، كان البهو خاليًا على عكس المعتاد في هذا الوقت من النهار، فقد كانت العادةُ أنْ يكونَ البهو صاخبًا مليئًا بذوي الحاجات من الدمشقيين أو من مساعدي أبي الذين يسعون لقضاء مصالح العباد.

لم تَطُلْ حيرتي طويلًا عقب أنْ فُتِحَ بابُ البهو بعنفٍ، ودلف منه أبي بِرِفقةِ مجموعةٍ من مساعديه، لم يَبْدُ عليه أنَّ مزاجه كان رائقًا، بعد أنْ قطَّب جبينه وارتدى حلَّة الحرب.

بادرته قائلًا:

- ما بالك يا أبي، لَمَ ترتدي حلة الحرب؟

زجر أبي غاضبًا، ثم قال وهو يشدُّ قبضته على سيفه المعلَّق في جانب كتفه:

- لقد قُتِلَ السلطان المظفر قطز وهو في طريق عودته إلى القاهرة.

نزل عليَّ الخبرُ كالصاعقة وفقدت القدرة على النطق، استكمل أبي حديثه قائلًا:

- الملاعين، لم يمنحوه الفرصة حتى يحتفل بنصره.

سألتُه بصوتٍ مرتعشٍ:

- هل فعلها التتار؟

أجاب بصوتٍ غليظٍ وهو يدبُّ على الأرض بقدميه غضبًا:

- كلا، بل فعلها بيبرس الخسيس.

صمتَ قليلًا ثم استطرد قائلًا بمرارةٍ:

- لم يكن علينا أنْ نأمنَ غدره ومكره بعد فراره مع مماليكه تابعي أقطاي، ولكن ما العمل؟ كنا نحتاجُ إليهم لقتال التتار.

قلتُ بصوتٍ مرتعشٍ:

- ماذا سنفعل الآن؟

أطرق أبي رأسه إلى الأرض مُفكرًا، ثم قال:

- لا أدري، فبعد أن استقبلت رسله وطلبوا مني القسم بالولاء والطاعة له، أخبرتهم أنْ ينتظروا حتى الصباح كي يتلقّوا واجب الضيافة ويستريحوا من مشقة السفر، وأنا في حيرةٍ من أمري، فهو بالطبع لن يأمَنَ جانبي لعلمه بقربي الشديد وولائي للسلطان المظفر - عليه رحمة الله -، وإنْ عاديته لن أقدرَ على قتاله بعد أن استحوذ على الجيشِ بكامله.

سألته وقد استبدَّ بي القلق:

- إذن، ما العمل؟

- لا أعلم، لقد أتاني رسولٌ آخر هذا الصباح من عند الأمير علاء الدين أمير حلب، لم أرغب في لقائه حتى تأتي وتكون إلى جانبي، عسى أنْ يكون لديه أخبارٌ جيدةٌ، أو نخرجٌ من هذا المأزق اللعين.

استدعى أبي رسول أمير حلب، فدخل علينا وقد ظهرتْ عليه علاماتُ الإرهاق والوهن الشديد، يبدو عليه وكأنه لم يذق طعم النوم

منذ فترة بعيدة، كانت عيناه زائغتَيْن مرتعشتَيْن تنطق نظراتهما بالذعر والهلع، أخبرنا بأنَّ الأمير علاء الدين كان قد نمى إلى علمه عن طريق أخته زوجة السلطان أيبك - رحمه الله - أنَّ بيبرس قد قتل قطز غدرًا، وأنهما عندما كانا في طريق عودتهما إلى القاهرة، وبينما كانت تتزين لاستقبال السلطان المظفر، كان هو يدبَر في الخفاء لقتل السلطان بعد أنْ اتفق مع بعض أمراء المماليك البحرية المقربين منه على تلك الفعْلة الشنعاء.

فبعد معركة عين جالوت، وحين ترك السلطان قطز دمشق متوجهًا إلى القاهرة، كان الأمراء من المماليك البحرية، يُهيمن عليهم جوٌّ من القلق والترقُّب؛ فقطز، كان اليد اليمنى للسلطان أيبك في عملية تحجيمهم والقضاء على نفوذهم المتفشِّي في البلاد كتفشِّي الطاعون في الجسد، وقام بنفسه بقتل أميرهم أقطاي، وإلقاء رأسه إليهم من فوق أسوار قلعة الجبل.

كانوا متوجسين، وتحوَّل توجُّسهم يقينًا بأنَّ قطز ينوي الغدر بهم مرةً ثانيةً بعد نصره الكبير على التتار. كان بيبرس يرى أنَّه يتساوى مع قطز في الشجاعة والإقدام، والذكاء والزعامة، لكنَّ كلًّا منهما كان ينتمي إلى فريق يُعادي الآخر، لذا فلا يمكن لهما العيش معًا، يجب على أحدهما تركُ مكانه للآخر، وبالطبع يجب ألَّا يكون هو، لذا فقد قرر تدبير هذه المؤامرة البشعة للتخلص من قطز.

عندما اقترب الجيشُ من مصر، أمر السلطانُ قطز بإقامة معسكرٍ للراحة، عاقدًا العزم على أنْ يقضي يومه في الصيد. في الوقت نفسه،

كانت القاهرة تتزيّن بأبهى حُلَلِها لاستقبال الجيش المنتصر، وسلطانها البطل المغوار قطز.

ركب قطز وبيبرس فرسيْهما وسارا جنبًا إلى جنب، طلب بيبرس من قطز أنْ يهبه جاريةً جميلةً، كان قد سباها مِن نساء التتار، لم يُمانع قطز في هذا الطلب، شكره بيبرس بحرارةٍ، وأمسك بيده لكي يُقبّلها، وكانت هذه هي إشارة البدء لبقية المتآمرين.

الأمير «بكتوت الجوكندار»، سحب سيفه وضرب به رقبة السلطان قطز، الأمير «أنز الأصبهاني» أمسك بالسلطان وهو فوق صهوة فرسه وألقاه على الأرض، الأمير «بهادر المعزي» أنهى المهمة بسهم مِن قوسه، لم يتركوه إلّا بعد أنْ تأكدوا مِن أنّه قد أصبح جثةً هامدةً.

أسرع الأمراءُ المتآمرون إلى خيمة السلطان، وصرخ أحدُهم قائلًا: «مَن منكم قتل قطز؟»، أجاب بيبرس: «أنا»، فردَّ عليه الأميرُ قائلًا: «يا مولاي، اجلس هنا في كرسي السلطان»، بعد ذلك، تقدَّم كلّ منهم لكي يُقسِم يمين الولاء للسلطان الجديد، السلطان بيبرس.

لم يستوعبْ عقلي ما سمعته بأُذُنَيَّ، رفض أنْ يصدق أنْ تكون تلك هي نهاية البطل المظفر صاحب مقولة «وا إسلاماه»، أهكذا يموت بطل عين جالوت؟! ميتةٌ كلُّها غدرٌ وخسةٌ بيد متوحشي السلطة وطالبي الدنيا؟

سمعتُ أبي يقول مخاطبًا رسول أمير حلب:

– وماذا فعلوا بجثمان السلطان المظفر؟

أطرق الرسولُ رأسه في الأرض، ثم رفع عينيْن باكيتيْن وهو يقول:

- يُقال إنَّ السلطان المظفر قطز - رحمه الله - بعد موته، قد بقي ملقًى في العراء حتى دفنه خِلْسَةً بعضُ مَن كانوا يعملون في خدمته.

صُدِمتُ من عبارته الأخيرة، يا الله! ما كلُّ هذا الغدر والخسة؟ أتركوه في العراء كالجيفة تأكلها الضباعُ؟ ماذا فعل لهم ليستحق ذلك؟ إنَّه لم يُكمل عامًا في الحكم، كان قائدًا قويًّا قاسيًا حقًّا، ولكنَّ قوة شكيمته تلك هي التي دفعت أمراء المماليك المترددين دفعًا إلى ملاقاة التتار، قادهم بنفسه في المعركة حتى تحقَّق لهم النصرُ المبينُ، أنقذ مصر وما بقي من الشام من دمارٍ مُحقَّقٍ وليلٍ مُكفهرٍ، جنَّبهما المصير المظلم الذي عانت منه بغدادُ عاصمةُ الخلافةِ العباسيةِ.

انتبهتُ على صوت رسول أمير حلب، وهو يُخبر أبي بأنَّ بيبرس أيقن أنه لن يستتبَّ له الأمر ويستقرّ له الحكم قبل أنْ يستولي على قلعة الجبل في القاهرة، لذا فقد توجَّه على الفور، هو ومؤيدوه من أمراء المماليك البحرية إلى القاهرة، ودخلوا القلعة خلسةً في جُنح الظلام.

ومع خيوط الشمس الأولى، وبعد أنْ كانت القاهرةُ قد تجلَّت في أبهى صورها استعدادًا لاستقبال البطل المظفر، وكان الناسُ في أوْج نشوتهم من انتصارهم على التتار، بدأتْ أصواتُ الصراخ والعويل والبكاء تملأ الأزقة والحارات، أخذ المنادي يطوفُ الطرقاتِ مناديًا بأعلى صوته: «رحمة الله على مولانا الملك المظفر قطز، وادعوا بطول العمر للسلطان الجديد بيبرس».

في اليوم التالي، كان بيبرس يطوفُ القاهرةَ من بوابة زويلة إلى بوابة الفتوح مزهوًّا بقوَّته مُمتطيًا فرسه بخيلاءَ، من أمامه الفرسان بالسروج المذهَّبة، ومن خلفه يتبعه أمراء المماليك سيرًا على الأقدام، فوق رأسه

مظلةٌ حريريةٌ تُزيِّن حوافَّها خيوطٌ من الذهب والفضة، بيبرس نفسه كان يضع عمامةً سوداءَ، يتدلَّى منها شرائطُ سوداءُ من الخلف، يعلق سيفًا عربيًا أثريًا في جانب كتفه، قال إنَّه كان يخصُّ الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب.

عندما عاد بيبرس إلى قلعة الجبل، أخذ يُوزع الهدايا وأفخر الثياب والنياشين على الأمراء والعاملين في الدواوين.

أُصيب الكثيرُ مِن الناس بالرعب والهلع، لسماعهم تنصيب بيبرس سلطانًا، فهم لم ينسوا بعد ما فعله المماليك البحرية بقيادة أقطاي من فسادٍ وخطفهم للنساء مِن الحمامات العامة، إبان حكم السلطان أيبك.

شرع بيبرس يُطلِق في الطرقات والحارات مجموعةً مِن أتباعه أطلق عليهم اسم (الحكواتية)، كانوا يطوفون في جميع أرجاء البلاد، يجلسون في المقاهي، يختلطون بعامة الناس، كانوا يقصُّون عليهم السيرة الظاهرية، يَرْوُون فيها صفاتِ وبطولاتِ ومناقبَ بيبرس، كانت هذه السيرة بالطبع ملفَّقةً، مليئّةً بالأكاذيب والبهتان، بعد أنْ أوهم بيبرس الناس بأنه من أصل ملكيٍّ، وأنه هو الأمير محمود بن ممدود، على خلاف حقيقة الأمر، كان غرضُه من ذلك خطب ودِ الناس وكسب محبتهم، أو بمعنًى أدق إحكام السيطرة على عقولهم، ومع الأسف، أفلح في ذلك في فترةٍ زمنيةٍ وجيزةٍ.

سأله أبي مُجددًا:

- وماذا فعل الأمير علاء الدين عندما علم بهذا الأمر؟

ردَّ الرسول بحميةٍ:

- استشاط غضبه، وأقسم على قتال بيبرس والنيل منه.

صمت قليلًا، ثم قال بنبرةٍ ظهر منها إحساسه بالخذلان:

- لكنْ مع الأسف تكالب عليه أمراء المماليك وخلعوه مِن إمارة حلب، عيَّنوا بدلًا منه الأمير حسام الدين لاجين، فما كان من سيدي إلَّا أنْ رحل عن حلب مُستترًا بجنح الظلام مُصطحبًا معه أسرته ونساءه، وكان آخر ما طلبه مني قُبيل رحيله أنْ آتي إليكم لأحذِركم عسى أنْ تتمكنوا مِن إيقاف هذا الخسيس الخائن.

شكره أبي وودَّعه، بعد أنْ أجزل له العطاء ومنحه فرسًا جديدةً، مضى يذرع بهو الديوان ذهابًا وإيابًا، كان صامتًا لا يتحدث بعد أن ازداد تقطيبُ جبينه، كان قابضًا بشدةٍ على مقبض سيفه، لم يجرؤ أحدٌ مِن معاونيه المتواجدين حولنا على الحديث معه، فقد كانوا يعلمون مدى حب وولاء أبي للسلطان المظفر قطز - عليه رحمة الله -، حدَّثته قائلًا:

- الآن، ما العملُ يا أبي؟

أطرق رأسه قليلًا، ثم نظر إليَّ بعينيْن كساهما الحزنُ وهو يقول:

- لا بُدَّ لنا من القتال يا بُنيَّ.

***

- إيه يا شحاتة مالك؟ سكت ليه؟

قالها الدكتور حسين عقب أنْ توقفتُ عن الكلام فجاةً، فتحتُ عينيَّ ونظرتُ صوْبه، كان يتفرَّس في ملامحي محاولاً أنْ يستكشفَ سبب توقّفي عن مواصلة الكلام.

قلتُ بنبرةٍ كساها الحزن:

- ما بحبش أفتكر اللحظات الحزينة، وخصوصًا لحظات الموت.

رفع الدكتور حسين حاجبيْه مُتعجبًا، ثم قال:

- غريبة!! مع إنك رُحت تقابل الموت بنفسك.

نظرتُ إلى الأسفل وأنا أقول:

- أنا مش بتكلم عن نفسي، أنا بتكلم عن الشباب الصغير إللي زي الورد، وفجأة بيلاقوا نفسهم في مواجهة ظالمة مع الموت، من غير ما يكون ليهم أيَ ذنب.

أمسك الدكتور حسين بمفكرته، شرع يدون بها بعض الملاحظات وهو يقول:

- أنت بتتكلم عن مين بالضبط يا شحاتة؟ شمس الدين ولَّا أمجد.

رفعتُ نظري إليه ثم قلتُ بأسًى:

- مش ها تفرق كتير، كلُّهم واحد، أمجد، شمس الدين، عبد الله وغيرهم كتير.

ترك الدكتور حسين مفكرته من يده ومضى يتأمّلني مليًا، ثم قال:

- قصدك إيه؟

مططتُ شفتي بضيقٍ، وقلت:

- ما قصديش حاجة، خلينا نكمل الحكاية أحسن.

صمتَ الدكتور حسين مُتفكرًا في حديثي قليلًا، ثم قال بعد أنْ عدَّل بيده نظارته الطبية:

- ماشي يا شحاتة، كمل!

***

كنتُ في هذا المساء أقفُ في شرفتنا المتواضعة الضيقة، كما هي عادتي كلَّ يوم، أحتسي القهوة التي تُعدُّها سلوى وأمارس هوايتي الثانية بعد القراءة، وهي التدخين بشراهة، إلَّا أنَّ هذا اليوم كان منذ صباحه مختلفًا، فبعد أنْ نبَّهتني سلوى إلى ريبتها وتشككها في التغيير الذي طرأ على أمجد في الآونة الأخيرة، وبعد أن استمعتُ إلى آرائه أثناء نقاشه مع أكرم، قررتُ أنْ أخضعه للرقابة بصورةٍ غير مباشرةٍ، فلا ضرر في استخدام بعض من صلاحياتي المخوَّلة إليَّ بموجب سُلطاتي الأبوية، قررتُ أنْ أتابعَ تحرّكاته اليومية، وأنْ أعرف أصدقاءه، حتى إنني قد طلبت من أكرم أنْ يكون معه في معظم الوقت عندما يتقابل مع أصدقائه.

حتى كان صباح اليوم، حينما أتى أكرم إليَّ وأبلغني أنه ذهب برفقة أمجد إلى مقهى بمنطقة وسط البلد، وأنهما قد التقيا هناك بمجموعة من أصدقاء أمجد، كانوا يتحدَّثون في مختلف الموضوعات وشتى المجالات،

حتى جاء ذكرُ موضوع خالد سعيد، فاشتعلت حماستهم وبدأوا في الاحتجاج على أداء الحكومة في الفترة الأخيرة، ثم أخرج أحدُهم - ويُدعى أحمد - ورقةً صغيرةً بها بعض الشعارات والعبارات التي تدعو الناس إلى النزول في الشوارع يوم ٢٥ يناير، أسوةً بالتونسيين حينما ثاروا على (زين العابدين بن علي) في ثورتهم التونسية الشهيرة، والمُسمَّاة بثورة الياسمين.

سحبتُ نفسًا عميقًا من الدخان ونفخته بهدوء متفكرًا فيما أخبرني به أكرم، وأنا أقفُ مُراقبًا المارَّة في حارتنا البسيطة وقد علتْ وجوهَهم نظرةٌ حزينةٌ منكسرةٌ، تبدو وكأنها أصبحتْ جزءًا لا يتجزأ من شخصياتهم بعد أنْ نالت منهم أعباء الحياة، فأصبح أقصى طموحهم وغاية أمانيهم هو مجرد بقائهم أحياء.

كنتُ كثيرًا ما أسأل نفسي، هل نحن حقًا سعداء في حياتنا؟ هل حقًا نرغبُ في التغيير؟ أحقًا نسعى إلى مستقبل أفضل لأبنائنا؟ أم ترانا فقط نسعد بالجدل والمعارك الكلامية دون السعي الحقيقي نحو غدٍ أفضل؟

كثيرًا ما دخلتُ في سجالاتٍ ومناقشاتٍ جدليةٍ مع زملائي في العمل وجيراني في المنطقة، حول الأزمات التي تطحن عظامنا وتسحق إرادتنا وتدق مسامير اليأس في نعوش حياتنا، توصلتُ في النهاية إلى قناعة راسخة؛ مؤدَّاها أنَّ الغالبية لا تُريد التغيير، لأنه مخاطرةٌ، أو مقامرةٌ غير مأمونة العواقب، بمعنًى أدقّ، أيقنتُ أنَّ التغيير رفاهيةٌ، لا نقدر نحن البسطاء على سداد فاتورتها.

أفقتُ مِن تأمُّلاتي فور أنْ لمحتُ أمجد يظهر على أول الحارة وهو يوزع التحية والسلام على مَن يُقابله، الحقيقة أنَّ أمجد لم يكن مجرد ابن لي فقط، بل كان توءم روحي، ففيه تجسَّدتْ كلُّ أحلامي وطموحاتي التي لم أتمكن مِن تحقيقها، وضعتُ فيه كلَّ همي وقهري، عسى أن أراه يومًا من الصفوة.

ولِمَ لا؟ فهو شابٌّ نشيطٌ مجتهدٌ متفوقٌ، إذا استمرَّ على هذا الحال فَسوف يكون من الأوائل على دفعته في كلية الحقوق. يا الله، كم تتوق نفسي لرؤيته وقد ارتقى في المناصب وأصبح يُشار إليه بالبنان! فأجلسُ متفاخرًا بين أقراني وأقول لهم «هذا هو ابني، هذا هو أمجد شحاته المصري».

لمحتُه وقد انتحى جانبًا بأحد شباب المنطقة وأخذا يتحدثان حديثًا يبدو لمن يراهما أنهما يتهامسان بسرية وحرص بالغ، دقَّقتُ النظر مليًا لأرى مَن هذا الشاب الذي يُخاطبه، كان أمجد يُعطِّيه مجموعةً من الأوراق وهو يتلفَّتُ حوله بحذر، وكأنه يخشى أنْ يراه أحدٌ، أخذ الشاب الأوراق ثم دسَّها بين طيَّات ملابسه، وانطلق مسرعًا، ما لبث الشابُ أن اختفى عن الأنظار وعاد أمجد يقف مع أقرانه مجددًا.

أخذتُ أنشط ذاكرتي لعلني أتذكر أين رأيت هذا الشاب من قبل، تذكَّرتُ! كان هذا الشاب هو علاء ابن فتحي قورة صاحب ورشة النجارة الواقعة في نهاية حارتنا.

كان علاء هذا طالبًا فاشلا تجاوز عمره الثمانية والعشرين عامًا، ولم يُنْهِ تعليمه الجامعيَّ بعد، أبوه الأسطى فتحي قورة يبرر فشله بأنَّ ابنه مِن شباب المعارضين السياسيين، الذين يرغبون في إصلاح أحوال البلاد،

لذا فإنَّ إدارة الجامعة تضطهده وتتعمَّد رسوبه، حتى يكون عبرةً لِمَن هم مثله من الشباب، بالإضافة إلى أنَّ هذا العلاء كان له ملفٌ في أمن الدولة وتمَّ القبضُ عليه أكثر مِن مرةٍ، ثم أخلي سبيله دون معرفة الأسباب.

يا اللهُ! لقد كانت سلوى صادقةً في حدسها، لقد كانت مُحقةً فيما ذكرتْه من شكوكٍ وهواجسَ، ما لنا نحن وما لهذا القلق؟! نحن أناسٌ لا دخل لنا بالسياسة أو غيرها، لا بُدَّ أنْ أردعه عن سلوك هذا الطريق المظلم.

انتفضتُ مذعورًا بعد أنْ تخيَّل عقلي ما قد يُصيبه إذا استمرَّ في هذا الطريق، وهتفتُ بصوتٍ مرتفع:

«أمجد، أمجد، إطلع بسرعة عايزك».

رفع أمجد بصره لأعلى، ثم لوَّح إليَّ مبتسمًا وهو يودع أصدقاءه مسرعَ الخطى نحو المنزل، طوال فترة صعوده، أخذ عقلي يعمل كالحاسب الآلي مُحاولًا إيجاد الصلة بين أمجد وهذا العلاء الفاشل.

- خير يا بابا، حضرتك كنت عاوزني في حاجة؟

قالها أمجد مبتسمًا عقب أنْ عَبَرَ من باب غرفة المعيشة.

نظرتُ إليه مليًا، ثم قلتُ محاولًا أنْ أكونَ طبيعيًا قدر المستطاع:

- إزيك يا سيادة المستشار؟ أخبار محاضراتك إيه؟

هزَّ أمجد كتفيْه، ثم قال مبتسمًا:

- كله تمام والحمد لله، متقلقش عليا يا بابا، إن شاء الله ابنك هيشرفك ويرفع راسك.

باغتُّه بسؤالٍ مفاجئٍ، على طريقة مُحققي الأفلام البوليسية:

- وأخبار القهوة بتاعة وسط البلد إيه؟

بُهِتَ أمجد لسؤالي، غير أنَّه تمالك أعصابه وقال مُتصنعًا الهدوء:

- هوا أكرم قال لحضرتك، عادي ده مكان بنتقابل فيه أنا وبعض أصحابي، دول من الأسر بتاعة الجامعة.

أيقنتُ كذبه فقررت أنْ أُجهِز على مقاومته، سألته بذات الطريقة البوليسية:

- أُمَّال إيه الأوراق التي كنت مخبيها وإديتها للواد علاء ابن الأسطى فتحي؟

زاغت عينا أمجد وامتقع وجهه، حاول رسم ابتسامةٍ مُصطنعةٍ لمداراة توتُّره، ثم قال بصوتٍ خرج مُهتزًّا:

- إيه ده يا بابا، هوا حضرتك بتراقبني وأللا إيه؟

حدجتُه بنظرةٍ غاضبةٍ، ثم قلتُ بنبرةٍ صارمةٍ:

- متهيأ لي أنا إللي بسأل هنا مش إنت؟

نظر أمجد بعينيْه لأسفل، وأطرق رأسه ثم قال:

- متأسف!

اشتدَّ قلقي وريْبتي بعد أنْ نظرتُ مباشرةً في عينيْه، إلَّا أنَّه فرّ من عينيَّ واستمرّ ناظرًا لأسفل، فقلت:

- ما جاوبتش على سؤالي لغاية دلوقتي.

تنحنح مُحاولًا السيطرة على نبرات صوته إلا أنه فشل، فخرج صوته مضطرِبًا وهو يقول:

- يا بابا هوا فيها حاجة إن أنا أقف مع علاء تحت البيت؟ دا جارنا وكنت بسيلم عليه.

مشددًا من حصاري حوله، سألته بنفس النبرة الصارمة:

- أنا بسأل عن الأوراق إللي إديتها له.

تلعثمت الحروف فوق لسانه، ثم أمسك بحقيبة ظهره في حركةٍ لاشعوريةٍ وهو يقول:

- ورق!، ورق إيه؟، أنا ما دينلوش حاجة.

بغتةً، خطفتُ حقيبة ظهره مِن فوق كتفيْه، حاول يائسًا التشبُّث بها بعد أنْ فتحتُها، فسقطت على الأرض وتبعثرت منها كميةٌ كبيرةٌ من الأوراق.

تهدَّجتْ أنفاسُه وتقطَّعت، تفصَّد العرق على جبينه غزيرًا وهو يجثو على ركبتيْه محاولًا جمع ما تبعثر من أوراقٍ، أسرعتُ ممسكًا بإحدى هذه الأوراق وشرعت في قراءة ما دُوِن فيها .

(قوم يا مصري مصر دايمًا بتناديك، ٢٥ يناير، يوم العزة والكرامة . . .

لحد إمتى هنستحمل الظلم والقهر، لحد إمتى هنستحمل الغلاء والفقر، لحد إمتى هنستحمل بطش الداخلية . . .

لا للتوريث، لا لوزير الداخلية، لا للحكومة . . .

عيش، حرية، عدالة اجتماعية. . .

مش هنسيب حق خالد سعيد، كلنا خالد سعيد. . .

موعدنا يوم ٢٥ يناير، في كل شوارع مصر. . .) .

تسمَّرتُ في مكاني، وقد أحسستُ بالشلل التامَ يجتاح عقلي وحواسي من هول المفاجأة، أخذتُ أنظرُ إلى الورقة بين يدي ثم نظرتُ إلى أمجد، كان يُحاول أنْ يتوارى من أمام ناظري، استغرقني استيعاب الكارثة بعض الوقت حتى هتفتُ صائحًا في وجهه:

- إيه ده ! ! منشورات يا أمجد، أنا مش مصدق نفسي.

لم يجُد أمجد جوابًا فأطرق رأسه إلى الأرض وصمت، استفزني صمته فصِحْتُ فيه مجددًا:

- أنت مجنون، عايز تروح في داهية وتاخدنا كلنا معاك؟ !

استمرّ على حاله من الصمت المُطبِق وظللتُ أنا في نوبة انفعالي الهستيريَ، صارخًا وأنا أدفعه في كتفه:

- ما فكَّرتِش في أمك وإخواتك؟

لأول مرةٍ خرج أمجد عن صمته قائلًا بصوتٍ حَرِصَ على أنْ يبقَيه هادئًا:

- يا بابا ما هو أنا بعمل كده علشان أمي وإخواتي، علشانا كلنا، علشان نقدر نعيش في مجتمع محترم، علشان نقدر ناخد حقوقنا إللي اتحرمنا منها من أيام. . .

لم يستطع أنْ يكمل عبارته، فقد قاطعته صائحًا بعصبيةٍ:

- حقوق إيه وهباب إيه؟ لا هو أنا كنت طافح الكوته وطلعان ميتين أهلي عشان أعلمك وفي الآخر تعمل لي فيها مناضل وثورجي؟!

همَّ أمجد بالحديث إلا أنني أسكتُّه بإشارةٍ من يدي، وقلت بحزمٍ صارخًا:

- بُص بقى، مفيش منشورات وزفت تاني، إنت تروح كليتك وترجع كل يوم تديني تمام بمحاضراتك وتنسى الموضوع دا خالص، مفهوم؟

نظر إليَّ طويلًا وقد ترقرق الدمعُ في عينيْه، ثم قال بصوتٍ خفيضٍ:

- متأسف يا بابا، مش هاقدر.

جنَّ جنوني واستشاط غضبي بعد أنْ صعقني رفضه، فصرختُ:

- يعني إيه مش هاتقدر، إنت عبيط ياله؟!

حضرتْ سلوى مسرعةً، بعد أنْ فزعت من سماعها لصوت صراخي، الذي ارتفع مُحدثًا صخبًا وضوضاءَ شديدةً، اقتربتْ مني ثم ربّتتْ على كتفي تحاول تهدئتي وقالت:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، في إيه يا شحاتة؟! مالك ياخويا؟

رميتُه بنظرةٍ حانقةٍ، ثم التفتُّ إليها قائلًا:

- اتفضلي يا ستي، المحروس ابنك بيوزع منشورات، عامل لي فيها بطل بسلامته.

ضربتْ سلوى بيدها على صدرها بهلع، ثم شهقت قائلةً:

- يا لهوي! الكلام إللي بيقوله أبوك ده بجد يا أمجد؟

صمتَ أمجد قليلًا وأطرق رأسه إلى الأرض، ثم قال:

- صحيح يا أم أمجد.

انفجرتُ صائحًا بغضبٍ مُجددًا:

- دا أنت بجح بقى، بُص ياله! الموضوع ده تنساه خالص، مالكش دعوة بالواد علاء دا تاني، مفهوم؟

رفع أمجد رأسه ثم نظر إليَّ قائلًا برجاء:

- يعني يا بابا حضرتك يرضيك إن إللي حصل لخالد سعيد يحصل معايا؟

أجبته بجدَّةٍ بالغةٍ:

- وإحنا مالنا وماله؟ ما تخلي كل واحد في حاله أحسن، وبعدين الجرايد بتقول إنه كان معاه ورقة بانجو فلما مسكوه حاول يبلعها، اتخنق مات.

لأوَّل مرةٍ يحتدُّ أمجد عليَّ في حديثه، فقال وقد علتْ نبراتُ صوته:

- يا سلام! إيه يا بابا الكلام إللي بتقوله ده، الكلام ده كدب ومش حقيقي، مخبرين الداخلية هما إللي قتلوه.

رمقتُه بنظرة غضبٍ واستياءٍ، ثم قلتُ:

- وأنت بقى مصدَّق الكلام الفارغ إللي عمالين يهيجوا بيه البلد ده؟

أشاح بوجهه متحاشيًا نظراتي، فقلتُ بنبرةٍ حانيةٍ:

- يا بني فُوق، البلد دي فيها حكومة وإحنا هنا كلنا خدامين الحكومة، دول هما إللي بيأكلونا وبيحافظوا علينا، بيسهروا على أمننا وراحتنا.

اقتربت سلوى منه وربَّتت على كتفه بحنانٍ، ثم قالت:

- يا بني اسمع كلام أبوك، ده عاوز مصلحتك، مالكشي دعوة بالعيال إللي ملوا دماغك بالكلام الفاضي ده، خليك في مذاكرتك وشوف مستقبلك، يا بني دا إحنا ما حيلتناش في الدنيا غيركوا.

مطَّ أمجد شفتيه بضيقٍ، ثم قال بازدراء:

- ما هو الخوف والجبن دول هما إللي ضيعوا البلد، وضيعوا أجيال كتير قبل كده، لكن إحنا مش هنسكت على الظلم حتى لو كان التمن حياتنا، البلد دي لازم يتصلح...

لم يستكمل عبارته الأخيرة، بعد أنْ هويتُ على وجهه بصفعةٍ قويةٍ ألزمته الصمت، وضع راحته على خده يتحسَّسُ موضع الصفعة، وأخذ ينظر إليَّ بذهولٍ، كانت هذه هي المرة الأولى في حياتي التي أضرب فيها أحدًا من أبنائي، انهمرت الدموع من عينيْ سلوى، بدا صوتها متأثرًا من بكائها وهي تلومني:

- ليه كده يا بو أمجد، دا أنت عمرك ما عملتها.

كأنها لم تقل شيئًا، تجاهلتُ ما قالت، ونظرتُ إليه بجدَّةٍ ثم قلت:

- اسمع يا بني أنت، هيَّا كلمة واحدة مافيش غيرها، الموضوع ده تسييك منه خالص، أنا ما عنديش عيال تشتغل في السياسة، وإلا تشوف لك حتة تانية تبات فيها.

أخذ أمجد الورقة من يدي بهدوء ثم وضعها في حقيبة ظهره، نظر إليَّ طويلًا وقد بللت الدموعُ وجهه ثم قال:

- حاضر يا بابا، إللي تشوفه حضرتك.

استدار أمجد وانكبَّ على يد أمه يقبّلها بحرارةٍ وهو يبكي، ثم اتّجه نحو باب البيت مُغادرًا، حاولتْ أمه أنْ تمنعه، تعلّقت في ذراعه بشدةٍ إلا أنه أفلت يدها وذهب، غادَرَنا دون أن يُودِّعني، غادرنا آخذًا معه قلبي، غادَرَنا مُعلنًا مفارقة روحي لجسدي إلى الأبد.

***

انخرطتُ في نوبة بكاء حادَّةٍ، بعد أنْ خنقتني العبراتُ ولم أعد قادرًا على مواصلة الكلامً، ربَّتَ الدكتور حسين على كتفي بإشفاقٍ وهو يُناولني كوبًا من الماء، قائلًا بصوتٍ بدا عليه التأثر:

- اشرب يا شحاتة، وكفاية كده النهارده، إنت شكلك تعبت.

رشفتُ من الماء قدرًا يسيرًا، أخذتُ أمسح دموعي المنهمرة بكفيَّ ثم قلتُ بصوتٍ متهدج:

- لا يا دكتور، لازم أكمِّل، يمكن الناس تعرف الحقيقة.

عاد الدكتور حسين إلى الأريكة مرةً أخرى، ثم قال:

- بس أنت شكلك متأثر جدًا والحزن مسيطر عليك، ومتهيألي هيبقى صعب إنك تكمل دلوقتي.

ارتسمت على شفتيَّ ابتسامةٌ شاحبةٌ، وقلتُ بمرارةٍ بالغةٍ:

- يا دكتور، إحنا اتكتب علينا الحزن.

أومأ برأسه متفهمًا، وهو يقول:

- أنا مقدَّر التشاؤم إللي أنت فيه بسبب ظروفك لكن. . .

- تشاؤم! ! يا دكتور، إحنا الناس الوحيدة إللي لما نحزن بنبكي، ولما نفرح، برضه بنبكي.

ترقرق في عينيه الدمع وأطرق رأسه قليلًا، ساد الصمت في الغرفة، حتى قطعه الدكتور حسين وهو يقول محاولًا تغيير دفَّة الحديث:

- ماشي يا شحاتة، خليك على راحتك، اتفضل كمل!

***

ما زلتُ أذكر جيدًا وقفتي المتهالكة وقد بلغ بي التعب منتهاه، أتلفَّتُ حولي في فزع، ما هذا المكان؟ انتبهتُ على صوت ضجيج البشر، وقد تحلّقوا منّ حولي في كل اتجاه، جابتْ عيناي المكان فأبصرتُ بهما من قريبٍ بوابة زويلة، ومن حولي رجالٌ مقرَّنين بالسلاسل والأصفاد إلى صوارٍ خشبيةٍ يبدو ظاهرًا على وجوههم علامات الذل والهوان، رميت بصري لأبعد مداه، شاهدت عند نقطة مرتفعة قلعة الجبل، أغمضتُ عينيَّ مسرعًا، حتى لا تذكرني رؤيتها بمن يجلس فيها الآن بعد أنْ كان السلطان المظفر هو صاحبِها، يا الله! ما الذي جاء بي إلى

القاهرة؟ لقد كنتُ آخر ما أذكر، متواجدًا مع أبي في دمشق نستعد لملاقاة بيبرس وأعوانه. اللعنة! يبدو أنَّ عقلي قد أصابه الخرفُ، لابد أنْ أستعيد تركيزي وقواي حتى أتمكن من التعامل مع هذا المجهول الذي صرتُ إليه، أين أبي؟ أين أمي؟ أين سُليمة؟

حاولتُ بشدَّةٍ أنْ أستعيد تركيزي إلَّا أنَّ جفاف حلقي والألم الناتج عن تشقُّق شفتيَّ منعاني من التركيز، حاولتُ النطق فخرج صوتي ضعيفًا مبحوحًا:

- ماء، أريد ماءً.

اقترب مني أحدهم، كان بغيض الخِلقة، يرتدي ملابسَ فضفاضة سوداءَ، يتزيَّن بالعقود والسلاسل المتدليَة حتى منتصف صدره، نظر إليَّ مليًّا ثم قال متهكِّمًا بنبرةٍ متغطرسةٍ:

- ماذا تريدُ يا ولد؟

تغاضيتُ عن إهانته الفجَّة وقلتُ بوهنٍ شديدٍ:

- الماء، أريد أن أشرب.

أمسك البغيضُ بدلو فيه بقايا من الماءِ المُتَّسخ، وشرع يصبُّ منه أمام وجهي، حاولتُ أنْ أشرب إلا أنني لم أتمكن من الحركة، فوجدْت بأنني مقيدُ اليدين والقدمين في صارٍ خشبيّ ضخم، حاولتُ أنْ أشرب مجددًا، إلا أنني لم أستطع، ازداد عطشي، ومعه جُنَّ جنوني، بدأت أتحرَّك يمنة ويسارًا بعنفٍ محاولًا فكَّ القيود، شرع البغيضُ ورفاقه يتضاحكون بسخريةٍ على ما أفعله من حركاتٍ هستيريةٍ، ما لبث أن اقترب من وجهي حتى لفحت رائحة أنفاسه الكريهة أنفي، ثم قال:

- أنت الآن في سوق العبيد، لقد أصبحت ملكًا لي بعد أن ابتعتك بثمنٍ باهظٍ، فادعُ إلهك أن تكونَ مساويًا لقيمته.

نظرتُ إليه مليًا متعجبًا واتسعت عيناي من الهلع، ثم قلتُ بجدَّةٍ مُعترضًا:

- كيف اشتريتني؟ أنا رجلٌ حرٌّ وابن حرٍّ، أنا شمس الدين ابن سنقر الحلبي.

ضربني بكفه على رأسي عدَّة ضرباتٍ خفيفةٍ، وقال بصوتٍ مبحوحٍ:

- انتبه يا ولد!

أشار بإبهامه إلى بوابة زويلة ثم قال مُتشفيًا:

- أليس هذا هو أبوك؟

أدرتُ رأسي حيث أشار، أبصرتْ عيناي ما لم تحتملاه؛ فقد كان أبي مُتدليًا من رقبته بحبلٍ غليظٍ مربوطٍ طرفه بأعلى بوابة زويلة، وقد تجمَّع المارة أسفله ينظرون إليه، تنبهتُ بعد أنْ صفعني البغيض على وجهي مجددًا وهو يقول:

- لقد أمر السلطان بأنْ يظلَّ جسدُ هذا الخائن المارق معلقًا، حتى تأكلَ الطيرُ من رأسه.

لم يحتمل عقلي كلَّ ذلك، فسقط رأسي متدليًا على صدري بعد أنْ أُغشي عليَّ.

أفقتُ من غيبوبتي مذعورًا، أتلفَّتُ حولي يمنةً ويسارًا، أتنفس بسرعة فائقة كأنني قد انتهيتُ للتوِّ واللحظة من سباقٍ للعَدْو، أحسستُ ببردٍ قارصٍ يعصف بشتى أنحاء جسدي العليل، كان وقت الغروب قد اقترب وقد خلعوا عني ملابسي بالكامل، لم أكُنْ أرتدي سوى إزار قصيرٍ مهترئٍ كالح اللون، بالكاد يستر عورتي.

بدأتُ أستعيدُ رباطة جأشي قليلًا، أخذتُ أسترجعُ ما جرى من أحداث، تذكرت أنه بعد أن استقرَّ رأي أبي على القتال، التفَّ من حوله رجاله ومساعدوه يهتفون باسمه ويُهللون لرأيه، أطلقوا عليه لقب (الملك المجاهد)، أمروا بأنْ يطوفَ المنادون في طرقات دمشق حاملين ألوية الولاء، أبلغ أبي رسل بيبرس برفضه أنْ يُقسِم يمين الولاء والطاعة له، وأعلن العصيان.

بعد يومين، بلَغَنا أنَّ عددًا كبيرًا من المماليك والمعاونين لأبي يُغادرون دمشق مستترين بظلمة الليل، علمنا أنَّ الملعون حسام الدين لاجين أمير حلب قد أرسل لهم سرًّا أموالًا طائلةً وأغراهم بمبايعته على طاعة بيبرس، وسيضمن لأحدهم ولاية دمشق، قَبِلَ الخونة الملاعين عرض الخسيس.

اشتعل غضبُ أبي، أقسم على مطاردتهم والقضاء عليهم عن بكرة أبيهم، تبعتُه ومن بقي معنا من الأتباع المخلصين، وقد امتلأت قلوبنا غلًّا ورغبةً في الانتقام من خيانتهم. للأسف، لم نكن نعلم أنَّ أمير حلب كان قد أعدَّ لنا كمينًا بمشاركتهم، ودارتْ رحى المعركة غير المتكافئة، أظهر خلالها أبي بسالةً ومهارةً فائقتَيْن، لكنهما لم تكونا كافيتَيْن للفوز بها، اندحرت قوَّاتنا سريعًا وتمَّ أسْرنا، كنتُ قد أصبت بحُمَّى شديدةٍ

من أثر تلوُّث جراحي التي لم تُضمَّد، كنت طوال الطريق أهذي وأعاني من هلاوسَ شديدةٍ، حتى وصلنا إلى القاهرة، وصلنا، بعد أنْ أصبحنا عبيدًا.

انتبهتُ على يدٍ حانيةٍ تربَت على كتفي برفق، فتحت عينيَّ، فهالني ما رأيتُ؛ كان أول ما شدَّ بصري هما عيناه، كانتا واسعتَيْن كحلاوين تشعان بريقًا عجيبًا به مزيجٌ من السماحة والرهبة، تشعر بأنَّ نظراته تتملَّكك وتستحوذ عليك، تأسِرك بسحرها فلا تستطيع مواجهتها، انتبهتُ على صوته ذي النبرة العميقة الوقور:

- أتريدُ ماءً يا بُنيَّ؟

أومأتُ برأسي بوهنٍ وضعفٍ، مدَّ الغريبُ يده بإبريق ممتلئ عن آخره بالماء، وشرع يصبُّ الماء في فمي برفق، كان الماء له طعمٌ رائقٌ عجيبٌ، كان مختلفًا عن أيّ ماء شربته من قبل، شربت حتى ارتويت، حينئذٍ تذكرتُ ما أنا فيه الآن من عبوديةٍ وهوانٍ، بدأتُ أتلفّتُ حولي بقلقٍ، وقلتُ مخاطبًا الغريب:

- أستحلفك بالله يا سيدي أنْ تفكَّ وثاقي.

رمقني الغريبُ بنظرةٍ جمَّدت الدماء في عروقي، ثم قال بصوته العميق:

- ما الذي أتي بك إلى هنا يا شمس الدين؟

اتسعت حدقتاي دهشةً لمعرفته اسمي، فسألته:

- أو تعرف اسمي يا سيدي؟

ابتسم الغريبُ ابتسامةً رائقةً، ثم قال:

- لم تُجبْ عن سؤالي بعد .

فكَّرتُ قليلًا ثم قلتُ على عجلٍ:

- لقد خسرنا المعركة أمام أعوان بيبرس، قام الملاعين بأسري وعلَّقوا جثمان أبي بعد قتله على بوابة زويلة .

تأمَّلني الغريب مليًا ، ثم قال بنبرته العميقة مجددًا :

- إنْ حللت وثاقك، أتراك ترحلُ عائدًا إلى ديارك ؟

اشتعلت عيناي من فرط الحماسة، وقلتُ بصوتٍ ينضح بما فيه من رغبةٍ في الانتقام والتشفي:

- والله الذي لا إله إلا هو، لأذيقنَّهم مِن العذاب صنوفًا لم يَخْبُرها أحدٌ مِن البشر قبلهم، ولا بعدهم .

هزَّ الغريبُ رأسه ثم قال بأسفٍ:

- لكلِ أجلٍ كتابٌ .

أنهى عِبارته السابقة ثم تركني مغادرًا المكان، لم أصدِق ما حدث مِن هذا الغريب، أيتركني على حالي هذه دون أنْ يُقدِم إليَّ يد العون والمساعدة، صحتُ بصوتٍ مرتفع:

- أنت، أيها الغريب، انتظرْ، لا ترحل رجاءً .

التفتَ الغريب تجاهي، ثم قال بصوتٍ ظننتُ من قوَّته أنَّ الأرض قد تزلزلت من تحت أقدامي:

- يا خفيَّ الألطاف نجّنا ممَّا نخاف!

لم أفهم معنى ما نطق به، كما لم أفهم سبب تخليه المفاجئ عني، كان شيءٌ ما في نظراته يحمل إليَّ إشارةً ما، أو رسالةً محددةً، لكنني لم أفهمها.

تلقيتُ صفعةً شديدةً على مؤخرة رأسي، وسمعت صوتَ أحدهم يقول:

- كفَّ عن الصراخ يا لعين، واستعدَّ، فقد حان وقتُ فحصك ومعاينتك من قِبل الطبيب.

قالها وشرع يحلُّ ما كان يوثقني بالصاري الخشبي، كان يستبدله بقيدٍ آخر ممتدٍ ما بين رقبتي وقدميَّ، أصبحتُ لا أقدر على الوقوف منتصبًا لقِصَرِ هذا القيد.

انضم إليَّ العديد من الرجال، عرفتُ منهم بعضهم ولم أتعرَّف إلى الآخرين، سِرْنا في طابورٍ طويلٍ حتى وصلنا إلى مكانٍ يُشبه الفناء المتّسع، قام الرجالُ برَصِّنا صفًّا واحدًا بعد أنْ فكوا عنا القيود، شرعتُ أحاول أنْ أفرد قامتي بعد أنْ كاد ظهري ينقصم من الألم، أبصرتُ البغيض ذا الملابس السوداء الفضفاضة والحليَ، جالسًا بالقرب منا على مقعدٍ من الخوص، يجيل بصره فيما بيننا بعينٍ متفحصةٍ.

لم يُحاول أحدٌ من الرجال الواقفين معي ولو مجرَّد محاولةٍ يسيرةٍ المقاومة أو الهرب من تلك الوقفة المخزية، بعد أنْ شرع أعوانُ البغيض ينزعون عنا ما كان يستر عوراتنا.

انتبهت على صوت البغيض وهو يهتف مُرحبًا بأحد القادمين، بعد أنْ وقف فاردًا ذراعيه لاستقباله:

- مرحبًا بالطبيب العزيز، لقد أحضرتُ لك اليوم بضاعةً كثيرة، أرجو أنْ تفحصها جيدًا هذه المرة حتى لا تُكبدني الخسائر مثل المرة السابقة.

نظر إليه الطبيب نظرةً حانقةً وهو يحتضنه برياء ظاهرٍ، ثم قال باستهزاء:

- لَم أجدك يومًا إلا وقد خسرت المال، ألا تربح أبدًا يا رجل؟

قهقه الرجلُ البغيض ضاحكًا ضحكةً مقيتةً، ثم قال:

- يا صديقي، حتى إنْ كنتُ أربحُ مالًا وفيرًا فيجب ألا يعلم بذلك أحدٌ، أليس ذلك من صفات التاجر البارع؟

بادله الطبيبُ الضحكَ وقال:

- والمسيح، إني لأخشى أنْ أستيقظ فأجدك قد اشتريتني وبِعْتَني في سوق العبيد.

ربّت البغيضُ على كتفه وضحك بصوتٍ مرتفع، ثم قال:

- يا صديقي، لولا أني أحتاج إليك لفعلتُ ذلك.

ابتسم الطبيبُ له بخبثٍ، ثم قال:

- حسنًا يا أمهر تجار العبيد في برّ مصر، هيا إلى العمل.

بدأ الطبيبُ في المرور على الرجال المتراصين صفًا، كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضًا، عندما كان يلفت انتباهه أحدهم يشير إلى أعوان البغيض بتقييده، ثم يقوم بفحص أعضائه الذكورية بدقةٍ، ثم يأمرهم بقلبه على بطنه ويفحص مؤخرته فحصًا مهينًا.

لم أعلم كيف أتصرَّف في مثل هذا الموقف المهين، نظرت إلى الواقف بجواري مستغيثًا عسى أنْ تكونَ لديه النجدة، إلا أنه فجعني عندما أخبرني بأنَّ هذا هو فحص الخصيان الجدد.

تسمَّرتُ في مكاني وتملَّكني الفزع، بعد أن علمت ما كانوا ينتوون فعله، فقد كنتُ أعلم أنَّ المماليك يستخدمون العبيد في القيام بالأعمال الشاقة، أما مَن لا يقدر منهم على أدائها فيتمُّ استخدامُه للعمل في خدمة القصور والبيوت، التي تكون بطبيعة الحال مليئةً بالنساء والجواري، لذلك فإنهم يقومون بإجراء عملية إخصاء العبد، بقطع ذكره وخصيتيه، حتى يطمئنوا على نسائهم حال وجوده بينهم طوال الوقت، وبعد إجراء هذه العملية يتمُّ سكب الزيت المغلي مكان الجرح، ثم يتمُّ وضع الخصِيَ في بركةٍ من الطين لمدة ثلاثة أو خمسة أيام حتى يطيبَ الجرح، كلٌّ حسب حاله، ثم بعد ذلك تتمُّ مداواة الجرح بالأعشاب الطبية.

الآن أيضًا فهمتُ سبب تواجد هذا الطبيب القبطيَ وإجرائه الفحوصات علينا، لأنه كانت قد صدرت فتوى دينيةٍ منذ فترة تحرِّم قيام المسلمين بإخصاء العبيد، لذا فقد احتال تجارُ العبيد على هذه الفتوى بأنْ قاموا بإرسال العبيد المراد إخصاؤهم إلى بلدة أسيوط، حيث إنَّ غالبية سكانها من القبط، فيقوم أحدهم بخصي العبيد ثم يُعيدهم مرةً أخرى إلى سيَدهم المسلم، ولكنْ يبدو أنَّ هذا البغيض تاجرٌ جشعٌ،

يرغب في توفير ثمن نقل العبيد من وإلى أسيوط، لذا فقد أحضر طبيبًا قبطيًا إلى هنا، اللعنة! لن أسمح لهم أنْ يَمَسُّوني بسوء.

انتبهتُ على صوت صراخ وعويل يصدر من أحدً جنبات السوق على مسافة غير بعيدةٍ مِن مكاًن وقوفنًا، أدرتُ وجهي صوب مصدر الصوت، فرأًيتها، كانت سُلَيمة.

رأيتُها تقف وسط مجموعة من النساء والفتيات، يرتدين ملابسَ باليةً شفافةً تكشف من أجسادًهنَّ أكثر مِمَّا تستر، شحب وجهها، ونحف بشدةٍ حتى برزت عظام وجنتيْها، زاغ بصرها، وفقدت البريق الساحر الذي كان يشعُّ من عينيْها، رأيتها مقيَّدةً بالحبال، وقد التفَّ حولها بعضُ المارة يُعاينون ويتفحصون ويلمسون من جسدها أجزاء لا يصحُّ لأحدٍ أنْ يلمسها، يعبثون بها بوقاحة وفجاجةٍ لم أحتملها، كانت مستسلمةً لقدرها البائس لا تقاومهم، صرختُ مناديًا عليها بأعلى صوتي:

- سُليمة، سُليمة!

رفعتْ رأسها بيأس، ثم نظرت تجاهي، أضاء وجهها مشرقًا بعد أن تفاجأت لرؤيتي، أضاء وجهُها مثل الغريق الذي وجد لوحًا من الخشب البالي طافيًا على سطح الماء، همَّتْ بالتحرُّك نحوي إلا أن قيدها منعها، اقترب منها أحدُ الملاعين، صفعها على وجهها صفعةً أسالت الدماء من فمها وهو يصيحُ بها قائلًا:

- لا تتحركي إلا بعد أنْ آذن لك، أيتها الملعونة!

غلت الدماء في عروقي دفعةً واحدةً، ولم أستطع أنْ أتمالك نفسي وأنا أرى سُليمة على تلك الحال من الهوان، هجمتُ على أحد معاوني البغيض بغتةً، انتزعتُ من جانبه خنجرًا كان يعلقه في نطاقه ثم طعنته بكلِ ما أُوتيتُ من قوةٍ في بطنه طعناتٍ خاطفةً متتاليةً، فخرَّ صريعًا من فورِه وقد اندفعت الدماء بغزارةٍ من جرحه، حاول أحدهم الإمساك بي من الخلف وتقييد حركتي، إلا أنني استدرتُ سريعًا وعاجلته بطعنة نافذةٍ في حنجرته، أطلق على أثرها حشرجةً هائلةً وسقط في مكانه بلا حراكٍ.

ساد الهرجُ والمرجُ في أرجاء الفناء واختلط الحابل بالنابل، بعد أنْ تحرَّك الخصيان الجدد في محاولةٍ يائسة للحفاظ على ما تبقَّى من كرامتهم المُمتهنة، سرعان ما تفشَّى القتلُ والتذبيح في المتواجدين، ظللتُ على حالي أحاول الوصول إلى سُليمة ملوحًا بالخنجر في كل اتجاهٍ كأني أقاتل طواحين الهواء، صرخ البغيضُ صرخةً هائلةً في أعوانه، تكالبوا على أثرها علينا من كل حدبٍ وصوبٍ، بدأ الحصار يضيق علينا بعد أنْ سقط منا الكثير من الرجال، أحسستُ بخنجرٍ يخترق فخذي الأيمن من الخلف، استدرتُ سريعًا لملاقاة صاحب الضربة، عاجلني آخرُ بضربةٍ خاطفة من سيفه على يدي اليمنى سقط معها الخنجر من يدي، ثم ركلني ثالثٌ ركلةً هائلةً بين فخذيَّ سقطتُ بعدها مُتكومًا على الأرض أئنُّ من الألم، انتهتْ محاولتنا الفاشلة سريعًا بانتصار البغيض وأعوانه الكثر.

كانت الضرباتُ والركلات تنهال على جسدي المنهك من كل اتجاهٍ حتى بدأتُ أفقد الإحساس بالألم، سمعتُ صوت البغيض يصيح في أعوانه بحدَّةٍ قائلًا:

- أعيدوا وثاق هذا المارق إلى الصاري الخشبيَ!

توقفت الضربات بعد صيحة البغيض، أمسك اثنان من معاونيه بقدميَّ وشرعوا يسحبونني على الأرض حتى وصلتُ إلى مكان الصاري، أوقفوني بعنفٍ، ثم أعادوا تقييدي إليه من جديدٍ، شاهدتُ البغيض بصعوبةٍ بالغةٍ وهو يقتربُ مني، بعد أنْ كانت دمائي الغزيرة قد غطت وجهي ومنعت عني وضوح الرؤية، سمعت صوته يقول بنبرةٍ كلّها غلٌّ وكراهية:

- حسنًا أيها العبد الوضيع، تريد أن تكونَ بطلًا وتُحاول إنقاذ جاريةٍ.

ردَدْتُ عليه بصوتٍ غلبه الضعف والوهن:

ليست جاريةً إنها . . .

لم أتمَكَّن من استكمال عبارتي، بعد أنْ صفعني على وجهي بقوةٍ وقال بصوتٍ غليظٍ:

- لا تنطقْ أيها الحقير، يكفيني ما كَبَدتني من خسائرَ لن تطيق ردَّها.

حاولتُ أنْ أردَّ عليه، ردًا يُعيد لي جزءًا ولو يسيرًا من كرامتي المُنتهكة:

- أنا لم أرتكب جُرمًا، فقط كنت أحاول أنْ أدافع عن حياتي وحياة زوجتي.

احمرّ وجه التّاجر البغيض، ما لبث أنْ تلوَّن إلى السواد كالشيطان في قعر الجحيم، ثم قال بصوتٍ بدا وكأنه يخرج من قاعٍ سحيقٍ:

- زوجتك! حسنًا، الآن جاء وقتي للانتقام منك، لا توجد زوجات للعبيد أيها المأفون، أقسم أني سأجعلك عبرةً لكلٍ مَن تُسول له نفسُه أنْ يتمرَّد على سيده.

ثم التفتَ إلى معاونيه وأتباعه الذين كانوا يمشون خلفه بخنوعٍ، وقال بلهجةٍ آمرةٍ:

- أحضروا الفتاة!

أصّابني الوجومُ والذهول عقب ما قاله هذا الملعون وأنا لا أعرف ماذا يُدبَر لي مِن كيدٍ، جاء بعضُ معاونيه يسحبون سُليمة ّعلى الأرض بعنفٍ بالغ، وهي تتلوى من شدة الألم وتصرخ برعبٍ حقيقيٍّ مستنجدةً بي، حاولتُ أنْ أفكَّ قيودي ولكنّ كلَّ محاولاتي باءت بفشلٍ مريعٍ، حتى خارت قواي والبغيضُ يُراقبني بعينٍ متشفيةٍ.

أمسك البغيضُ بسوطٍ في يده ناولهَ له أحدُ أعوانه، أخذ يضرب به في الهواء مصدرًا صوت فرقعةٍ مخيفةٍ، ثم نظر إليَّ قائلًا بصوتٍ كالفحيح:

- لا بُدَّ أنك تتساءل الآن عن مصيرك، هل سأضربك بالسوط؟ هل سأضربُ فتاتك؟ هل سأقتلك؟

ثم نظر مباشرةً إلى عينيَّ، حدَّق فيهما بشهوةٍ غير طبيعيةٍ وقال:

- سوف أذيقك مرَّ العذاب، لن أقتلك سريعًا أيها الوضيع، ولكني سأجعلك تتمنى لو أنك كنت قد قابلت الموت ألف مرةٍ قبل أنْ تفعل فعلتك الحقيرة.

هوى بالسوط فجأةً على وجهي وصدري، شعرتُ وكأنَّ نيران الجحيم قد استعرت في وجنتيَّ وصدري، أحسستُ بدمائي الساخنة، وهي تنهمر من الجراح التي نتجت عن ضربة الملعون، هدأت أنفاسي قليلًا وبدأ جسدي يتعامل مع الألم قليلًا حتى اعتدتُ عليه، ابتلعت لعابي وقد اختلط بدمائي، لم أشعر بنفسي إلا وأنا أبصقُ على وجهه، ابتسمتُ هازئًا منه، بعد أنْ رأيتُ وجهه وقد تلطخ بلعابي الممتزج بالدماء.

بهدوء مُميتٍ أفزعني، مسح الرجلُ البغيضُ لعابي عن وجهه وابتسم ابتسامةً كريهةً، ثم قال بصوتٍ مخيفٍ:

- حسنًا، لا زلت مُصرًا على لعب دور البطولة، فلنرَ إلى أيِّ مدًى تستطيع أنْ تستمرّ في لعب هذا الدور.

قالها ثم أشار إلى أحد الكلاب من أعوانه إشارةً ذاتَ مغزًى، تقدَّم الكلبُ في اتجاه سُليمة التي كانت تقف بانكسارٍ على مسافةٍ مني، تحاول مداراة ما لا يستره ثوبها الفاضحُ الشفاف، عندما رأته يتقدَّم نحوها تراجعتْ إلى الخلف مُسرعةً وقد تملَّكها الفزع، إلا أنَّه باغتها وأمسكها من شعرها وسحبها بعنفٍ فوقعت على الأرض متألمةً تئنُّ وتصرخ، ظلَّ يسحبها وهي تتأوه وتصرخُ حتى جاء بها بالقرب من الرجل البغيض.

فهمتُ ما ينتوي هذا البغيضُ وكلابه أنْ يفعلوه بها، أخذتُ أتحرك كالممسوس محاولًا أنْ أفكّ قيدي، ولكني فشلت، كان القيد محكمًا، عاجلني البغيضُ بضربةٍ أخرى من سوطه فخارت قواي وعجزتُ قدماي عن حملي، أصبحتُ معلقًا من قيود ذراعيَّ لا أقوى على الوقوف.

أمَّا الكلبُ الوضيعُ فقد شرع يُمزق ثياب سُليمة بشغفٍ وعنفٍ، وهي تحاول باستماتة مقاومته، إلا أنها لم تستطع، تركها عاريةً تمامًا، ملقاةً على الأرض تحاولُ أن تُداري مِن جسدها ما تصل إليه يداها، وضع قدمه على بطنها لمنعها من الحركة، والمسكينة تتألم ولا تدري أيَّ جزء من جسدها تُداري، التفتَ إلى سيده البغيض ينتظر منه الأوامر.

نظر إليَّ الرجلُ البغيضُ بتشفٍّ، ثم التفت إلى معاونه قائلًا:

- أنت رجلٌ مطيعٌ وهذه جائزتك، فاستمتع بها كيف شئت.

صمت قليلًا ثم قال بنبرةٍ ذات مغزًى وهو ينظر مباشرةً في عينيَّ:

- الآن!

فور سماعه لأمر سيده أنزل الكلب سرواله كاشفًا عن عورته، وأنا أصيحُ بأعلى صوتي أنْ يتركها، وأتوسَّل إلى سيده الكريه أنني سوف أكون عبدًا مطيعًا، أقسمتُ له أنني سأفعل كلَّ ما يأمرني به ولن أعصي له أمرًا أبدًا، إلا أنَّ الأوان كان قد فات.

رفع الكلب قدمه عن بطن سُليمة فحاولت الهرب، لكنه نزل على الأرض فوقها بثقل جسده الضخم الكريه مكبلًا حركتها، بدأ في اغتصابها بكلِّ عنفٍ أمام الجميع، والبغيضُ يُراقب ما يحدث وقد ارتسمت على

وجهه علاماتُ النشوة، حاولت سُليمة أنْ تُقاوم، خمشت وجه الكلب بأظافرها، إلا أنه صفعها بقوةٍ فسالت الدماء من فمها، فجأةً قام البغيض بوضع قدمه على ساعدها الأيمن ليثبتها في الأرض ويمنعها من الحركة، ثم بقدمه الأخرى ثبّت ساعدها الأيسر ليقضي على مقاومتها، وهي تئنُّ وتصرخُ مُحاولةً تحرير يديْها من تحت أقدامه.

فجأةً اتسعت عيناها بشدةٍ وزادت سرعة أنفاسها، رفع البغيض قدميْه عن يديْها وهو يرقبها متعجبًا، أمسكت يدها اليمنى كتفها الأيسر وضغطت عليه بقوةٍ، وهي تصرخُ بشدةٍ، توقّف الكلب الملعون للحظات وهو ينظر إليها ببلادةٍ شديدةٍ.

تهدّج صوتي وأنا أصرخُ متوسلًا، بعد أنْ ذرفتُ الدموع الغزيرة:

- أناشدكم بالله أنْ تتوقفوا، أسألكم بكلٍ عزيز لديكم، توقفوا! لن تتحمل أكثر من ذلك، أيها الكفرة.

ظللتُ أصرخ كالمجنون بتلك العبارة، ولكنَّ الكلب رمقني بنظرةٍ ساخرةٍ ثم استمرّ في حركته مكملًا اغتصابها بحيوانيةٍ مخيفةٍ، وهي تتلوى بعنفٍ وتصرخ من الألم وعيناها تتسع أكثر وأكثر، وتنظر إلى السماء.

فجأةً ارتعش جسدها للحظاتٍ، ثم انتفض بقوةٍ وندّتْ عن فمها شهقةٌ مكتومةٌ، ثم سكنتْ حركتُها تمامًا وقد شخص بصرُها.

توقّف الكلب عن حركته وهو ينظر إليها ببلاهة، بعد أنْ شخصت عيناها وفُتح فمُها عن آخره وتصلّب جسدها، مرّت لحظاتٌ من الصمت، وأنا أجيل بصري بين سُليمة وقد سكنتْ تمامًا عن الحركة

وبين الرجال الذين تجمّعوا لرؤية ما يحدث، فجأةً تحرّك البغيضُ بسرعةٍ صارخًا في أعوانه:

- هيا، هيا إلى العمل أيها الكسالى، لا وقت لدينا نُضيعه أكثر من ذلك، كفانا ما تكبّدناه من خسارةٍ في هذا اليوم المشئوم.

استدار ناظرًا إليَّ ثم قال يُخاطب أعوانه:

- دعوها مكانها حتى الصباح ليُميع نظره برؤيتها، ثم ألقوا بجيفتها في الصحراء المجاورة.

صمت قليلًا ثم قال بعد أنْ رمقني شزرًا:

- أمّا هذا المأفون، فعندما يأتي الصباح اصلبوه حتى الموت، جزاءً له على فعلته.

قالها ثم بصق على وجهي وانصرف مغادرًا.

لم يغمض لي جفنٌ في تلك الليلة، فقد ظللت مستيقظًا أتأمّل جثمانها المسجَّى أمامي بلا حولٍ ولا قوةٍ، بعد أنْ انتهكه كلبُ البغيضِ، وددتُ لو كنتُ مكانها ميتًا، وبقِيتْ هي حيةً تُرزق، تمنيتُ أن أتمكن من مداراة سوأتها حتى لا تكون مشاعًا لأنظار المتلصصين، تخيلت أنني أمسح عن وجهها العرق والتراب، أطبِب وأداوي جراحها، أرتب لها خصلات شعرها المغبّرَ المشعَّث، التفتُّ أنظر حولي أطلب العون والمساعدة من أيَ شخص فلم أجد، انخرطت في نوبةِ بكاء شديدةٍ، بعد أنْ أحسست بالعجزِ والعار والهوان.

قُبيل الصبح بقليل جاءني نفرٌ من أعوان البغيض، بدأوا يلهون ويعبثون بجراحي، كانوا يغطونها بالملح، ظللت أصرخ مستنجدًا، بلا مجيبٍ.

عندما أشرقت شمس هذا اليوم المشئوم، وجدتهم قد كبلوني بالقيود والأصفاد على صليب خشبي، جاءوا بمطرقة ضخمة وشرعوا يدقون المسامير في ساعديَّ بعد أنْ أحكموا تثبيتي جيدًا فوق الصليب، استجمعت آخر طاقتي وقوتي، خرجتْ من فمي صرخةٌ هائلةٌ، تردَّد صداها في طرقات وحارات القاهرة من بوابة زويلة وحتى بوابة الفتوح، آآآآه!!

أحسستُ بصعوبة شديدة في التنفس وأصبتُ باختناق، شهقتُ بقوةٍ بحثًا عن الهواء، حاولتُ تحريك يديَّ طلبًا للنجاة، غير أنهما كانتا مكبلتيْن بقيدٍ متين، فتحت عينيَّ بعنفٍ، كان الطوّاف لا يزال جالسًا أمامي على ركبتيْه، مغمضًا عينيْه، ممسكًا بيديَّ.

انتزعتُ يديَّ من قبضته بعنفٍ، شرعتُ أتحسَّسهما بعد أنْ كان ألم المسماريْن الحارق لا يزال موجودًا فيهما، فتح عينيْه ببطءٍ ثم صوَّب إليَّ نظراته العميقة وقال بصوته المميز:

- هل أنتَ بخير يا شحاتة؟

صرختُ في وجهه مُحتدًّا:

- خير، والخير هاييجي منين مع كل المصايب دي؟

قال بنبرته العميقة بلهجةٍ عربيةٍ سليمةٍ:

- ألمْ يرُقْ لك ما رأيت؟

انتفضتُ واقفًا وقلتُ معترضًا:

- وهوّ في حد يعجبه الظلم والقهر ده؟

ابتسم الطوَّاف وهو يقول:

- ولكنها تصاريف القدر.

أشحتُ بيدي معترضًا وقلت:

- قَدَر؟! أمَّال فين العدل، فين الرحمة؟

فَرَدَ قامته حتى استطالت، ورمقني بنظرةٍ ارتجّت لها أوصالي ثم قال:

- ليس العدل ما يرضيك، ولكنَّ العدل ما يرضاه.

قلتُ بنبرةٍ خفَّتْ حدَّتُها:

- إزاي بس يا مولانا! طب والناس دي كلها ذنبها إيه؟

قال بصوتٍ ارتجّت له السموات السبع والأرضين:

- رُفِعَت الأقلام وجَفَّت الصحف.

قلتُ بصوتٍ خرج خافتًا:

- مش فاهم يا مولانا.

ابتسم الطوَّاف كاشفًا عن أسنانٍ كاللؤلؤ، وهو يقول:

- يا ولدي، الطريق يتَّضح لكلّ سالكٍ على قدر طاقته.

ثم أطرق رأسه قليلًا، بدا كأنه قد سرح في الملكوت الإلهي وهو يقول بنبرته العميقة:

- يا بُنيَّ، لقد احترق مئات الألوف من الملائكة حتى أضاء مصباحٌ لآدم، وخلت آلاف الأجسام من الروح حتى أصبح نوحٌ نجارا، وهجم العديد من البعوض على البشر حتى سما إبراهيم فوق الجميع، وسُفك دم العديد من الأطفال حتى أصبح كليم الله صاحب رؤيا، وعقد مئات الألوف من البشر الزنار حتى أصبح عيسى محرم الأسرار، واضطربت مئات الألوف من الأرواح والقلوب حتى أدرك محمد ذات ليلة المعراج.

أنهى عبارته السابقة ثم جلس على ركبتيْه مجددًا باسطًا يديه أمامه، ثم قال باسمًا:

- أما زلت ترغب في استكمال رحلتك؟

أطرقتُ مفكرًا لثوانٍ قليلة، هززتُ رأسي مستسلمًا له ثم جلست على ركبتيَّ أمامه، أغمضت عينيَّ بعد أنْ أسلمت يديَّ بين قبضتيْه.

***

الشريطُ الرابعُ

«عندما تختلفُ المسمَّياتُ،
وتتشابهُ الأفعال...
فاعلمْ بأنَّ الجوهرَ واحدٌ»

(٥)

كنتُ في هذا الصباح أُعاني من دوارٍ شديدٍ، مُتأثرًا بالأدويةِ المهدئة التي وصفها لي الدكتور حسين بسببِ نوبةِ الهيستيريا العنيفةِ التي اعترتْني أمس، بعد أن انتهيتُ من جلستي معه، انتبهتُ على صوت أشرف عامل التمريض، وهو يُبلغني بأنَّ الدكتور حسين ينتظرني في غرفته.

حينما وصلتُ كان الدكتور حسين منهمكًا بالكتابة في مفكرته الصغيرة، بعد أنْ أصبحتْ لا تُفارقه على الإطلاق، كان مُستغرقًا في الكتابة حتى إنه لم يتنبه لدخولي إلى الغرفة، بعد فترةٍ ليست بالقليلة، تنحنحتُ برفقٍ فرفعَ رأسَه عن المفكرة مُنتبهًا وموجهًا نظرَه صوْبي، أشار إليَّ بالجلوس على ذات المقعد الجلديَ الوثير، ثمّ أشعل سيجارةً ونفث دخانها بهدوء، قام من خلف مكتبه حتى اقتربَ من الأريكة المجاورة لمقعدي، نظرَ إلى ملامح وجهي يتفرَّس فيها قليلًا، ثم جلس وقال بعد فترةٍ من الصمت:

- إيه يا شحاتة؟ أتمنى تكون بقيت أهدأ دلوقتي!

أومأتُ برأسي موافقًا دون أنْ أتكلم، سحب نفسًا عميقًا من سيجارته، ثم قال بلهجةٍ شممتُ فيها رائحة السخرية:

- في الحقيقة، أنا قلقت عليك إمبارح جدًّا، يا راجل دا أنا صدَّقت إن إللي حصل لك ده كان بجد.

نظرتُ إليه لبرهةٍ بعينٍ فاحصةٍ، ثم قلتُ بنبرةٍ خلتْ من أيَ انفعالٍ:

- هو حضرتك فاكر إنَّ أنا بأمثل عليك؟

ابتَسم الدكتور حسين ابتَسامةً مصطنعةً، ثم قال:

- لأ، أنا ما قلتش كده، بس الحقيقة الحالة إللي جاتلك إمبارح دي أنا محتار في تشخيصها.

أطرقتُ رأسي إلى الأرض، وقلت مُتسائلًا:

- ليه؟ واحد بني آدم طبيعي أعصابه ماستحملتش الضغط العصبي الزيادة، فانهار.

لمعتْ عيناه بشدةٍ ورماني بنظرةٍ مُتصيَدةٍ، ثم قال:

- أهو شفت؟ أديك قلت بنفسك يا شحاتة، واحد بني آدم طبيعي، يبقى إيه بقى لزوم الحواديت الكتير إللي بتعملها؟!

هززتُ رأسي بأسفٍ، وقلتُ باستسلام:

- ولا حاجة، ولا ليه أي لازمة يا دكتور.

بعد أنْ أنهيتُ عبارتي السابقة ساد الصمتُ أجواء الغرفة من جديدٍ، حتى استطردتُ قائلًا بلهجةٍ رسميةٍ:

- هوا حضرتك كنت عاوزني في حاجة النها ردة؟

أسند ظهره على الأريكة، ثم قال:

- أيوه طبعًا، هوا أنا لسه عرفت منك حاجة، عاوزك تحكي لي عن أمجد، بعد لما ساب البيت حصل إيه.

تأملتُه مليًا ثم قلت:

- بس كده؟ هوا ده إللي حضرتك عايز تعرفه؟ حاضر.

انفرجتْ أساريرُه، ثم قال وهو يضغطُ على زرِ تشغيل جهاز التسجيل:

- هايل يا شحاتة، لازم تعرف إننا مافيش قدامنا وقت كتير، مش فاضل غير أسبوع واحد بس علشان أقدم تقريري، وطبعًا لازم تقريري يكون مضبوط ما يخرش المية.

أومأتُ برأسي قائلًا:

- حاضر يا دكتور، حاضر.

أغمضتُ عينيَّ، بدأت أسترجعُ ما قد كان بعد أنْ غادر أمجد البيت بلا رجعةٍ.

***

مرَّتْ سبعُ ليالٍ بالتمام والكمال منذ آخر حديثٍ جمعني بأمجد، مرَّت عليَّ كأنها سبع سنواتٍ عجافٍ، لم أكن مُعتادًا على الابتعاد عن أبنائي لأكثر من ساعات العمل، أو فترة تواجدهم خارج البيت طلبًا للعلم، لذا فقد كانت تلك الليالي شديدةَ الصعوبة، جافاني فيها النومُ ولم يغمض لي جفنٌ خلالها.

كنتُ منذ ما حدث، أقفُ في الشرفة وحيدًا ساعاتٍ طويلة حتى تشرق الشمس، أبتهلُ وأتضرعُ، أنتظرُ عودة أمجد طامعًا في كرم المولى، كما أكرم يعقوب بعودة يوسف الصديق، أمسيتُ أقضي هذه الساعات الطوال، مُتطلعًا إلى المارَّة بوجوم، غير عابئٍ بالهواء البارد الذي يلفح وجهي، في هذه الليلة القارصة من ليالي شهر يناير القاهرية، كنتُ أحاول التشاغل بالمراقبة عن التفكير في المصيبة التي حلَّتْ بي، دخَّنتُ السجائر بشراهة لم أعتدْ عليها من قبل، فلا أكاد أطفئ واحدة حتى أكون قد أشعلتُ أخرى.

بحثتُ عنه كثيرًا، لكن دون جدوى، ذهبتُ بدايةً إلى الأسطى فتحي قورة، آملًا أن يكونَ أمجد مع ابنه علاء، إلا أنه فاجأني بأنَّ ابنه قد اختفى هو الآخر في نفس التوقيت، بدون سابق إنذارٍ، أخبرني بلا مبالاةٍ وهو ينفخ دخان الشيشة، أنه يظنُّ أنهما على الأرجح قد سافرا برفقة بعض من أصدقائهم لقضاء بعض الوقت بعيدًا عن توتُّر المذاكرة، خاصةً أنَّ امتحانات منتصف العام على الأبواب، شكرتُه على مضض، وأنا ألعنُ نفسي سرًّا على مجيئي للحديثِ مع هذا الرجل المستهتر، الذي لا يهتم بمصير أبنائه.

كانتْ مقابلتي مع فتحي قورة قد أيقظتْ بداخلي نيران الخوف والقلق، فلم يكنْ ما راه محتملًا من قيام أمجد بالسفر برفقة أصدقائه أمرًا مُقنعًا بالنسبة لي، فأمجد ليس من نوعية هذا الشباب المستهتر الذي يُسافر دون الحصول على موافقة أهله، عادت الهواجسُ تعصفُ برأسي مجددًا، بعد أنْ وسوستْ لي نفسي بأنَّه من المحتمل أنْ يفعل ذلك بسبب ما حدث بيننا من خلافٍ، كلا، مستحيلٌ أن يُسافر أمجد دون إذني، احتفظتُ بمخاوفي لنفسي، ولم أشركْ سلوى فيها .

ذهبتُ في الصباح التالي إلى الجامعة، عسى أنْ ألتقي بأحد زملائه في الكلية فيكون لديه الجواب الشافي، إلَّا أنَّ أملي لم يتحقق، فلم يكنْ أحدٌ من زملائه يعلم مكانه، أخبرني أحدُهم أنَّ أمجد متغيبٌ عن الجامعة، ولا يحضر محاضراته، استبدَّ بي القلق بعد أنْ أغلقتْ في وجهي كل السبل، ولم يَعُدْ أمامي سوى التفكير في أمورٍ حاولتُ أنْ أستبعدها من عقلي.

تورَّمتْ قدماي ولم تفتُر عزيمتي، بعد أنْ بحثت عنه في كل الأماكن التي يُحتمل تواجدُه فيها ، ذهبتُ إلى أقسام الشرطة المجاورة، توجَّهت إلى مديرية الأمن، فتَّشت في جميع المستشفيات، بلا فائدةٍ، لقد اختفى أمجد وكأنه لم يكنْ له وجودٌ من قبل.

جاءتني بارقةُ أملٍ، أضاءت بصيصًا بسيطًا من الضوء في ظلمة نفسي المُعتِمة، بعد أنْ فكرت في أنْ أصطحب أكرم إلى المقهى الذي ذهب إليه مع أمجد ليقابلا أصدقاءه، ولكنْ باء سعيُنا بالفشل، وعُدنا بخُفَّيْ حُنينٍ نجرُّ أذيال الخيبة، بعد أنْ أخبرَنا روَّاد المقهى بأنَّ الشباب لم يحضروا منذ فترةٍ، إلا أنَّ نظرةً ما لمحتها في عين الفتى الذي يُقدم

المشروبات جعلتني أتوجسُ وأتشكك، اقتربتُ منه سائلًا عن أمجد ورفاقه، إلا أنَّه تلعثم وأجاب بارتباكٍ بأنه لم يرَ أيًا منهم منذ فترة، كنت موقنًا في داخلي بأنه يكذب، ولكنْ ليس في يدي حيلةٌ، لابد أنْ أكذب حدسي وأصدقه.

صرتُ بعد ذلك أتغيَّب عن عملي، أذرعِ الشوارعِ وأجوب الطرقات بغير هدًى سيرًا على الأقدام بحثًا عنه، أصبحتُ أفتشُ عنه بين وجوه الناس في الشوارع والميادين، لكن دون جدوى.

كان الوضعُ قد أصبح مؤلمًا قاسيًا في البيت، بعد أنْ خيَّم الصمت والكآبةُ على أهله وران على قلوبنا حُزنٌ مقيمٌ، أصبحنا نعيشُ في حداد دائم، غدت سلوى تتحاشى محادثتي وتتجنب النظر إليَّ، إلا عند الضَّرورة، منذ أنْ غادر أمجد البيت أصبح المصحفُ لا يُفارقِ يدها، كنت أعلم أنها تحمِّلني المسئوليةِ عن اختفاء أمجد، كنت أشاركها هذا الشعور، وكيف لا أكون مسئولًا وأنا ربُّ البيت؟!

- تحب أحضر لك العشا يا بو أمجد؟

أفَقْتُ من دوَّامة أفكاري على صوت سلوى وهي تقول هذه العبارة ببرود.

لأول مرة أشعرُ أنها تُخاطبني من وراء قلبها، كانت عبارتها تحمل لومًا وتقريعًا مهذبًا، بعد أن نادتني بلقب (أبو أمجد).

نظرتُ إلى عينيْها طويلًا متأملًا، عسى أنْ تلتمسَ لي عذرًا، لكنها حدجتني بنظرةٍ جامدةٍ خاليةٍ من أيَ أثرٍ للحياة، كانت المسكينة قد فقدت الكثير من وزنها، وتورَّمت عيناها من كثرة البكاء حزنًا على

اختفاء فلذة كبدها، لم تنتظر مني ردًا بعد أنْ طال صمتي فاستدارت مُغادرةً الغرفة، إلا أنني استوقفتها وأنا أحاول أنْ أذيب الحواجز الجليدية التي أصبحت تفصل بيننا، وقلتُ:

- مفيش أخبار عن أمجد ؟

التفَتتْ ناحيتي بحدَّةٍ، ورمتني بنظرةٍ مُستعرةٍ بلهيب اللوعة على فراق ابنها الحبيب، ثم قالت بغضبٍ مكتومٍ:

- أنت بتسألني أنا ؟ !

تلعثمت الحروفُ فوق لساني وارتبكتُ، بعد أنْ أيقنتُ بسخافة سؤالي فقلتُ على استحياء:

- لأ، أنا قصدي محدش من الجيران عرف حاجة؟

أطبقت فمها ولم تُجبْ، اكتفت بالبكاء صامتةً بعد أن سالت الدموع من عينيْها، ووددتُ لو أخذتُها بين ذراعيَّ مُربتًا عليها ومواسيًا لها، لكنني كنتُ أعرف مدى ضيقها وعنادها، ففضّلت عدم المجازفة واستطردتُ في الحديث:

- أنا مش عارف الواد ده راح فين، أنا لفّيت عليه في كل حتة، دا أنا حتى رحت للأسطى فتحي يمكن يكون بايت عندهم، لكن لقيت الواد علاء ابنه كمان بايت بره البيت وميعرفوش عنه حاجة.

ظلَّتْ على حالها ساكنةً ملتزمةً البكاء بصمتٍ، وهي تنظر لي بعينيْن مملوءتيْن باللوم والعتاب، لم أحتمل نظراتها اللوّامة أكثر من ذلك، فصحتُ بها قائلًا:

- يعني كنتي عاوزاني أعمل إيه؟ أسيبه يودي روحه في مصيبة؟ مش دا دوري إني أحذره لو كان ماشي في سكةٍ غلط؟!

علا صوتُها لأول مرةٍ منذ زواجنا، حينما احتدَّت عليَّ قائلة بغضبٍ:

- لكن مش دورك إنك تخليه يسيب البيت.

أجبتُ وقد تملَّكني شعورٌ مقيتٌ بالذنب:

- أنا ماكانش قصدي إنه يسيب البيت، أنا كنت عاوز أهدده بس.

أشاحت بيدها وقرنت حاجبيها بغضبٍ، ثم صاحت قائلةً:

- يا سلام! ما أنت عارف ابنك كويس، كرامته فوق كل شيء، وبعدين ده بقاله سبع أيام بايت بره وأنت حتى مش عارف هو فين.

بُهِتُّ من لهجتها الهجومية في الحديث، إلا أنني التمستُ لها العذر فقلتُ مهدئًا من حدَّة الحوار:

- خلاص، إن شاء الله بكرا من بدري هانزل أدور عليه تاني، يمكن ربنا يسهلها وألاقيه.

رمتني بنظرةٍ مستهزئة، ثم قالت بقسوةٍ لم أعهدها فيها من قبل:

- بُكرا!! واحد غيرك ما كانش رجع البيت إلا ومعاه ابنه، مش واقف في البلكونة عمَّال تشرب سجاير.

لم أستطع أنْ أتمالك أعصابي بعد تلك الإهانة فصحتُ فيها غاضبًا:

- بقول لك إيه أنا مش ناقصك، قلت لك بكرا ربنا يعدلها .

أشاحت بوجهها بغضب، واستدارت مُغادِرةً إلى غرفة النوم وهي تقول بصوتٍ حرصتْ أن أسمعه واضحًا:

- هتفضل طول عمرك سلبي، حسبي الله ونعم الوكيل فيك يا شيخ .

أنهتْ عبارتها السابقة ثم أغلقت باب غرفة النوم خلفها بعنف شديد، تسمَّرتُ في مكاني بعد أنْ آلمتني كلماتُها ألمًا شديدًا، هل أنا حقًّا سلبيٌّ؟ لم أفكر في نفسي يومًا بهذا الشكل، حقًّا كنت دائمًا ما أحرص على البعد عن المشكلات، لكنَّ ذلك كان نابعًا من حرصي على سلامة أفراد أسرتي في ظلِّ المجتمع الذي نحيا فيه، لقد عاد مجتمعنا المعاصر، بعد أنْ زالت عنه قشرة الحضارة الرقيقة التي كان يلتحفُ بها، إلى صورته البدائية الأولَى، صار القويُّ فيه يأكل الضعيف، أصبح الأمينُ فيه خائنًا، والخائنُ فيه مؤتمَنًا، رحماك يا إلهي! لقد أصبحنا في آخر الزمان.

كانت الوقتُ قد تجاوز منتصف الليل بقليل، عندما أخرجني رنين هاتفي المحمول من دوَّامات الأفكار ومتاهات الأحزان التي أحكمتْ حصارها حولي، هرعتُ من فوري للردِ على هذه المكالمة غير المتوقعة، وقد تمسَّكت بأمل واهٍ بأنْ يكون فيها الخلاص، لم أكنْ معتادًا على تلقّي مكالماتٍ في مثل هذا التوقيت المتأخر، تجاوزتُ حيرتي وقلقي، أجبتُ:

- آلو، مين معايا؟

جاءني صوت شابٌ من الطرف الآخر:

- من فضلك، ممكن أكلم الأستاذ شحاتة المصري.

- أنا شحاتة، مين حضرتك؟

- أيوه يا عمي، أنا أحمد زميل أمجد ابن حضرتك.

كاد قلبي يتوقَّف من الفرح، فواصلتُ الحديث قائلًا بلهفةٍ بالغةٍ:

- أهلًا يا بني، أنت معاه في الكلية؟

- لا يا عمي لكن أنا وأمجد صحاب من زمان.

- طب يا بني متعرفش هوا فين؟ دا بقاله سبع أيام ما رجعش البيت.

- أنا عارف يا عمي، هوا حكى لي على كل حاجة.

تهللت أساريري وانشرح صدري، بعد أن استراح قلبي إلى أنَّ أمجد متواجدٌ برفقة زميله المتحدث، فقلتُ بحروفٍ خرجت متلهفة:

- يعني هوا معاك دلوقتي؟ الحمد لله، طيب هات اكلمه، ولَّا اقولك خليه يرجع، أنا خلاص مش زعلان منه.

- ....

لم يردَّ أحمد، كان صمته كفيلًا بأنْ يُفجر بداخلي حمم الخوف وبراكين القلق من جديدٍ، فقلت بترقُّبٍ:

- إيه يا بني، ما بتردش عليا ليه؟

ردَّ بنبرةٍ مرتعشةٍ، أحسستُ معها برجفةٍ شديدةٍ في صدري:

- أيوه يا عمي.

سألته وقد نهش التوترُ قلبي:

- خير يا بني في إيه؟ قلقتني!

- الحقيقة يا عمي، أمجد اتقبض عليه.

نزلتْ عليَّ عبارتُه الأخيرةُ كالصاعقة، تسمَّرتُ في مكاني جامدًا بلا حراكٍ، دارت الدنيا من حولي، لم أعد قادرًا على التركيز ومواصلة الحوار، كان كلّ ما يشغلني في تلك اللحظة هو مصير أمجد، وماذا حلَّ به؟ لا بُدَّ أنها تلك المنشورات اللعينة التي كان يضعها في حقيبة ظهره، فكرتُ في ذلك وأنا أتخيله مسحولًا يتمُّ ضربُه وتعذيبُه، اللعنة! لا بدَّ أنْ أتصرَّف سريعًا.

بدأ ذهني يستعيدُ عافيته ويعمل بسرعةٍ شديدة، يجب أنْ أَعلم مكان احتجازه أولًا حتى أستطيعَ التصرف، من الممكنٍ أنْ أعترفَ بأنني أنا صاحب هذه المنشورات، لا يهمُّ ما يحدث لي بعد ذلك، المهم أنْ يخرجَ أمجد سالمًا ويعودَ إلى أحضان أمه، يا الله! ماذا سأقول لها؟! كان عقلي يعملُ بسرعةٍ بالغةٍ وتوترٍ شديدٍ، حتى أحسستُ أنه قد أوشك على التوقف أو الانهيار.

أنهيتُ المكالمةَ معه، بعد أن اتفقنا على اللقاء فورًا عند جامعة القاهرة بالقربِ من مديرية أمنِ الجيزة، عقب أنْ أخبرني أنهم يحتجزون أمجد هناك، أخبرني أنهم قد تمّ القبضُ عليهم بقهوة وسط البلد التي كانوا قد اعتادوا اللقاء فيها، أخبرني أيضًا أنَّ أحدَ زملائهم كان هو السبب في معرفة السلطات بلقاءاتهم، بعد أنْ تبيّن أنَّ له انتماءاتٍ وتوجهاتٍ دينيةً سريةً، حيثُ كان عضوًا بإحدى أسَرِ جماعة الإخوانِ المسلمين المحظورة، فأخبر أسرته بما يجري في اجتماعاتهم ولقاءاتهم، إلا أنَّ أحد أعضائها كان على عَلاقةٍ بالأجهزةِ الأمنيةِ فوشى بهم.

أحسستُ بمرارةٍ شديدةٍ في حلقي واجتاحتني رغبةٌ عارمة في البكاء، غير أنني تمالكتُ نفسي، توجَّهتُ كالمنوَّم مغناطيسيًّا إلى غرفة النوم، بدأتُ أرتدي ملابسي على عجل، وحرصتُ على الحركة بهدوء شديدٍ حتى لا أوقظ سلوى، إلا أنها لم تكن قد استسلمت للنوم بعد، فأضاءت مصباحًا خافتًا بجانب الفراش وقالت بنبرةٍ قلقةٍ بعد أن حدجتني بنظراتٍ متشككةٍ:

– في إيه يا شحاتة؟ بتلبس هدومك ورايح على فين في الوقت ده؟

استدرت مُشيحًا بوجهي بعيدًا عن مجال رؤيتها، حتى لا ترى دموعي وقد ترقرقت في عينيَّ، ثم قلتُ متشاغلًا بارتداء حذائي:

– مفيش حاجة، نازل مشوار ضروري، نامي إنتي يا سلوى.

اعتدلتْ على السرير جالسةً، ثم سألتْ بنبرةٍ ازداد فيها القلق:

– مشوار إيه إللي في الساعة المتأخرة دي؟

قلتُ متبرمًا باقتضابٍ، وأنا أحاولُ التغلُّب على غُصَّةٍ أصابت حلقي:

– مش وقته يا سلوى، مش وقته.

بدا على صوتِها الانزعاجُ وهي تقول:

– في إيه يا خويا، قلقتني؟

رقَّ قلبي لحالها، أيقنتُ أنه لا مجال للمراوغة أكثر من ذلك، استدرتُ إليها، وقلتُ بصوتٍ خافتٍ خرج متهدجًا رغمًا عني:

- ابنك يا سلوى.

خبطت صدرها بيدها، بانت على وجهها علاماتُ الجزع وقالت بصوتٍ ملتاع:

- ما له؟ كفى اللهُ الشر!

أطرقتُ رأسي إلى الأسفل بعد أنْ فرَّت الدموعُ من عينيَّ، وقلتُ بصوتٍ أسيفٍ:

- اتقبض عليه.

***

توقفتُ عن استكمال الحكاية، عقب أنْ ضغطتُ بيدي على زرِ إيقاف جهاز التسجيل، رفع الدكتور حسين حاجبيْه وارتسمتْ على ملامحه علاماتُ الدهشة البالغة، إلا أنه عدَّل من وضْع نظارته الطبية وهو يرمقني من خلفها ثم قال بلهجةٍ شممتُ فيها نفاد صبره:

- إيه يا شحاتة، خير وقفت التسجيل ليه؟

ارتسمت على شفتيَّ ابتسامةٌ واسعةٌ، اعتّدلتُ في جلستي واضعًا ساقًا فوق الأخرى ثم قلتُ بهدوء مستفزٍّ:

- أبدًا، أصلي الحقيقة تعبت شوية.

انتفض الدكتور حسين واقفًا وهو يقولُ غاضبًا:

- بقول لك إيه، إنت عارف كويس إن إحنا معندناش وقت نضيعه وبعدين...

قاطعتُه بهدوء:

- الله ينور علَيك، إحنا معندناش وقت.

بانت عليه أمارات الحيرة، فقال مُستفهمًا:

- يعني إيه؟ مش فاهم.

رمقتُه باستفزازٍ، ثم قلتُ:

- يعني زي ما إنت عاوز تكمل حكاية أمجد، أنا كمان عاوز أكمل لك حكايتي.

جلس الدكتور حسين على الأريكة مجددًا، دوَّن بعضَ الملاحظات في مفكرته ثم رفع رأسه صوْبي، وقال:

- يا شحاتة أنا مش فاهم، أنت ليه مُصرّ إنك تكمل حكاياتك الغريبة دي؟

شردتُ بنظري قليلًا، ثم قلتُ بحزنٍ:

- يمكن الناس تقدر تعرف وتفهم.

رمقني الدكتور حسين بغيظٍ، ثم قال:

- ماشي يا شحاتة، ممكن من فضلك تكمل حكايتك!

قالها ثم ضغط مشغلًا جهاز التسجيل، أغمضتُ عينيَّ متذكرًا ما كان معي في آخر الرحلة.

***

كنتُ في هذه الليلة الباردة من ليالي شتاء القاهرة القارص، جالسًا في الغرفة العلوية من بيتنا بالصنادقية، كانت هذه الغرفة هي أكثر الغرف دفئًا في البيت، لذلك فقد أطلقنا عليها اسم الغرفة الشتوية، كان لا يحلو لأبي العمل إلا فيها، لذا فقد احتفظ فيها بمخطوطاته وكتبه القيمة، كنتُ أعاني منذ يومين من نوبة سعالٍ شديدةٍ بعد أنْ أعياني المرض، من كثرة التنقل بين بيوت أبي هربًا من بطش محمد علي وجبروته.

عصفت برأسي الأفكارُ بعد أن اتكأتُ على إحدى الأرائك الحريريةِ الوثيرةِ التي تفترشُ أرضيةَ الغرفة، أمسكتُ بيدي كوبًا نحاسيًا تتصاعدُ منه أبخرةُ شرابِ العسل بالزنجبيل أتلمسُ فيها الدفء والشفاء، أخذتُ أنظرُ إلى الدولاب الخشبيَ الضخم الذي يُزيَن كامل الجدار الشرقيَ للغرفة، وقد امتلأ عن آخره بالمخطوطاتِ والكتب النفيسةِ التي أفنى فيها أبي عمره، فقد كان- أمدَّ الله في عمره ومتَّعه بالصحة- قد وهب نفسه لتدوين تاريخ مصر الكامل، بعد أن عاش فيها فتراتٍ مضطربةً كثيرةً تقلَّب خلالها حُكامٌ كثرٌ على مصر، ويا ليته لم يفعل!

فلولا هذا ما كنا في هذه الورطة اللعينة التي نُعاني منها ولا نجدُ لها مخرجًا، بعد أنْ طلب إليه محمد علي تأليفَ كتابٍ يُعدد فيه مناقبه ويمدح أفعاله، إلَّا أنَّ أبي رفض رفضًا قاطعًا، ممَّا ألَّب عليه غضب الباشا حتى إنه قد هدده أكثر من مرةٍ، إلا أنَّ أبي لم يلتفتْ لتهديده، حتى قام محمد علي بطلبي في الجهادية، فصرتُ أفرُّ هاربًا ما بين بيت الصنادقية وبيت بولاق، بعد أن سافر أبي مُستكملًا رحلاته لتدوين أخبار البلاد والعباد، وتركني مع خادمه الأمين جعفر النوبي، ومساعده وكاتبه الأول الشيخ محمد الأزهري.

لا أعلم ما تلك الجهاديةُ البغيضةُ التي ترتّب عليها تجنيدُ المصريين قسرًا في الجيش؟ فبعد أنْ رأى محمد علي الغدر في عيون العسكر الألبان، وجد أنه لن يتمكنَ من الاعتماد عليهم بعد الآن فقرَّر تجنيد المصريين جبرًا، اقتحم عساكرُه وكشّافوه جميع القرى والمديريات، خطفوا الفلاحين وكبّلوهم بالسلاسل والأغلال ثم ساقوهم كالعبيد إلى معسكرات التجنيد، من أجل إرسالهم في الحروب لتحقيق أحلامه التوسعية على أنقاض جماجمهم.

لم يتقبّل المصريون تلك الفكرة المُبتدعة التي لم تُفرض عليهم من قبل. فأصبحوا يُصيبون أجسامهم بالعاهاتِ عن طريق قطع بعض أصابعهم أو وضع سمَ فئران في عيونهم، حتى لا يتمكن محمد علي من الاستفادة منهم في التجنيد.

إلا أنَّه ردَّ عليهم بإنشاء فرقة أسماها (فرقة المعاقين) وضع فيها الأفرادَ غير المكتملين جسديًا، كانَ الغرضُ منها هو القضاء على أمل المصريين في الهروب من التجنيد، وإبلاغهم برسالةٍ مفادها أنَّ تجنيدَهم سيتم سواءً كانوا معافين أو معاقين.

سرى الدفءُ في جسدي وهدأ السعالُ قليلًا بعد أن رشفتُ رشفةً من شراب العسل الدافئ، أخذتُ أتساءلُ مُتعجبًا، لماذا أصرّ أبي على كسب عداوة محمد علي؟ لماذا لم يكتبْ له ما يُريد؟ لعلنا كنا الآن من المقرّبين منه، إلا أنني توصَّلتُ إلى أنَّ نشأته كان لها أكبر الأثر في تكوين شخصيته، شخصية عبد الرحمن الجبرتي.

فأبي قد وُلد ونشأ وترعرع في بيت والده العامر بالعلم والدين والأدب، فجدي هو الشيخ المؤرخ «حسن»، كان من نبهاء وأعلام علماء

الأزهر الشريف في عصره، كان -رحمه الله- على جانب كبير من الثراء، فكانت له ثلاثةُ بيوتٍ في القاهرة «بالصنادقية وعلى النيل ببولاق وبمصر العتيقة»، كانت مكتبتُه عامرةً بالكتب القيّمة والمخطوطات النادرة، كما كانت دُوره آهلةً في كلِ وقتٍ بالعلماء والمجاورين ومنهم «سليمان الحلبي».

كان أبي هو الابنَ الوحيدَ الذي عاش لوالده من أبنائه الذكور، فاهتمَّ به كثيرًا بعد أنْ لمس فيه الذكاء والفهم ورجاحة العقل؛ فقد حفظ القرآن الكريم كاملًا وهو في سن الحادية عشرة، كما كان يحفظ الكثير من الأحاديث والروايات والأخبار التي كان يَقُصُّها جدي على المشايخ والعلماء الذين كانوا دائمي التردُّد على منزله، كما اختصَّه جدي بأنْ يروي له أحداثَ العصر وأخبار الولاة والعلماء الذين عرفوه وعرفهم، ومن هنا نشأ لديه ولعُه بتدوين الأخبار.

نما لديه هذا الشغفُ بالتدوين بعد أنْ تُوفي جدي وترك له أموالًا طائلةً وصداقاتٍ عديدةً، أكثرها مع المشايخ والمريدين والأمراء والحكام، واصل أبي دراسته إلى أنْ تخرَّج في الأزهر بعد أنْ درس علوم الفقه واللغة، ثم عكف على خزانةِ والده يستزيد من علوم الفلك والحساب والهندسة وغير ذلك.

لا زلتُ أذكرُ أنه قد أخبرني ذات يوم، أنه حينما أصبحت لديه حلقةٌ للتدريس، كما هي عادة علماء الأزهرً وقد بدأ يُعلم أخبار العلماء وأخلاقهم، أخبرني أنه لا يشعرُ بالرضا عن أعمال وأخلاق زملائه، فقد أخذ عليهم عدة مآخذَ منها افتتانُهم بالدنيا وعدم إخلاصهم للعلم وحرصهم على جمع الأموال، واستخدامهم لكثيرٍ من الخدم والمقدمين

والأعوان، ومخاصماتهم الكثيرة مع بعضهم بعضًا، ومن هنا تولدت عنده جذورُ الإدراك والفهم لأخلاق الرجال، وطبيعة المشكلات التي يمرُّون بها في تلك الفترة.

كما أخبرني بأنَّ رغبته في المعرفة والاطلاع كانت هي الدافع له لمواصلة أسفاره، وقد كان هذا أحد الأسباب الرئيسية التي مكنته من تأليف كتابه الكبير الذي جمع ودوَّن فيه تاريخ مصر الكامل، بعد أن انشغل به لمدةٍ جاوزت الخمسة عشر عامًا.

تنبَّهت من شرودي على صوت جعفر النوبيَ وهو يقول:

- معذرةً سيدي خليل، ولكنْ يجب أنْ نُخبت أنوار القناديل، فالوقت قد تأخَّر وأخشى أنْ يرتابَ أحدُ أتباع الباشا من أنَّ في البيت أحدًا.

التفتُّ إليه، وقلتُ مبتسمًا:

- لا تقلقْ يا جعفر، فأنا هنا منذ يومين ولم يعلم أحدٌ بقدومي.

- معذرةً يا سيدي، ولكنَّ سيدي الشيخ عبد الرحمن قد أمرني بأن أتوخَّى بالغ الحذر والحيطة. قالها جعفر وهو مطأطئ الرأس.

أومأتُ برأسي، ثم قلتُ:

- حسنًا، أطفئ القناديل، ولكن اتركْ لي واحدًا بقربي حتى أتمكنَ من القراءة.

ثم أشرتُ بيدي إلى دولاب الكتب الضخم، وقلتُ:

- وأحضرْ لي كتاب عجائب الآثار في التراجم والأخبار.

اتَّسعت حدقتا جعفر الواسعتان عن آخرهما بدهشةٍ وهو يقولُ بنبرةٍ لاح فيها الخجل:

- ولكنك يا سيدي لا تُحب القراءة!

تأملتُه مليًا من مقدمة رأسه حتى أخمص قدميْه، ثم قلتُ له بصرامةٍ:

- لعلك تقصد خلافي الدائم مع أبي، وحرصه على أنْ أقرأ كثيرًا؟

أطرق جعفر رأسه خجلًا، وقال:

- أعتذرُ يا سيدي لتطفُّلي!

هززتُ رأسي وأنا أقول بنبرةٍ حزينةٍ:

- لا عليكِ يا جعفر، لقد كنتُ مخطئًا، كان ينبغي عليَّ أنْ أُكثِر من القراءة وأنْ أُكمل دراسة الطب كما كان يأمل أبي.

نظرتُ إليه، كان لا يزال صامتًا مصوبًا بصره إلى الأرض، فقلتُ مُتصنعًا المرح:

- لكنني مع ذلك نجحت في التجارة، وأمسكتُ له إدارة دكان الأقمشة وأبليتُ في ذلك بلاءً حسنًا.

تهللت أساريرُه، وقال:

- بالفعل يا سيدي، لقد أصبح سيدي الشيخ يعتمدُ عليك اعتمادًا كليًا في إدارة شئون الدكان.

ابتسمتُ له قائلًا:

- حسنًا يا جعفر، أحضرْ لي الكتاب واخلدْ أنت للنوم!

تنحنح جعفر وهو يقول:

- لن أنامَ قبل أنْ أطمئنَّ إلى نومك.

ناولني جعفر الكتابَ بعد أنْ أنهى عبارته الأخيرة، ثم أخذ يُطفئ أنوار القناديل الزيتية الموزعة في أرجاء الغرفة، ولم يُبقِ إلّا على أحدها بالقرب من مجلسي.

رشفتُ رشفةً أخرى من شراب العسل، ثم أمسكتُ بدفتيْ الكتابِ أقلِّب بين صفحاته، وجدتُ أبي قد استهلَّ كتابه بقوله تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ}

ارتسمتْ على شفتيَّ ابتسامةٌ باهتةٌ بعد أنْ تنبَّهتُ إلى مراد أبي من الاستدلال بتلك الآية الكريمة في بدء تدوينه، فقد كانت البلادُ في هذه الفترةِ خاضعةً للسلطانِ العثماني، وانتشر فيها الظلمُ والفسادُ، بعد أنْ نشب الخلافُ بين أمراء المماليك واستشرى فسادُهم وطمعُهم وتكالبهم على السلطة، فأصبحت مصرُ مُقسمةً بين مراد بك وإبراهيم بك، مراد بك كان مسئولًا عن شئون الجيش، وإبراهيم بك شيخًا للبلد مسئولًا عن الأمورِ الإدارية.

سمعتُ أبي ذات مرةٍ يقول إنَّ حكمهما المشترك كان نكبةً ووبالًا، بل كان من أعظم الأسبابِ في خراب الأقاليم المصرية.

في هذا الوقت الذي كانت فيه البلادُ تئنُّ وتصرخُ من بطش وظلم أمرائها، كان الفرنسيسُ يستعدُّون لتوسيعِ رقعةِ إمبراطوريتهم تحت قيادة

كبيرهم ضاري عسكر بونابرته، إلا أن أهلَ الإسكندرية وعلى رأسهم محمد كريَم أثبتوا شجاعةً وبسالةً نادرةً في الدفاع عن مدينتهم.

رحم الله محمد كُريَم! لطالما سمعتُ أبي يذكره بكل خير ويقول عنه إنه كان بطلًا عظيمًا، وإنَّ ذلك كان سببًا في إعجاب بونابرته به، فأطلقَ سراحه، وتظاهر بإكرامه وردَّ إليه سيفه، وأبقاه حاكمًا للإسكندرية.

لازلتُ أذكرُ هذه الأيامَ العصيبة التي عشنا فيها أوقاتًا من الرعب والهلع، خوفًا من بطش الفرنسيس، خاصة عند اقترابهم من القاهرة، حتى قام عمر مكرم نقيبُ الأشرافِ بتعبئة الأهالي للمشاركة في القتال إلى جانب قوات المماليك، فصعد إلى القلعة وأنزل منها بيرقًا كبيرًا أسمته العامةُ البيرق النبوي، فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق وأمامه ألوفٌ من العامة، أخذنا نُردد خلفه الهتافات، نُهدد ونتوعد بحماس كبير الفرنسيس بالويل والثبور إذا ما دخلوا القاهرةَ، كان هتافُنا هادرًا يرجُّ أسوار المدينة ويُزلزل أرضها.

حتى إذا ما اقترب بونابرته من بوابات القاهرة، خاف الناسُ من بطشه وانصرفوا لشأنهم، واختبأ السيد عمر مكرم، حتى عرض عليه الفرنسيس عضويةَ ديوان القاهرة الذي أنشأوه لإدارة البلاد غير أنه رفض، فضَّل الهربَ من مصر بأكملها حتى لا يظل تحت رحمة الفرنسيس.

وبعد حوالي أربعة أشهر من قدوم الفرنسيس، واستمرارهم في نفس طريق المماليك من تكبيل المصريين بالضرائب الباهظة، وبعد أنْ

تواترت الأخبارُ بنبأ مقتل محمد كريم استجمع المصريون قوَتهم وثاروا على الفرنسيس، في هوجةٍ وغضبٍ شعبيٍ هائلٍ.

إلا أنَّ هذه الهوجة مع الأسف كان مصيرُها الفشل ودنَّس الفرنسيس الجامع الأزهر بخيولهم، وحُكم على ثلاثة عشر شيخًا من الأزهر بالإعدام، إلى جانب الكثيرين من عامة الشعب.

في هذه الأثناء، عاد عمر مكرم إلى القاهرة وتظاهر بالاعتزال في بيته، ولكنه كان يُعدُّ العُدَّة مع عددٍ من علماء الأزهر وزعماء الشعب لثورةٍ كبرى ضد الفرنسيس، فقد خرج عمر مكرم على رأس جمع كبير من عامَّة أهل القاهرة وأعيانها، قاصدين التلال الواقعة خارج بابً النصر، وفي أيدي الكثير منهم النبابيتُ والعصيُّ، والقليلُ معهم السلاح، صاروا يطوفون في الأزقَّة والحارات وهم يُرددون الهتافات المعادية للفرنسيس، ثم اشتبك الثوارُ مع طوائف الأقليات في معارك راح ضحيتها العديد من القبط والشوام وغيرهم، وتحصَّن الفرنسيس في معسكرهم بالأزبكية.

يرجع السببُ في ذلك إلى تعاوُن بعض الأقباط مع الفرنسيس واشتراكهم في القتال بجانبهم ضدَّ المصريين في محاولة إخضاعهم لسلطة الفرنسيس، وأشهرهم المعلم يعقوب الذي كانت له صولاتٌ وجولاتٌ في هذا الشأن.

وقد سمعتُ أبي يقولُ أكثر من مرةٍ إنَّ المعلم يعقوب هذا، قد خان أهل ملّته قبل أنْ يخونَ المصريين، وإنَّ الكنيسة لم تكنْ راضيةً عن تصرفاته التي تُسيء للأقباط كلهم، فقد كان يتعاونُ مع قوات الفرنسيس وكوَّن مِن وراء هذا ثروةً طائلةً اكتسب مقابلها كراهية الناس، حتى إنَّ حملة

تأديب أهل الصعيد التي قامت بها قواتُ الجنرالِ ديزيه الفرنساوي أطلق عليها الناسُ جيشَ المعلم يعقوب، وبلغت منزلتُه وقربُه من الفرنسيس أنهم جعلوه على رأس فرقةٍ عسكريةٍ من شباب الأقباط، تمَّ تدريبهُم على أيدي الفرنسيس وتولَّى يعقوب علَى نفقته الخاصَّة تزويدهم بالسلاح والعتاد، لذا فقد دفع الأقباطُ الثمن مرتَيْن، الأولى لخيانة المعلم يعقوب لهم أولًا قبل خيانته للمصريين، والثانية لسياسة الفرنسيس القذرة في تقسيم أهل البلاد إلى فرقٍ وطوائفَ.

تنبَّهتُ على صوت جعفر صائحًا، عقب أن اقتحم الغرفة فجأةً:

- أسرعْ يا سيدي، لا بُدَّ أنْ تختبئ حالًا، لقد وصل جند محمد علي.

***

أوقف الدكتور حسين جهاز التسجيل فجأةً، ثم قال عقِبَ أن رمقني بنظرةٍ مغتاظةٍ:

- مش كفاية كده يا شحاتة؟

فتحتُ عينيَّ، ثم رميتُه بنظرةٍ فارغةٍ من أيَ معنًى، وقلتُ بهدوءٍ:

- هو إيه إللي كفاية يا دكتور؟

انتفض واقفًا وهو يصيحُ بغضبٍ:

- كفاية تضييع وقت بقى! أنا استحملت كتير، لكن أنت مش مقدّر.

كأنه لم يقلْ شيئًا، تجاهلته وصوَّبتُ نظري تجاه المنضدة، في حين استمرّ هو في نوبة غضبه، صاح بعد أنْ أشار بسبابته مُهددًا:

- أنا ممكن أكتب تقريري خلاص، مش محتاج منك أي معلومات تاني، تقريبًا أنا كونت صورة كاملة عن حالتك.

صمتَ قليلًا بعد أن انتهى من قوله، ثم أشعل سيجارةً أخذ ينفث دخانها بغيظٍ.. بادرته قائلًا:

- لكنَّ فضولك ورغبتك المميتة في إنك تعرف الحقيقة هما إللي مخلينك مستحملني!

لوَّح بيده وهزّ رأسه بعنفٍ، ثم التفتَ إليَّ قائلًا:

- إنت حالتك بالنسبة لي مش حالة عادية، ولازم أعرف كل حاجة بالتفصيل، لكن الوقت بيسرقنا وإنت عمال تضيعه في حكاياتك الفارغة.

أشرتُ بيدي في حركةٍ مسرحيةٍ، وقلتُ:

- وأنت غرورك المهني مش هايسمح لك إنك تفشل في معرفة حقيقة آخر حالة تفحصها قبل ما تطلع على المعاش.

رمقني بنظرةٍ باردةٍ، ثم قال:

- وأنت عمَّال تضيع الوقت القصير إللي باقي لنا.

تأملتُه طويلًا، ثم قلتُ مبتسمًا بهدوء:

- أنا تحت أمرك، لكن اللعبة دي هتمشي بالقواعد بتاعتي.

زفر دخان السيجارة بجدَّةٍ، وقال:

- ماشي، ماشي يا أستاذ شحاتة.

أطفأ سيجارته بغيظٍ ثم ضغط على زرِّ تشغيل جهاز التسجيل.

***

كنتُ أعبرُ مزلقان أرض اللواء في طريقي للقاء أحمد، كان ذهني شاردًا مشوشًا لا أقوى على التركيز، لم أنتبه إلى صوت صافرةِ التنبيه وهي تنطلق مدويةً. فجأةً، انتبهتُ على يد أحدهم تجذبني بقوةٍ شديدةٍ من ذراعي، مرَّ القطارُ بسرعةٍ بالغةٍ بالقربِ مني، ربتَتْ يدٌ حانيةٌ على كتفي، ثم قال صاحبُها الذي بدا لي أنه ظهر مِن العدم:

- ما بالك يا رجل؟ احترسْ، فإنَّ الحياة نعمةٌ غاليةٌ!

تعجَّبتُ للهجته العربية الفصيحة، لم يَعُدْ أحدٌ يتحدَّث الفصحى في زمانٍ انتشرت فيه الفوضى والركاكة، رفعتُ نظري صوبه، هالني ما رأيتً، كان أول ما شدَّ بصري هما عيناه، كانتا واسعتَيْن كحلاويْن تشعَّان بريقًا عجيبًا به مزيجٌ من السماحة والرهبة، تشعر بأنَّ نظراته تتملَّكك وتستحوذ عليك، تأسِرك بسحرها فلا تستطيع مواجهتها، استغرقني الأمرُ برهةً حتى تمكنت من تحرير بصري من سحر عينيه، تلجَّمَت الكلماتُ في حلقي فلم أردَّ عليه، واكتفيتُ بأنْ هززت رأسي بذهولٍ، شعرتُ بدفء دموعي الساخنة تنهمر على خديَّ بغير قصدٍ مني، على الرغم من برودة الطقس.

نظر الرجلُ إليَّ بإشفاقٍ ثم قال:

- وحِد الله يا رجل، واحْمَدْهُ على السلامة!

نظرتُ إليه ساهمًا، ثم قلتُ:

- لا إله إلا الله، متشكر ليك.

رمقني الرجل المهيبُ بنظرةٍ سبرتْ أغوار نفسي، ثم قال بنبرة هادئةٍ:

- ما الذي دفعك للنزول في ظلمة هذا الليل البهيم؟

أحسستُ براحةٍ للحديث معه وانشرح صدري للقائه، رأيتُ في وجهه علاماتِ الصلاح، فقلتُ مُفضفِضًا:

- ابني يا حاج، البوليس قبض عليه ومش عارف هاجيبه إزاي.

ابتسم الرجلُ ابتسامةً رائقةً وهو يقول:

- الذِكر يا بني، عليك بالذِكر، ألا بذِكر الله تطمئنُ القلوب.

هززتُ رأسي، وقلتُ بأسًى:

- والله يا سيدنا أنا صليت ودعيت لكن مفيش فايدة.

تأمَّلني مُتفحِصًا، وهو يقول:

- لا تقنطْ من رحمة الله يا ولدي، إنه لا يقنط من رحمته إلا القوم الظالمون.

سالت الدموعُ من عينيَّ وأنا أقول:

- بس دول هيبهدلوه يا سيدنا الشيخ، وهو مش هايستحمل، وبعدين أقول لأمه إيه؟ مش عارف أرجع الواد؟!

قال الرجلُ بنبرةٍ مُشفقة:

- ومن يتوكّل على اللّٰه فهو حسْبُه.

قلتُ بعنادٍ وإصرارٍ:

- أيوه، لكن ربنا قال اسعَ يا عبد وأنا أسعى معاك، قسمًا عظمًا لو الواد جرى له حاجة مش ها رحمهم أبدًا.

تبدَّلت ملامحُه فجأةً وقال بصوتٍ عميقٍ زلزل كياني:

- لكلِّ أجلٍ كتابٌ.

ربَّتَ الرجل على كتفي مجددًا بعد أنْ قال عبارته الأخيرة، ثم تركني وانصرف إلى حال سبيله وهو يُردِّدُ بصوتٍ مرتفعٍ:

- يا خفيَّ الألطاف، نجِّنا ممَّا نخاف!

لم يكن أمامي متَّسعٌ من الوقت للتفكير في تصرفاته الغريبة، فتجاوزتُ دهشتي سريعًا وعَبَرْتُ المزلقان، بعد أن استجمعتُ شتات نفسي، أوقفتُ سيارة أجرة، عقب أنْ أخبرتُ السائق بوجهتي وسرحتُ بخيالي فيما حلَّ بأمجد، أمجد هو الأمل، الأمل في غدٍ أفضل لن أراه، أمجد هو التعويض عن سنوات الحرمان والشقاء، أمجد هو الحلم، كم يبدو لي هذا الحلم بعيد المنال الآن، وكم يبدو تحقيقه كنجمٍ لمع في سماء حياتي الباهتة ثم انطفأ فجأةً.

لا أعلم لماذا يصرُّ الزمان على قصْم ظهري! لو حدث شيءٌ لأمجد فلن أسكتَ بعد الآن، سينفجرُ بركانُ غضبي حممًا تحرق الأخضر واليابس، يا رب أسألك أنْ ينزاح هذا الكابوس عني، نعم إنه كابوس،

كلُّ ما جرى لي مجرد كابوسٍ سأستيقظُ منه على خيرٍ، يا رب أسألك أنْ يكونَ أمجد بخير.

أخرجتْني رنَّةُ الهاتف المحمول من دوَّامات الأفكار وعواصفها، جاءني صوتُ أحمد على الطرف الآخر:

- أيوه يا عمي، حضرتك وصلت؟

رددتُ بسرعةٍ:

- لسه يا أحمد، أنا في التاكسي دلوقتي.

- طيِّب يا عمي لو سمحت قول للسواق يطلع على القصر العيني الفرنساوي.

توترتْ أعصابي وداهمتني الظنون، قلتُ بصوتٍ مرتعش النبرات:

- إيه يا بني طمني، هوا في إيه؟

- ما تقلقش يا عمي، خير إن شاء الله، أنا بس تعبان شوية فرحت على القصر الفرنساوي علشان أعالج شوية كدمات.

- كدمات إيه يا بني؟

- مش مهم يا عمي، تعال بس أنت بسرعة.

- يعني أمجد كويس؟

- أنا مستنيك قدام المستشفى يا عمي.

قال أحمد عبارته الأخيرة ثم أنهى المكالمة، اجتاحتني أعاصير الوساوس والأفكار السوداء من جديدٍ؛ هل سأرى أمجد مجددًا؟ لا

أدري لِمَ انتابني شعورٌ غامضٌ بأنَّ الساعاتِ القليلةَ القادمةَ تُخبئ لي أمورًا عصيبةً، تشاغلتُ عن همي وقلقي بمراقبة الطريق، كانت الوجوه تشي بما تحمله في داخلها من هموم وأحزانٍ تنوءُ بحملها الجبالُ.

توقفتْ سيارةُ الأجرةِ أمام المستشفى الفرنساوي بمنطقة القصر العيني بوسط المدينة، تلفتُّ حولي باحثًا عن أحمد الذي لم أقابله من قبل، كان المارَّة قليلين في هذا الوقت المتأخر من الليل.

انتبهتُ على أحد الشباب يُشير إليَّ بيده، ثم يُهرول ناحيتي وهو يقول:

- أستاذ شحاتة، مش كده؟

- أيوه يا بني، أنت أحمد؟

- أيوه يا عمي.

تأملتُ ملامحه المتعبة المرهَقة، وقد بان على وجهه أثر كدماتٍ شديدةٍ تدلُّ على أنه قد تعرَّض لضربٍ مبرحٍ، ثم قلتُ متسائلًا:

- إيه يا بني الأخبار، طمني؟

- إن شاء الله خير، أنت راجل مؤمن.

- مش فاهم يا بني.

أطرق رأسه إلى الأسفل قليلًا وتنهَّد، ثم رفع عينينْ باكيتيْن ناظرًا لي فوجدتُه يقول بصوتٍ متهدجٍ:

- البقية في حياتك يا عمي.

- يعني إيه؟

- أمجد يا عمي، تعيش أنت. . .

انطفأ كلُّ شيء أمامي فجأةً، كانت الصدمةُ أقوى من قدرتي على الاحتمال، حاولتُ الصراخ إلا أنَّ حنجرتي خانتني ولم يخرج صوتي، كنتُ فاتحًا فمي عن آخره محاولًا الصراخ أو حتّى النطق إلا أنني لم أتمكن، دارت الدنيا من حولي بسرعة متزايدة، خانتْني قدماي فسقطتُ على ركبتيَّ، سالت دموعي أنهارًا لا أعلمُ أحُزنًا على فراق أمجد، أم حُزنًا على فقدان الأمل والحلم؟!.

انتبهتُ على يد أحمد تربَتُ على كتفي، وهو يقولُ منتحبًا:

- وحِد الله يا عمي، أنت راجل مؤمن.

نظرتُ إليه ذاهلًا عمّا حولي، كانت الرؤيةُ مشوشةً، لا أرى إلا أطيافًا وخيالاتٍ.

- يا عمي مش كده أمّال، أمجد الله يرحمه كان بطل دا مات شهيد.

قالها أحمد بصوتٍ باكٍ محاولًا مواساتي.

أخذتْ كلماتُه الباكيةُ تتردَّد في عقلي: «أمجد الله يرحمه»، «أمجد بطل»، «أمجد شهيد». حاولتُ أنْ أنطقَ بما يتردَّد في عقلي إلا أنَّ لساني رفض أنْ يُنفذ ما أمرتُه به، أصدرتُ له الأمر مجددًا غير أنه لا يزال مُصرًا على حاِله من رفض التنفيذ.

حاولتُ أنْ أستعيدَ رباطة جأشي فبدأ عقلي يهدأ قليلًا، وشرعتُ أردِد في سرَي:

«إنا للهِ وإنا إليه راجعون، للهِ ما أعطى وله ما أخذ»

استجاب لساني أخيرًا، فخرج صوتي بمشقةٍ بالغةٍ مِن حلقي مُتحشرجًا وقد سال اللعابُ من جانب فمي:

- ليه؟ أمجد ليه؟

نزل أحمد على ركبتيه بجواري، وقال بصوتٍ خنقته العبَرات:

- إحنا كنا قاعدين ع القهوة عادي زي كل مرة وفجأة لقينا الحكومة كبست علينا من كل اتجاه، حاولنا نجري بس مالحقناش، أمجد كان هوا إللي معاه شنطة المنشورات فطلع يحاول يجري بره القهوة لكن لحقوه المخبرين عند المدخل، حاول يقاومهم فقاموا قعدوا يضربوا فيه، هوا حاول يرد الضرب لكن كانوا كتير، حاول يبعدهم عنه فقام ماسك بالطرابيزة المعدن بتاعة المشاريب وقعد يهوش بيها في الهوا، جه واحد منهم من وراه وراح ضاربه بطرابيزة زيها على دماغه من ورا، قام وقع من طوله في ساعتها وانفجر الدم من دماغه وقعد جسمه ينتفض على الأرض ويطلع صوت حشرجة من بقه.

توقفت دموعي عن الانهمار بعد أنْ أنهى عبارته الأخيرة، تحجَّرت في مقلَتي ممَّا سمعت، كانت كلُّ كلمةٍ يذكرها ترتسم صورةً حيةً أمام عينيَّ، شاهدتُ حُلمي وأملي ينزفانً الدماء بغزارةٍ، شاهدته ينتفض على الأرض مُعلنًا مفارقة روحي للدنيا وما فيها، أصابني الوجوم فقلتُ سائلًا إياه بصوتٍ باردٍ:

- وبعدين، حصل إيه؟

مسح أحمد عينيه براحتيه، ثم قال بصوتٍ خافتٍ:

- بعد كده الظابط خاف لما شاف إللي حصل لأمجد فقال للمخبرين هاتوهم كلهم ع البوكس، قاموا شالوا أمجد وهوا بينزف وغموا عينينا وحطونا في البوكس ونزلوا فينا ضرب لغاية لما وصلنا لمكان مجهول، فضلوا يستجوبوا فينا لغاية لما اعترفنا على بعض ومضينا على اعترافاتنا، بعد كده غمُّوا عينيا تاني وركبت البوكس ولقيت نفسي نازل عند مديرية أمن الجيزة.

قاطعتُه بجمودٍ وقد تبلَّدت مشاعري، فقلتُ بصوتٍ خرج كأنه منحوتٌ من الصخر:

- وأمجد راح فين؟

تنحنح أحمد بحرجٍ، ثم قال بصوتٍ خافتٍ:

- في المديرية فضلوا يضربوا فيا شوية وبعدين قالوا لي خلاص ممكن تمشي ومش عاوزين نشوف وشك هنا تاني، سألت عن أمجد محدش جاوبني، لغاية لما جه عسكري شكلي صعبت عليه وقال لي صاحبك إللي بتسأل عليه هتلاقيه في القصر العيني الفرنساوي ولو ما لقيتهوش هناك يبقى هتلاقيه في المشرحة.

سألته بالجمود نفسه:

- وبعدين؟

- جيت جري على المستشفى وسألت عليه فقالوا إنهم ميعرفوش عنه حاجة، طلعت على مشرحة زينهم قالوا لي إنه موجود في الثلاجة بعد ما ناس ولاد حلال لقوه مرمي في الشارع علشان عربية مجهولة خبطته وهربت.

- عربية مجهولة؟ لقوه مرمي في الشارع؟ آه يا ولاد الكلب!

قلتُها بصوتٍ اعتصرته المرارة والحزن.

قاطعني أحمد قائلًا:

- ولا يهمك يا عمي، دم أمجد مش هايروح هدر، أنا لقيت دكتور شاب في المشرحة مؤمن بالفكرة بتاعتنا، قال إن الإصابات إللي في أمجد دي مش ممكن تكون بسبب حادثة عربية، قمت حكيت له على إللي حصل فتعاطف معانا، وكتب تقرير طبي يفيد إن الوفاة نتيجة ضربة على مؤخرة الرأس بآلة حادَّة تسببت في كسر في قاع الجمجمة نتج عنه نزيفٌ حادٌّ أدى إلى الوفاة، وأنا قمت واخد منه صورة من التقرير ده وكلمت حضرتك على طول.

عقب أنْ أنهى عبارته خطفتُ منه صورة التقرير الطبيّ بلهفةٍ، أمسكته بأناملَ مرتعشةٍ، وأنا أفكر أنَّ هذا هو آخر ما بقي لي من أمجد، أخذتُ أقرأ ما وردَ في التقرير مرارًا وتكرارًا كالمجنون، كنت أردد بصوتٍ هامسٍ: «لا حول ولا قوة إلا بالله»

قاطعني صوتُ أحمد قائلًا بحزنٍ:

- دلوقتي هنعمل إيه؟

نظرتُ إليه بشرودٍ، وقد ازدادت ظلمةُ الليل أمام عينيَّ، أطبقتْ يدي على التقرير الطبيّ بشدةٍ، وقلتُ بصوتٍ خرج باردًا كالجليد:

- نروح المشرحة نستلم أمجد علشان ندفن الأمانة، وبعدين ييجي وقت الحساب، لازم كل واحد غلط يدفع الثمن.

***

سمعتُ همهمة أصواتٍ متداخلةٍ في عقلي، لم أتمكّن من تمييزها لبرهة من الوقت، كنت أشعر بدوارٍ شديدٍ وألم عاصفٍ يجتاح رأسي، تنبَّهتُ فجأةً على صوت الدكتور حسين وهو يقول:

- شحاتة، شحاتة، إنت كويس؟

فتحتُ عينيَّ بحذر، كان ممسكًا بكوبٍ من الماء يرشُّ منه بلطفٍ على وجهي، أزحته بعيدًا عني برفقٍ، ثم سحبتُ نفسًا عميقًا من الهواء البارد أعاد الرؤية واضحةً إلى عينيَّ، مسحت وجهي براحتي، ثم نظرتُ إليه ساهمًا، أعانني على شرب قليلٍ من الماء، ثم ربَّت على كتفي وقال:

- يا راجل قلقتني عليك، دا أنا قلت إنت رُحت مني خلاص.

ابتسمتُ بمرارةٍ، وقلتُ:

- أنا فعلًا انتهيت يا دكتور.

تفرّس في وجهي لحظاتٍ، ثم قال:

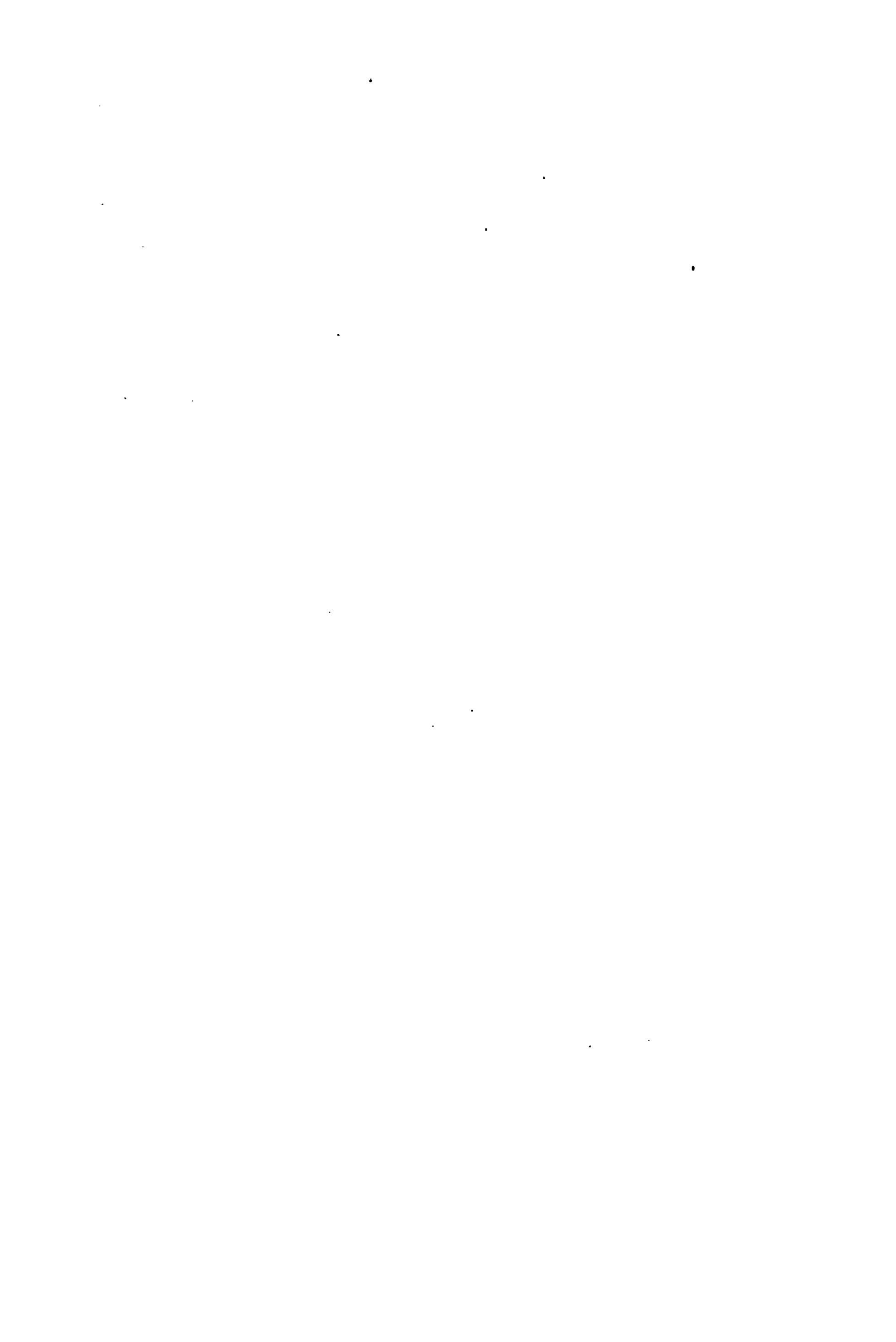
- ماشي يا شحاتة، روح أنت ارتاح دلوقتي، وبكره نكمل.

غادرتُ غرفته في طريقي إلى عنبري مستندًا على ذراع أشرف، وأنا أعلم أنَّ غدًا هو اليوم الأخير لي في جلساتي معه، غدًا سوف أخبره بنهاية الرحلة، غدًا سيعلم بنهاية الحكاية.

***

الشريط الخامس

«نهاية»



(٦)

كان اليومُ هو اليومَ الأخيرَ في جلساتِ مناقشاتي مع الدكتور حسين قبل أن يكتبَ تقريرَه، لم أكن متأكدًا إن كان ما فعلته صوابًا أو خطأً، لكن ما كنتُ مُتيقنًا منه، أنه لو عاد بي الزمان إلى الوراء مرةً أخرى لفعلتُ ما فعلت.

دخلتُ إلى غرفته، كان كعادته في الآونةِ الأخيرةِ مُنهمكًا في تدوين الملاحظات في مفكرته الصغيرة، رفع رأسه ناظرًا إليَّ بابتسامةٍ واسعةٍ، قال بعد أن دعاني إلى الجلوس:

- أظن بقى الليلة ليلتك يا شحاتة، هتقول لي على الحقيقة وتريحني.

نظرتُ إليه مُبتسمًا، وقلتُ:

- تفتكر يا دكتور هاتفرق معاك لو عرفت الحقيقة؟

رفع حاجبيْه بدهشةٍ، ثم قال مُحافظًا على ابتسامته:

- طبعًا!

حدجتُه بنظرةٍ مباشرةٍ لعينيْه، ثم قلتُ:

- حتى لو عرفت إن كان معايا حق في إللي عملته، يا ترى هتقدر تساعدني وترجع لي حق ابني؟

اختفت الابتسامةُ عن وجهه وأشاح بنظره بعيدًا دون أن ينطق. هززت رأسي بأسفٍ، وقلتُ بصوتٍ حزينٍ:

- لكلٍ أجَلٍ كتابٌ.

التفت بوجهه ناحيتي غاضبًا، ثم قال بجدَّةٍ بالغةٍ:

- أنت هاتعمل لي فيها عم الطوَّاف بتاعك؟

صمت قليلًا ثم قال ساخرًا:

- إلّا هو فين صحيح؟ مش كان واجب عليه يبجي يساعدك في الورطة إللي إنت فيها؟

نظرتُ إليه طويلًا، ارتسمت على شفتي ابتسامةٌ عريضةٌ ما لبثت أن تحوَّلت إلى قهقهةٍ بصوتٍ مرتفع، ثم قلتُ بنبرةٍ عميقةٍ:

- يا خفيَّ الألطاف، نجنا مِمَّا نخاف!

تجاهلني الدكتور حسين تمامًا وقام من خلف مكتبه، وضغط بإصبعه على جهاز التسجيل وهو يقول:

- ماشي يا مولانا، اتفضل كمل وخلَّصنا!

***

انتفضتُ من مكاني، عقب أن أخبرني جعفر بقدوم جند محمد علي يتلمّسون أثري، كان صخبهم قد ارتفع عند بوابة البيت الرئيسية، حتى بات واضحًا لنا في الغرفة الشتوية، كان جعفر يتلفّتُ حوله بذعر، وقد زاغت نظراتُه، تحركتُ من فوري تجاه السجادة الفاخرة التي تُغطي الجدار الغربي للغرفة بأكمله، أشرتُ لجعفر بمعاونتي، أزحناها، ظهر من خلفها بابٌ خفيٌّ، كان محبّأً بعناية فائقة.

فتحتُ الباب بلهفة، سمعتُ له صريرًا حادًا نتج من ندرة استعماله، كان صوتُ هذا الصرير أعذب إلى نفسي من أجمل قطعة موسيقية سمعتُها، كان البابُ يُؤدي إلى سرداب سريٍّ تحت الأرض.

أعطاني جعفر قنديلًا لإضاءة السرداب الغارق في بحر لجيٍّ من الظلمات، ربّت على كتفي ثم احتضنني، كانت أصواتُ الجند قد أصبحت جليةً واضحةً في فناء البيت، بعد أنْ سمعنا صوت اقتحامهم لبوابته، أشرتُ لجعفر بالانصراف بعد أنْ أوصيته بضرورة إخبار الشيخ محمد الأزهري بما حدث، وبأنني لن أتحرك من مكاني حتى يأتي.

أغلقتُ الباب بالمزلاج بعد مغادرة جعفر، وتأكدتُ من إحكام إغلاقه، رفعتُ القنديل أمام عينيَّ، أتلمّس من ضوئه السكينة وأتحسّس عليه خطواتي، كان الهواءُ ثقيلًا والرائحةُ عطنةً، كنتُ أتنفس بصعوبة بالغة، سمعتُ من بعيد أصواتًا مكتومةً تحمل سبابًا ووعيدًا لجعفر، تجاهلتُ كلَّ ذلك وشرعتُ أتمتم ببعض آيات القرآن الكريم.

تحسستُ طريقي في الظلام بخطوات حذرة على ضوء القنديل الباهت، حتى آنستُ مكانًا يصلحُ للجلوس، قررتُ أنْ أستكينَ قابعًا في مكاني، حتى يأتيني الشيخ محمد لنتدبر أمرنا معًا، لم يكن المكان مُريحًا

علي الإطلاق، إلا أنني لم أستطع أنْ أمنع نفسي من الابتسام بعد أن تذكرتُ أنني كنتُ مُعارضًا لأبي في حفر هذا السرداب، إلا أنه أثبتَ صواب رأيه كالعادة، فقد كان يتوقع الغدر من جانب محمد علي في أيَ وقتٍ، لذا فقد أعدَّ العدة وجهَّز خطةً للهرب عند الحاجة إليها .

أسندتُ رأسي على الحائط خلفي وأخذتُ أفكر، بأنه لم يكن أحدٌ في برِّ مصر المحروسة يتوقع أن يكون محمد علي حاكمًا عليها، بل إنه حتى سنواتٍ قريبةٍ لم يكن أحدٌ يعرفه من الأساس، ولكنها تصاريف القدر، فلم يمضِ على انتهاء هوجة أهل القاهرة الثانية مدةٌ طويلةٌ، حتى كان الزمان يدقُّ المسمار الأخير في نعش بقاء الفرنسيس في مصر، مُعلنًا رحيلهم عنها بغير رجعةٍ.

كنتُ قد سمعت أبي يقولُ ذات مرةٍ، إنَّ نشأة محمد علي الفقيرة وتجرُّعه لذلِ اليتم وألم الحرمان كان له أبلغ الأثر في حياته، فقد كان والده يعمل خفيرًا للطرق، يُدعى إبراهيم آغا، أنجب سبعة عشر ابنًا ماتوا جميعهم، ولم يبق منهم سوى محمد علي، لم يكد يبلغ الرابعة من عمره حتى تُوفي والده ومن بعده أمه، فأصبح يتيمًا، تكفَّل عمه طوسون آغا بتربيته لفترةٍ، إلا أنها لم تَطُلْ بعد أنْ قُتِل عمه على يد السلطان العثماني، فعاد يتجرَّع مرارة اليُتم مجددًا، عانى كثيرًا في طفولته وصباه، حتى أخذه أحد أصدقاء والده يُدعى جربتجي، وكفله ورعاه في بيته وسط أبنائه.

بدأتُ أُدرك مدى ذكاء ودهاء هذا الرجل، الذي تحوَّل في غضون سنواتٍ قليلةٍ من تاجرٍ يبيعُ الدخان إلى حاكم لأكبر دولة في المنطقة، ويا للعجب! بناءً على طلبٍ وإلحاحٍ من أهلها؟! كنتُ مُتحيرًا من موقف

المشايخ والعلماء وأكابر البلد في اختيارهم لمحمد علي، لماذا لم يقمْ واحدٌ منهم بأداء هذا الدور؟ لماذا اجتمع المصريونّ، واتفقوا أخيرًا على أنْ يُولّوا أمرهم لشخص غير مصريٍّ؟ شخص ألبانيٍّ! تاجر دخان!!

تنبهتُ من أفكاري على صوتِ طَرْقٍ خافتٍ يأتي من جهة باب السرداب، أمسكتُ القنديل بيدي وتقدَّمتُ بحذرٍ على أطراف أصابعي مُقتربًا من الباب، وقد اعترتني الهواجسُ والظّنون، ازدادت حدَّةُ الطرقات على الباب، وازداد معها توتري، أطفأتُ القنديل وغرقتُ في الظلام الدامس الذي ران على السرداب، تلاحقت أنفاسي وازدادت سرعة خفقان قلبي، كان تنفّسي صعبًا من الأساس لركود الهواء في السرداب المغلق، ولكنه بات مع توتري شبه مستحيل، سكنت الطرقات فجأةً، اقتربتُ بأذني من الباب أتنصَّتُ، سمعتُ صوتًا خافتًا يُنادي:

- خليل، خليل، هل أنت في الداخل؟

تهللت أساريري ورقص قلبي طربًا، فقد كان صوتُ الشيخ محمد الأزهري، لا بدَّ من أنه قد جاء مُسرعًا لنجدتي بعد أن أبلغه جعفر بما قد كان، رفعت مزلاج الباب مُسرعًا، وأنا أضع يدي أمام عينيَّ حمايةً لهما من ضوء الغرفة الشتوية، دخل الشيخ محمد مسرعًا ومن خلفه بدا جعفر وقد ظهرتْ على وجهه علاماتُ القلق والترقب، احتضنني الشيخ محمد وربّت على كتفي قائلًا:

- هل أنت بخير؟

أومأتُ برأسي، ثم قلت:

- نحمد الله الذي لا يُحمد على مكروهٍ سواه.

ربَّت الشيخ محمد على كتفي مشجعًا ثم قال بلهجةٍ جديةٍ:

- لا بدَّ أنْ نغادرَ البيتَ بأقصى سرعةٍ، فقد انتشر جند محمد علي في كلِ طرقات القاهرة يسعون في أثرك.

امتقع وجهي، وقلت بنبرةٍ قلقةٍ:

- والآن ما العمل؟ أين نذهب؟

هزَّ الشيخُ محمد رأسه بحيرةٍ، ثم قال:

- لا أعلم، فإننا لن نستطيع الذهاب إلى بيت بولاق فقد وضعوا عيونهم هناك أيضًا.

قال جعفر بسرعةٍ:

- لا بدَّ أنْ تذهبا إلى مكانٍ لن يتوقعوا وجودكما فيه.

ربَّت الشيخ محمد على كتفه، وقال:

- أحسنت يا جعفر، معك حق.

أمسك بقنديلٍ مشتعلٍ في يده ودفعني إلى داخل السرداب مرةً أخرى وهمَّ بإغلاق بابه، إلَّا أن جعفر استوقفه سائلًا:

- أين ستذهبان؟

ابتسم الشيخ محمد، وقال:

- سيكون من الأفضل لك ألَّا تعرف.

أحكم إغلاق الباب مجددًا بالمزلاج، ثم التفت إليَّ قائلًا:

- إنَّ هذا السرداب يعبر بنا أسفل البيت إلى الجهة الخلفية من حارة الصنادقية، بإذن الله سنخرج من الباب الخلفيَ للحارة.

تأملتُه على الضوء الخافت للقنديل، كان كما عهدته دومًا، أسمر البشرة ضخم الرأس معتدل القامة له لحيةٌ وشاربٌ مُهذَّبان، كانت عمامته وزيُّه الأزهري المميَّز يُضفيان عليه وقارًا ورصانةً، كان الشيخ محمد أحد المجاورين بالأزهر الشريف، أتى طلبًا للعلم وكان لأبي حلقته التي يُدرس فيها العلم لطلابه في هذا الوقت، لَمَحَ فيه أبي النباهة والفراسة، فاختصَّه بأنْ كان أحد المدونين لأوراقه وكتبه، مع مرور الأيام نمت أواصرُ العَلاقة فيما بينهما، وازدادت ثقة أبي به فاصبح المدون الوحيد لمؤلفاته.

أفقتُ على صوته يقول:

- أين ذهب بك خيالك يا ابن الغالي؟

هززت رأسي، وابتسمت قائلًا:

- لا شيء، فقط كنتُ أفكر في تغير حالنا بسبب هذا المتجبر.

لمحتُ ابتسامته على ضوء القنديل وسمعته يقول:

- لا تقلق يا خليل، فإنَّ الشيخ الجبرتي قد أعدَّ العدة لكل شيء.

- لستُ قلقًا، لكني فقط أخشى مكره وغدره، ألا تذكر ما فعله مع السيد عمر مكرم؟

أطرق الشيخ محمد رأسه إلى الأرض ثم قال بحزنٍ:

- وهل يستطيع أحدٌ أن ينسى ذلك؟

صمت لوهلةٍ، ثم قال بنبرةٍ غلب عليها الضيق:

- بعد أنْ عاونه ووقف بجواره حتى أصبح واليًا على مصر، لم يجد منه سوى الجحود والنكران، فمحمد علي لم يكن يرغب في أنْ ينافسه أحدٌ على الزعامة وكان يعلم ويُدرك مدى حب الناس للسيد عمر مكرم، لذا فقد أخذ يستخدم مكره ودهاءه في الوقيعة فيما بينه وبين المشايخ حتى استطاع أن يلفق له تهمًا كاذبةً باطلةً وحكم عليه بالعزل ونفاه إلى دمياط، يا الله! كم حزن الناس كثيرًا وبكوا لفراق السيد عمر مكرم!

قلتُ مكملًا حديثه:

- وكذلك ما فعله مع حلفائه من المماليك، بعد أنْ غدر بهم وأَوْلَمَ لهم صبيحة يوم مغادرة ابنه طوسون باشا في حملة الحجاز، وكيف أنه بعد أنْ جمع كبار أمرائهم في القلعة أمر أتباعه من المرتزقة الألبان بحصدهم فأبادوهم عن بَكرة أبيهم.

هزّ الشيخُ محمد رأسه بأسًى، وقال:

- يا لها من أيام نحساتٍ! وبعد ذلك سار مناديه يطوف طرقات القاهرة يُنادي في النّاس بقتل وتسليم مَنْ بقي مِن المماليك في مصر.

قلتُ بحزنٍ:

- لا زلتُ أذكرُ ما أخبرني به أبي من أنه سمعه يقول عقب تخلُّصه من السيد عمر مكرم: «وإنْ حصل من الرعية أمرٌ ما، فليس عندي إلا السيف والانتقام».

قال الشيخ محمد بجديةٍ:

- لا وقت أمامنا نضيَعه في البكاء على اللبن المُراق، لا بدَّ لنا من التحرُّك سريعًا، هيا بنا!

عقب أنْ أنهى عبارته الأخيرة، تحرَّكَ في الاتجاه المعاكس لباب السرداب حاملًا القنديل في يده، تبعته وأنا أتفكر، كيف أدار محمد علي البلاد بعد أنْ أحكم قبضته عليها، فقد كان محمد علي رجلًا أميًا لا يقرأ ولا يكتب، إلا أنه كان ماكرًا شديد الدهاء، أمضى سنوات حكمه الأولى في تعزيز سلطته وتقوية مركزه وإزاحة كل مَن كان يمكن أنْ يُمثِّل له تهديدًا في المستقبل القريب أو البعيد، كان مبدؤه «الغاية تبرر الوسيلة»، فاستطاع بالغدر والخيانة أنْ يُحقِق أهدافه وأنْ يصل لمبتغاه.

انتبهتُ على يد الشيخ محمد وهي تشير إليَّ بالتوقُّف عن السير والحركة، بدأ يمشي على أطراف أصابعه متوخيًا الحذر، لاحتْ لنا من بعيدٍ نقطةٌ صغيرةٌ من الضوء الشاحب تأتي من جهة نهاية السرداب، تقدَّمتُ خلفه وأنا أكتم أنفاسي من القلق، تصبَّب العرقُ البارد على جبيني على الرغم مِن برودة الطقس، كنتُ أسمع خفقان قلبي مُرتفعًا كأنه صوت دقات الطبول، اقتربنا من مصدر الضوء الشاحب، بدا أنها فتحةٌ للخروج من أعلى السرداب، كانت مغطاةً بألواح مُتهرئةٍ مِن الخشب، ومجموعةٍ كبيرةٍ مِن أفرع الشجر اليابس والحشائش، أزاحَ الشيخ محمد ما كان يسدُّ الفتحة، ومدَّ رأسه خلالها يستطلع الطريق ثم تعلق بيديْه وسحب جسده خارجًا إلى الأعلى، مرّ وقتٌ بدا لي كأنه دهرٌ، حتى ظهرت عمامته متدليةً من الفتحة مرةً أخرى وقد عَلَت الابتسامةُ وجهه وهو يقول:

- هيا، الطريق خالٍ!

خرجتُ بعد أن نال مني التعبُ لنقص الهواء الشديد داخل السرداب، استلقيت على ظهري فارِدًا ذراعيَّ عن آخرهما وأنا أتنفس بصوتٍ مرتفع، انتابتني نوبةٌ جديدةٌ مِن السعال، حرصت على كتمانها حتى لا يفتضحَ أمرنا، كان الشيخ محمد قد خلع عمامته وبدأ يمسح العرق الغزير عن رأسه ووجهه بكم جلبابه، أخذتُ ألهثُ بشدةٍ، لإدخال أكبر قدرٍ من الهواء إلى رئتيَّ محاولاً تعويض ما قد فاتهما.

كانت فتحةُ السرداب قد أخرجتنا خارج الباب الخلفي لحارة الصنادقية، وقف الشيخ محمد بعد أن التقط أنفاسه، شرع يتلفَّت حوله بحذرٍ، أشار إليَّ بالنهوض، تبعته بصمتٍ بعد أن استبدَّ بي القلق، كنا نسيرُ على أطراف أصابعنا من الخوف، بعد أنْ شرع الظلام أجنحته على سماء القاهرة، فأصبحت الرؤيةُ صعبةً، ولم تشفع لنا القناديل الزيتية الموقدة على جنبات الطرقات أو تُساعدنا في الرؤية، وصلنا إلى مُبتدأ شارع الغورية، أشار الشيخ محمد بيده إشارةً تُفيد التوقُّف، شرع يمدُّ رأسه محاولاً أنْ يستكشفَ الطريق قبل أنْ نلج فيه، ثم تقدَّم عابرًا للطريق وأنا أتبعه. فجأةً، تعالت صيحاتٌ من خلفنا: «ها هم، لقد وجدناهم».

انطلق الشيخ محمد يركضُ وأنا من خلفه، بعد أنْ أدركنا أنَّ جند محمد علي قد اكتشفوا أمرنا، عَدَوْنا بكلِ ما في وسعنا من سرعة، حتى أنهينا شارع الغورية، توقَّف الشيخ محمد بغتةً عن الركض، ثم قال وهو يُشير إلى إحدى الحارات التي لاحت لنا عند نهاية الطريق:

- اذهب في تلك الحارة واتبع دورانها حتّى تصلَ للأشرفية، عند نهايتها ستجد حارة القبط، اختبئ هناك، فهذا آخر مكانٍ سيظنون أنك فيه.

أومأتُ برأسي وأنا أستعدُّ لاقتفاء أثره قائلًا:

- حسنًا، هيا بنا!

اتكأ الشيخ محمد براحته على ركبتيه ملتقطًا أنفاسه، ثم قال:

- بل اذهب أنت وحدك!

ارتسمت الحيرة على وجهي وأنا أسأله:

- وأنت، ماذا ستفعل؟

نظر الشيخ في اتّجاه طريق الغورية، وقال:

- سأحاول أنْ أُعرقل سيرهم قليلًا حتّى تتمكنَ من الهرب.

هززت رأسي بعنفٍ وقلتُ:

- لا يُمكن أن أسمح لك بذلك، سيقتلونك.

ابتسم الشيخ ابتسامةً باهتةً وهو يقول:

- يقتلون فردًا واحدًا أفضل من أنْ ينالوا من اثنين.

قطع حديثنا صوت بنادقهم وهي تضرب البارود في الهواء، تخويفًا وترهيبًا لنا، انتفض الشيخ محمد واقفًا وأمسك بكتفي يهزُّني بعنفٍ قائلًا:

- أسرعْ يا خليل، لا وقت أمامنا الآن، هيا اذهب!

ترقرقت الدموعُ في عينيَّ، وأنا أقول:

- يستحيل أن أتركك وحدك.

أغمض الشيخ محمد عينيه وهو يقول:

- لقد أكرمني الشيخ الجبرتي وكفَلَني، ولن يكون لحياتي معنًى إنْ لم ينجُ ولده.

صمت قليلًا ثم فتح عينيْه، كانتا تلمعان ببريق عجيبٍ، قال بصوتٍ مرتفعٍ بعد أن استدار وبدأ يعدو في اتجاه الجُند:

- بلِّغْ سلامي للشيخ، الآن حان وقت ردِ الجميل.

ألجمَني تصرُّفه وشَلّ تفكيري، فتسَمرتُ في مكاني بعد أنْ تجمَّدت نظراتي نحوه، رأيته وصل لأول شارع الغورية مواجهًا الجند بشجاعة نادرةٍ، قال بصوتٍ جهْوَريّ:

- ماذا تريدون منا؟ دعونا وشأننا!

كان الجند قد اتخذوا تشكيلًا قتاليًا بعد أنْ حشَوْا بنادقهم بالبارود، سمعتُ أحدهم يصيحُ قائلًا:

- ابتعد عن الطريق يا أزهري، لا شأن لنا معك، الباشا يطلب ابن الجبرتي.

رأيتُ الشيخ محمد يفرد ذراعيه عن آخرهما محاولًا منعهم من المرور، ثم قال صائحًا:

- والله لن تنالوه إلا على جثتي.

لم أستطع تمييز أصواتهم، فقد تعالت صيحاتهم وتداخلت. فجأةً، سمعت صوت ضرب بنادقهم، شاهدت الشيخ محمد يسقط على الأرض دون أنْ ينبس ببنت شفة، ظللت واقفًا في مكاني بلا حراكٍ مذهولًا، كأنما أصابني الشلل، سمعتهم يصيحون من جديدٍ وهم يُشيرون بأيديهم في اتجاهي، وبدأوا يركضون نحوي ويطلقون بنادقهم تجاهي، أطلقت لساقيَّ العنان بعد أنْ جاءت شظيَّةٌ بالقرب من رأسي فسمعت لها أزيزًا مُخيفًا.

ولَجْتُ إلى الحارة التي أشار إليها الشيخ محمد سريعًا، كانت غارقةً في الظلام، كنتُ أركضُ بسرعةٍ بالغة معتمدًا على ما أتذكره من تفاصيل الطريق أكثر مِمَّا أراه، كنتُ كقصَّاصي الأثر أعبر العطوف والدروب دون أنْ أعتمد على حاسة النظر.

فجأةً تعثَّرتْ قدمي بشيء ما كان على جانب الزقاق الذي كنتُ أمرُّ منه، فسقطتُ أرضًا وأنا ألعن حظي العاثر، انتبهت على يدٍ قويةٍ تجذبني من ذراعي وتُعينني على الوقوف، التفتُّ نحو صاحبها بوجل، وأنا أخشى أنْ يكون أحد قُطَّاعي الطرق الذين ينتشرون في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل، هالني ما رأيت، كان أول ما شدَّ بصري هما عيناه، كانتا واسعتَيْن كحلاوين تشعان بريقًا عجيبًا به مزيجٌ من السماحة والرهبة، تشعر بأنَّ نظراته تتملكك وتستحوذ عليك، تأسرك بسحرها فلا تستطيع مواجهتها، انتبهتُ على صوته العميق الوقور:

- معذرةً يا بُنيَّ، هل أنت بخير؟

لا أعلم لماذا استراحت نفسي لصوته فأجبتُ على الفور:

- بلى يا سيدي، أنا على ما يرام.

تفحَّصني الرجلُ بنظراتٍ بثَّت في نفسي مهابته وتوقيره ثم قال:

– ما الذي دفعك إلى الخروج في مثل هذا الوقت المتأخر؟

– إنه القدر يا سيدي.

رمقني المهيب بنظرةٍ سبرتْ أغوار نفسي ثم قال بصوتٍ عميق:

– ألمْ يكن القدر رحيمًا بك أكثر من مرةٍ حينما نجَّاك من كلِّ ما حِيكَ ضدك؟

توجَّستُ في نفسي خيفةً منه وأحسستُ أنه يُضمِر بداخله أكثر ممَّا يُظهر فتراجعتُ إلى الوراء قليلًا وتلفتُّ حولي بذعرٍ أرقب مدخل الزقاق تخوفًا من وصول الجند، ثم قلت:

– وما أدراك أنتَ بما كان يُحاكُ ضدي؟!

ابتسم الرجلُ المهيبُ وقال بصوته العميق:

– أوَ لستَ ابن الجبرتي؟

أصابتني الدهشة لسابق معرفته بي على الرغم من أني لم أصادفه من قبل، فقلتُ:

– هل تعرفني؟

فاجأني بسؤالٍ لم أتوقَّعه:

– لماذا لم ترحل عن البلاد عندما كان ذلك مُيسَّرًا لك؟

قرنتُ حاجبيَّ وقد ازدادت دهشتي، وقلتُ متعجبًا:

– أرحلُ؟!

قال المهيب بصوتٍ هادئٍ:

- ألم تعلم بأنَّ أرضَ اللهِ واسعةٌ؟

انتابني الغضبُ من خوفه ورغبته في الهرب، فقلتُ بجدةٍ:

- أرحلُ؟! وأتركُ لهذا الطاغية بلادنا يرتعُ فيها ويمرح بلا رادعٍ؟ واللهِ لن يكونَ هذا أبدًا.

فَرَدَ الرجلُ المهيبُ قامته وقال بصوتٍ خفق معه قلبي بشدةٍ:

- لكلِ أجلٍ كتابٌ.

قالها ثم استدار مُنصرفًا في اتجاه الجند، تركني أغالب دهشتي من تصرفه الغريب، توقَّف عند مدخل الزقاق لوهلةٍ ثم التفت ناحيتي وقال بصوتٍ ارتجت له الأرضُ من تحت قدميَّ:

«يا خفيَّ الألطاف، نجنا مِمّا نخاف!»

لم يكن أمامي متسعٌ من الوقت للتفكير في معنى ما قاله، ولكنَّ شيئًا ما في نظراته كان يودُّ أنْ يوصل إليَّ رسالةً ما، لكنني لم أفهمها، تجاوزتُ دهشتي سريعًا وأكملتُ عَدوْي بعد أنْ لمحت أطياف الجند وهم يدخلون أول الزقاق، وصلتُ لنهاية الزقاق قاطعًا شارع الأشرفية في منتصفه تقريبًا، أبصرتُ عند نهايته من جهة اليسار بوابة حارة القبط، استجمعتُ ما بقي لديَّ من قوةٍ وعَدَوْتُ بأقصى سرعة حتى وصلتُ إلى البوابة، أخذتُ أدقّ على البوابة بكفِّي بعنفٍ وحِدَّةٍ مُحدثًا ضجيجًا وصخبًا عاليًا في مثل هذا التوقيت المتأخر، صرخت بصوتٍ مرتفعٍ:

«النجدة، يا أهل المروءة والشهامة، أغيثوني!»

لم يتحرك الباب الضخم قيد أنملة، وظلَّ الصمتُ مُخيِّمًا على المكان، سمعتُ صوت ضرب البنادق في الهواء وقد بدا قريبًا للغاية، لمحت أحد الجنود يظهر بالقرب من آخر شارع الأشرفية، جنَّ جنوني وأصابني الهلع، أخذتُ أضرب على البوابة بكلتا يديَّ وقدميَّ مُردِدا كالمجنون:

«الغوث، الغوث!»

ولكنْ، لا مجيب، بدأت أذناي تلتقطان أصوات دبيب أقدام الجنود تقترب من مدخل الحارة، لم يَعُدْ هناك مفرٌّ، لا بُدَّ من المواجهة غير المتكافئة، الرحمة يا الله!

فجأةً، تحرَّك بابُ الحارة قليلًا بما يسمح بمرور شخصٍ واحد فقط وصدر من خلفه صوت امرأةٍ تقول:

- ادخل سريعًا، حفظنا وإياك الرب.

ولجتُ من الفتحة الضيقة بسرعةٍ بالغة، أغلقت المرأةُ البابَ من خلفي وأحكمتْ إغلاقه بالمزلاج، ثم أشارتْ إلى أحد البيوت وهي تقول:

- هيا إلى البيت لننتظر قليلًا حتى ينصرفَ هؤلاء، ثم تذهب لحال سبيلك تصحبك بركة العذراء.

لم أنبس بكلمة واقتفيتُ أثرها بصمتٍ محاولًا التقاط أنفاسي، بعد أنْ تلاحقتْ حتى أوشك قلبي على التوقُّف عن الخفقان، دخلت وراءها إلى البيت الذي أشارت إليه، نظرت إليها مليًّا لأول مرةٍ بعد أنْ هدأ روعي قليلًا، كانت عجوزًا في العَقد السابع من العمر، سمراء البشرة،

ملامحها تحمل آثار جمالٍ مصريٍّ قديمٍ طواه الزمن، ممتلئة الجسد، قصيرة القامة، ترتدي جلبابًا أسودَ فضفاضًا وتضع غطاءً خفيفًا على رأسها يبين من تحته شعرها الفضي وقد عقصته في ضفيرةٍ طويلةٍ، كانت تُعلق صليبًا خشبيًا بارزًا على صدرها.

بادرتُها بالحديث:

- أشكركِ يا خالة على ما فعلتِ، لقد أنقذتِ حياتي.

تجاهلت العجوزُ عبارات الشكر ونظرت إليَّ بريبةٍ، ثم سألت:

- لِمَ يُطاردك الجنود؟

أجبتُ بتردُّدٍ:

- لأني خليل ابن عبد الرحمن الجبرتي.

بدا الارتياحُ على ملامح المرأة العجوز ثم هزَّت رأسها وهي تقول بأسفٍ:

- يا لهذه الأيام الصعبة! لمْ يكن عليك يا ولدي أنْ تدفع ثمن ما فعله أبوك.

عقدت حاجبيَّ دهشةً، وسألتُها:

- أو تعرفينه يا خالة؟!

هزَّت العجوزُ رأسها بأسًى ثم قالت:

- ومَن في برَ المحروسة لا يعرفه، ويعلم ما فعله مع الباشا؟

قاطع حديثنا اقتحامُ أحد الشباب الغرفة بعنفٍ، وهو يقول صائحًا مخاطبًا العجوز:

- ماذا فعلتِ يا أمي؟ لقد أَوْرَدْتِنا مورد التهلكة!

ارتسمت ابتسامةٌ باهتةٌ على شفتيْ المرأة العجوز، ثم قالت مُخاطِبةً الشاب:

- لا تخفْ يا حنا، فالرب يحرسنا!

انتفض حنا بغضبٍ، وصاح قائلًا بعصبيةٍ شديدةٍ:

- يجبِ أنْ نحترسَ نحن أولًا حتى يحرسنا الرب، لا أنْ نلقي بأنفسنا بين فكيْ الذئب ثم نطلب الحراسة من الرب.

تدخلتُ في الحديثِ، محاولًا تهدئة ثورة حنا فقلتُ بهدوء:

- يا أخ حنا، هدئ من روْعك فإنني لن أبقى طويلًا، فقط حتى يهدأ الطريقُ من الجنود، ثم أرحل إلى حال سبيلي.

التفت إليَّ حنا وعيناه تُشعَّان غضبًا، ثم قال بحدَّةٍ:

- وما لنا نحن وما لكم؟ هذا شأنكم أنتم المسلمون وبعضكم، لا عَلاقة لنا بالأمر من قريبٍ أو من بعيدٍ.

ارتسم الغضبُ على وجه العجوز لأول مرةٍ، وصاحت مخاطبة حنا بحدَّةٍ:

- تأدَّبْ يا ولد، فإنَّ للضيف علينا حقًّا ونحن من الصعيد، نُجير من يطلب الجوار.

لانت ملامح حنا وهدأت عصبيتُه قليلًا بعد عبارة أمه الأخيرة، فقال برفقٍ:

- وما أدراك أنت يا أماه أنه يستحق أنْ تُجيريه؟

أجابت العجوز بإصرارٍ:

- قلبي يُحدثني بأنه مظلومٌ، وقلبي لا يكذب أبدًا.

- ولكننا يا أماه...

قاطعته العجوز بحزم قائلةً:

- طُوبى للرُحماء فإنهم يُرْحَمُون.

نظر إليها حنا طويلًا، ثم قال بعينٍ ترقرق فيها الدمع:

- ونحن يا أماه، من يرحمنا؟

اقتربت منه العجوز بهدوءٍ وهي ترمقه بعينٍ حانيةٍ، وقالت بعد أنْ ربَّتَتْ على كتفه:

- طُوبى للرُحماء على المساكين فإنَّ الرحمة تحلُّ عليهم، والمسيح يرحمهم في يوم الدين ويحلُّ بروح قدسه فيهم.

لانت ملامح حنا وظهر على وجهه الخشوع، التفت مواجهًا صليبًا خشبيًا ضخمًا مُعلقًا على الحائط ثم اتكأ على ركبته وشرع يتلو صلاته في تبتلٍ وسكينةٍ.

اقتربتُ منه بلطفٍ ثم ربتُّ على كتفه برفقٍ، وقلتُ:

- أعتذر يا أخي عمَّا سببته لكم من متاعبَ.

التفتَ إليَّ حنا بوُدًّ، ثم ابتسم قائلًا:

- ليس هناك داعٍ للاعتذار يا هذا.

صمت قليلًا، ثم اكتسى صوتُه بنبرةٍ مريرةٍ، واستطرد قائلًا:

- ولكنك بالطبع تعلم ما نُعانيه من شظف العيش وسوء المعاملة في هذه الأيام.

ذكَّرتْني عبارته الأخيرة بما فُرِضَ على الأقباط أنْ يتبعوه في هذه الأيام، فقد مُنِعوا ركوب البغال والخيل، وسُمِحَ لهم فقط بركوب الحمير، كما سُمِحَ لهم بلبس العمامات السوداء دون الملونة، كما مُنِعوا مِن لبس النعال الملونة، ولم يكنْ مسموحًا لهم بالسير في الطرقات إلا على الجانب الأيسر منها، والأغرب أنهم قد مُنِعوا من تعليق صلبانهم في رقابهم أثناء سيرهم بالطرقات، وأذكر أنني قد سألتُ أبي متعجبًا عن سبب تلك الأمور فلم يُجِبْ، فقط عزاها إلى كونهم قد تعاونوا مع الفرنسيس إبَّان احتلالهم للبلاد.

حدَّثْتُه محاولًا تبرير ما يلقاه:

- لعلك لم تنسَ بعد ما فعله جيش المعلم يعقوب.

تدخَّلت العجوز في الحديث قائلةً بهدوء:

- يا ولدي، ليس معنى أنْ يُخطئ أحدُنا أننا جميعًا خاطئون.

بُهِتُّ من عبارة العجوز ولم أُحِرْ جوابًا فأطرقت رأسي إلى الأسفل، في حين استطردت قائلةً وقد بان على تجاعيد وجهها شبح ابتسامةٍ هادئةٍ:

- إنَّ ما يحدث الآن بيننا في هذه الغرفة لَهُوَ غايةٍ مراد أعداء هذا البلد، أنْ ينقسم أبناؤه وتدور العداوة فيما بينهم بدلًا من أنْ يتَّحدوا لمواجهة عدوهم المشترك.

أومأتُ برأسي موافِقًا، ثم قلت:

- والله، لقد قلتِ الحقَّ يا خالة.

قطع حديثنا دويُّ طرقاتٍ عنيفةٍ على باب البيت أعقبه صوتٌ غليظٌ يقول بصرامةٍ:

- افتحوا الباب للتفتيش.

تجمَّدت الدماءُ في عروقي وازدادت سرعةُ ضربات قلبي، التفتُّ إلى العجوز فوجدتُها مغمضةً عينيْها تُتَمْتِم ببعض آيات الإنجيل وقد أمسكتْ يدُها بالصليب المعلَّق في صدرها، كان حنا زائغ النظرات وقد ارتسمت على وجهه علاماتُ الخوف والهلع، أخذ يتلفت حوله بذعرٍ، ثم صاح في أمه قائلًا:

- الآن، ما العمل؟

بَادَرْتُ بالقول وأنا أتَّجه صوب الباب:

- إنهم يطلبونني أنا، لا شأن لكم بالأمر بعد الآن، سوف أخرج لهم وحدي.

وضعت المرأةُ العجوز جسدها في طريقي إلى الباب، ثم قالت بجزمٍ:

- كلا! أنت الآن في جوارنا، ولن نسمح أن يمسَّكَ سوءٌ.

نظر إليها حنا، ثم قال:

- ولكن يا أمي...

قاطعتْه العجوزُ بنظرةٍ حازمةٍ، ثم قالت:

- طوبى لمن اخترته وقبلته ليسكن في ديارك إلى الأبد.

أطرق حنا رأسه قليلًا، ثم رفعها وقد اغرورقت عيناه بالدمع، جال ببصره بين أمه والصليب الخشبيَ المعلّق، اقترب منها، قبّل يدها ورأسها، ثم قال مبتسمًا بهدوء:

- لتكن مشيئة الرب.

فجأةً، انخلع بابُ البيت الخشبيَ القديم أمام عنف ضربات الجنود وانفلق إلى شقّين، اندفع الجنود سريعًا إلى الغرفة وحاصرونا فيما يُشبه الدائرة، حاول أحدُ الجنود الاقتراب مني، إلا أنَّ المرأة العجوز حالت بيننا فهوى عليها الجندي بصفعةٍ هائلة أسقطتها أرضًا، اندفعتُ من فوري أساعدها على الوقوف من جديدٍ، وهي تئنُّ من الألم بعد أنْ سالت الدماءُ من فمها.

انتفض حنا غضبًا لرؤية أمه على تلك الحال، حاول الهجوم على الجنود إلا أنهم تكالبوا عليه وأبرحوه ضربًا حتى استكان جسده وخارت قواه، كان جلُّ همي هو المحافظة على العجوز النبيلة من بطش الجنود.

اقترب أحدُ الجنود مني، وقد بدا عليه أنَّه كبيرهم، كان يمشي متبخترًا بخيلاءَ، يرمق الجميع بنظرة تعالٍ واستكبارٍ، أخذ يتفرّس في ملامحي ثم صفعني بغتةً على وجهي وقال:

- ما بالك تفرُّ يا ابن الجبرتي، ألا تعلمُ أنه لا يمكن لأحدٍ على وجه الأرض أنْ يفرّ من الباشا ؟

سالت الدماءُ من فمي، وأوشكت معها دموعي أنْ تنهمر، إلا أنني قاومت حتى لا أنهار أمامه، التزمتُ الصمت بعد أنْ أيقنتُ بعدم جدوى المقاومة، ونظرتُ إلى الأرض، كان جرح كرامتي يؤلمني أكثر من جرح فمي، تعمَّد اللعينُ إذلالي فبصق على وجهي بازدراء ثم قال بشماتةٍ واضحةٍ:

- ويحك، أيحتمي الرجالُ بنساء القبط الآن ؟ ! ألم يكن أكرم لك أنْ تنصاع لأوامر الباشا ؟ !

كان اللعينُ يُحاول استفزازي وإشعال فتيل غضبي، لكنني حافظتُ على صمتي حرصًا على سلامة العجوز وابنها، إلا أنه استمرّ في وقاحته قائلًا:

- لا بأس، إنْ لم يُحسِن الجبرتي تربيتك فسنقوم نحن بإعادة تربيتك في الجهادية من جديدٍ .

كان حنا لا يزال متكومًا على الأرض يئنُّ من الألم، فلما سمع عبارة الجندي الأخيرة انتفض واقفًا فجأةً وانتزع الصليب الخشبيَّ عن الحائط، هوى به بكلِ ما أوتي من قوةٍ على رأس أقرب الجنود إليه وهو يصيح قائلًا:

- والمسيح لن يمسَّه أحدكم بسوء ما دام في جوارنا .

نزل الصليبُ الخشبيُّ الضخمُ على رأس الجندي كالصاعقة، فخرّ صريعًا من فوره، دبَّت الفوضى والذعرُ في أرجاء الغرفة، تكوّمتُ أنا

بجسدي على العجوز أحاول حمايتها في حين انشغل حنا بالقتال، كان المسكين يُقاتل بضراوةٍ وشجاعة، إلا أنَّ عددَهم كان كبيرًا، وقفتُ أسانده بعد أنْ تيقَّنتُ من هزيمتِه، شرعتُ ألوح بقبضتي وأركل من يقتربُ مني. فجأةً، لمحتُ أحدَ الجنود يُخرج خنجرًا من طيَّات ملابسه متجهًا صوب حنا، حاولتُ أنْ أمنعه إلا أنني تلقيتُ ضربةً قويةً على مؤخرة رأسي أسقطتني أرضًا، صرختُ بأعلى صوتي مناديًا باسمه، التفتَ إليَّ، لكنَّ القدر لم يُمهله، غرز الجندي نصل خنجره في بطن حنا بعنفٍ، ثم حرَّكه يمينًا حتى خرجت أحشاؤه، أصدر حنا صيحةً هائلةً واتسعت عيناه عن آخرهما، نظر إلى بطنه، مدَّ يده يُحاول الإمساك بجرحه، إلا أنَّ عينيْه جحظتا من الألم ثم سقط على الأرض متكومًا وجسده ينتفض بشدة، نظر صوب أمه وقد لانت ملامحه فجأةً، ابتسم وشخصت عيناه إلى أعلى.

حاولت العجوز التملُّص من الجندي الذي يقيِّد حركتها، إلا أنه دفعها بعنفٍ فسقطت على وجهها، زحفت حتى بلغت جثمان حنا، احتضنته بشدةٍ وانخرطت في نوبة بكاء حادَّةٍ، أخذتْ تمسح العرق والتراب عن وجهه ثم لثمت جبينه، أخذت تُردد بذهولٍ:

- مع القديسين والشهداء، مع القديسين والشهداء يا ولدي.

تكالب علينا الجنودُ من كل اتجاه، وشرعوا يركلوننا بأقدامهم ويضربوننا بمؤخرات بنادقهم، كنتُ لا أزال متكومًا على الأرض بعد إصابتي في رأسي، كانت الضرباتُ تُصيبني في كلِ مكانٍ حتى أصبحتُ لا أدري من أين تأتي.

انتهى الجنودُ من ضربنا وتأديبنا حتى أصبحتُ لا أقوى على الحراك، أشار إليهم كبيرُهم بيده، فشرعوا يسحبوننا من أقدامنا على الأرض إلى خارج البيت، كانت العجوزُ تُسحَبُ على وجهها وهي تردِدُ باكيةً: «مع القديسين والشهداء يا حنا»

أوقفنا الجنود على أقدامنا قسرًا، بعد أنْ كبّلونا بالحبال وربطونا إلى حائطٍ ضخم بالقرب من بوابة حارة القبط، كانت قواي قد خارت تمامًا حتى أنني لم أعُدْ قادرًا على الوقوف.

اقترب كبيرُهم مني، وحدَجَني بنظرةٍ مليئة بالغل والشماتة، قال بلهجةٍ مسرحيةٍ وبنبرةٍ جَهْوَرِيةٍ، مخاطبًا أهل الحارة الذِين تجمّعوا لرؤية ما يحدث:

- لقد ارتكب هؤلاء المجرمون من الجرائم ما تقشعرُّ له الأبدان ويشيب له الولدان.

صمتَ قليلًا، وأخذ ينظرُ في وجوه المحيطين به ليرى أثر كلماته فيهم، استطرد قائلًا بذات النبرة الجهْوَرِية:

- لا أحد يعصي أوامر مولانا الباشا وليَ النعم.

تبادل أهلُ الحارة النظرات فيما بينهم بخوفٍ ظاهر، ثم تبادلوا الهمهمات غير المفهومة، ابتسم كبيرُ الجند لإتيان كلماته مفعولها، ومشى كالطاووس متبخترًا بقوّته وهو يقول موجهًا حديثه للعجوز:

- لقد آويتم مجرمًا فارًا من الجهادية، ولم تكتفوا بذلك وحسب؛ بل قاومتم قوات الباشا وقتلتم أحد جنوده إثمًا وعدوانًا.

صمتَ قليلًا ثم قال بصوتٍ تفوح منه رائحةُ الموت:

– وهذه جريمةٌ عظمى عقوبتُها الموت.

اقترب بوجهه منّي كالأفعى الرَّقْطاء، ثم قال:

– الموت رميًا بالرصاص.

سَرَتْ بعضُ الهمهمات ووَلْوَلَتْ بعضُ النسوة من أهل الحارة بصوتٍ خفيضٍ، تجاهلهم كبيرُ الجند، وقال موجهًا حديثه لجنوده:

– هيا استعِدُّوا لتنفيذ العقوبة!

شرع الجنودُ في تنفيذ الأمر، فتراصُّوا صفًا واحدًا في مواجهتنا وهم يُعَبِّئون بنادقهم بالبارود، ابتعد أهل الحارة عنّا توقيًا لأذى بارود البنادق.

نظرتُ إلى العجوز، كانت تنظرُ إليَّ مطمئنةً بابتسامةٍ راضيةٍ، شرعتُ أرددُ الشهادتين، وسمعتُ المرأة العجوز تتمتم بصوتٍ مسموعٍ:

«أبانا الذي في السموات، ليتقدَّس اسمُك، ليأتِ ملكوتك، لتكنْ مشيئتك، كما في السماء كذلك على الأرض، خبزنا كفافنا أعطنا اليوم، واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا».

نظرتُ إليها مرةً أخرى بعد أنْ شعرتُ بالذنب على ما أصابها بسببي، ثم قلتُ:

– لا تخافي ولا تحزني يا أمي!

التفتتْ نحوي، فكان وجهُها مُشرقًا يشعُّ بهاءً وضياءً، قالت وهي تبتسم ابتسامةً واهنةً:

- مع القديسين والشهداء يا ولدي.

كان آخر ما ترامى إلى سمعي قبل أنْ تُظلم الدنيا من حولي، هو صوت البنادق مختلطا بصياح كبيرِ الجنود، قائلًا:

- اضربْ!

***

- خلاص، استريحت يا شحاتة؟ موتُهم كلهم؟

قالها الدكتور حسين، عقب أنْ أوقف جهاز التسجيل، أومأتُ برأسي بهدوء، وأنا أمسحُ دموعي براحتي بعد أنْ تساقطتْ حزنًا على ذكرى وفاة خليل وحنا وأمه، ناولني الدكتور منديلًا ورقيًا، أخذته من يده ثم أسندتُ رأسي على مؤخرة المقعد، أغمضتُ عينيَّ وغرقتُ في بحورٍ من الصمت المطبق.

مدَّ يده بكوب من الماء، وهو يرمُقني متفحصًا تعبيرات وجهي، رشفتُ منه رشفةً صغيرةً ثم وضعته على المنضِدة، فتح مفكرته، بدأ يُقلِب في صفحاتها ويقرأ ما دوَّنه فيها من ملاحظاتٍ، قال بعد فترةٍ طالت، كاسرًا حاجز الصمت والسكون:

- عندك حاجة تاني عاوز تحكيها يا شحاتة؟

هززتُ رأسي برفقٍ، وقلتُ:

- لا يا دكتور، أنا خلاص رحلتي انتهت لحدّ كده.

رماني بنظرةٍ مُتعجبةٍ، ثم قال:

- يعني إيه انتهت؟ أنا لسه ما كتبتش تقريري.

نظرتُ إليه وقد ارتسمت على وجهي ابتسامةٌ بائسةٌ:

- دي بقى مش الرحلة بتاعتي.

رفع الدكتور حاجبيْه بدهشةٍ، ثم قال:

- تقصد إيه بالكلام ده؟

تأملْتُه بإشفاقٍ، وأنا أقول:

- قصدي إن أنا عرفت حقيقة نفسي، دلوقتي بقى الدور عليك.

دوَّن بعض الملاحظات في مفكرته ثم قال بعد فترةٍ من التفكير العميق:

- أنت النهاردة كلامك غامض يا شحاتة، وأنا مش فاهم منك حاجة.

هززتُ رأسي، ثم قلتُ بهدوء:

- مش مهم يا دكتور، خليني أكمل اتفاقي معاك وأحكي لك باقي حكاية أمجد.

تأمَّلني طويلًا، ثم قال:

- ماشي يا شحاتة، خليك على راحتك.

ضغط على جهاز التسجيل بيده، مُعلنًا بداية النهاية الحقيقية لرحلتي.

***

وصلتُ بصحبة أحمد إلى المشرحة، مشرحة زينهم، كان الطريقُ من المستشفى إليها ليس ببعيدٍ، لكنه كان بالنسبة لي كأنه سفرُ العمر كله، كنتُ طوال الطريق أُقدِمُ قدمًا وأُؤخِرُ الأخرى، لا أجرؤ على الإسراع في خطاي، لا أعلم كيف سيكون الحال عند رؤيتي لأمجد، هل حقًّا ذهب أمجد بلا رجعة؟ لماذا أمجد؟ أستغفر الله العظيم، ماذا سأقول لأمه؟ لا بُدَّ أنْ يدفعَ مَن قتله الثمن.

- تعالَ يا عمي، اتفضل مِن هنا!

قالها أحمد وهو يسحبُني من يدي للدخول إلى قاعة الاستقبال في المشرحة، تبعتُه كالمسلوبِ إرادتُه، كانت القاعةُ خاويةً في هذا التوقيت المتأخر من الليل، لمبات النيون مترامية في سقف القاعة وقد عطب أغلبها، فكانت الإضاءةُ مرتعشةً ضعيفةً باهتةً كلون الحياة التي أعيشها.

رَبَّتَ أحمد على كتفي بشفقةٍ واضحة، وأجلسَني على أحد الكراسي المخصَّصة لانتظار الزائرين، ثم قال:

- لحظة واحدة، هنادي على الدكتور إللي كتب التقرير عشان يتكلم مع حضرتك.

نظرتُ إليه بِوَهَنٍ، ثم قلتُ وأنا أبكي دموعًا لم تُطاوعْني عيناي فسكبتهما:

- فين أمجد؟ عاوز أشوفه يا ابني!

سالت الدموع من عينيْ أحمد واحتضنني بذراعيْه، ثم قال:

- هنشوفه يا عمي، هنشوفه، بس لازم نجيب الدكتور إللي كتب التقرير الأول.

تركني أحمد وهو يُغالب دموعه الغزيرة، غاب عن ناظري سريعًا في أحد ممرَّات المشرحة، تركني لعواصف الأوهام ومتاهات الأحزان، كان الجوُّ مُقبضًا كئيبًا، قاعة الاستقبال كانت خاويةً، إلَّا مِن موظفٍ يشغل نفسه بمشاهدة تلفاز متهالكٍ طالعتْني من خلال شاشته صورةٌ مهتزّةٌ للرئيس وهو يقول ضاحكًا:

«خليهم يتسلُّوا»

لم يتمالك الموظفُ نفسه أمام سخرية الرئيس، فلوَّح بيده وأصدر صيحة اعتراضٍ غير مهذَّبةٍ، ثم تمتم قائلًا بسخطٍ: «مفيش فايدة»، انتبه بعدها لوجودي معه في القَاعة، فتلفَّت حوله بحذرٍ ثم تشاغل بالعبث بمحوّل القنوات وهو يسبُّ ويلعن بصوتٍ خفيض.

لم أكن أتخيَّل قطَّ أنني مِن الممكن أنْ آتي لمثل هذا المكان لرؤية أمجد، أحسستُ برغبةٍ عارمة في البكاء إلا أنَّ الدموع كانت لا تزال مُتحجرةً في مقلتيَّ، حسبنا الله ونعم الوكيل!

- أخ شحاتة، مش كده؟

التفتُّ تجاه صاحب الصوت، كان شابًا في العَقد الرابع من عمره، طويل القامة، قويَّ البنيان، أبيض البشرة مشوبًا بالحمرة، مصفف الشعر، له شاربٌ كثيفٌ منمَّقٌ بعنايةٍ بالغةٍ، يرتدي قميصًا أبيضَ وبنطلونًا داكنًا، يُعلِق في حزامه جرابًا بداخله مسدسٌ.

تأمّلتُ مظهره غير المريح، ولم أردَّ عليه بعد أنْ شعرت بانقباض في صدري تجاهه، اقترب الشابُّ مِن مجلسي، فاحت منه رائحةٌ قويةٌ

لعطرٍ نفَّاذٍ، يبدو من رائحته أنه باهظ الثمن، قال وهو يتصنَّع على وجهه ملامح الحزن والأسى قائلًا:

- البقية في حياتك.

رمقتُه بنظرةٍ حادَّةٍ، وقد استعرتْ بداخلي نيرانُ الغلِ والغضب بعد أن استنتجتُ هويته، تجاوز الشاب نظرتي العدائية الواضِحة وقال بنبرةٍ وديةٍ مادًا يده لمصافحتي:

- الرائد شريف عبد الدايم.

تجاهلتُ يده الممدودة أمامي، ورميته بنظرة احتقارٍ، أدرك الشاب ما يختلج في نفسي فقال بنبرةٍ ذات مغزى:

- أمن دولة.

أسرع موظفُ الاستقبال بإطفاء جهاز التلفاز أمامه، وأخرج مصحفًا أخذ يقرأ فيه وهو ينظر إلينا من طرفٍ خفيٍّ برعبٍ.

جلس شريف على المقعد المجاور، وعدَّل من وضع مسدسه في جانبه، ثم قال:

- شد حيلك يا عم شحاتة، أمجد كان ولد جدع.

لم أردَّ عليه مجددًا، أخذتُ أعضُّ على نواجذي من الغيظ، فقال:

- ألف رحمة ونور عليه.

نظرتُ إلى الأسفل وأسندتُ مرفقيَّ على ركبتيَّ محاولًا تمالُك أعصابي قدر المستطاع، ثم خاطبته بصوتٍ خرج باردًا برودة ثلاجات المشرحة:

- انت تعرفه؟

أجاب بنبرةٍ أحسَسْتُ فيها بالتصنُّع:

- أُمَّال يا حاج! الله يرحمه كان جدع وجريء.

رفعتُ رأسي ونظرتُ إلى ملامحه طويلًا، ثم سألته بوجهٍ جامدٍ جمود الموتى وقلبي يحترق بداخلي:

- انت إللي رحت علشان تقبض عليه؟

تأمَّلني قليلًا، ثم أخرجَ علبةَ سجائر ناولني منها واحدةً وأشعل الأخرى، سحب نفسًا عميقًا ثم أخرج سحائبَ من الدخان أخذتْ تتراقص أمام وجهه بهدوء مستَفِزٍّ، قال وهو يرمُقني بنظرةٍ مريبةٍ:

- بُص يا حاج، أنا بقَّالي سنة تقريبًا متابعه هوا وشلته.

ألقيت بالسيجارة التي ناولني إياها على الأرض، وقاطعته قائلًا بحِدَّةٍ:

- انت إللي رحت علشان تقبض عليه؟

بدا عليه التحفُّز والغضب، إلا أنَّه تمكَّن بطريقةٍ غريبةٍ مِن السيطرة على أعصابه فلانَتْ ملامحه فجاةً وقال بصوتٍ ناعم:

- بُص يا حاج، أنا مقدر شعورك، الضنا غالي مفيش كلام، وأمجد الله يرحمه كان واد متربي وابن ناس.

سحب نفسًا آخر من سيجارته وهو يتأمَّلني ليرى أثر كلامه على وجهي، ثم قال بالنبرة الناعمة المستفزَّة نفسها:

- لكن برضه هوا غلط، البلد مولعة وعلى كف عفريت، وأعداء الوطن شغالين جامد، والمؤامرات عماله تتحدف علينا من بره وجوه، يقوم هوا يقع في الفخ ويعمل منشورات بتحرض على قلب نظام الحكم، ده كلام برضه يا حاج؟ !

انتفضتُ واقفًا من الغضب، وصحتُ في وجهه بحِدَّةٍ:

- يعني انت إللي قتلته !

لم يتحرك شريف من مقعده، ولم يظهر على ملامح وجهه أيُّ أثرٍ لردة فعلي، وقال بهدوء:

- لأ يا حاج، إحنا ما قتلناهوش، إللي حصل ده كان قضاء وقدر، إحنا كنا عاوزين نعرف بس مين إللي ورا الشباب دول وبيحرضهم على قلب نظام الحكم.

قاطعته بحِدَّةٍ:

- ولمَّا معرفتوش قتلتوه !

أجاب بالهدوء البارد نفسه:

- لأ، إحنا رحنا علشان نمسكهم، لكن أمجد هوا إللي حاول يهرب وقاوم الحكومة، ده حتى مسك طرابيزة حديد علشان يضربنا بيها، لكن واحد من العيال العساكر مسك طرابيزة تانية وضربه بيها، أمر الله، وإنت راجل مؤمن، يعني تقدر تسميها خناقة، إنما القتل ده ما كانش وارد على الإطلاق.

صحتُ فيه قائلًا:

- أمَّال هوا مات لوحده يعني؟!

بدتْ ملامحُه تتغيَّر قليلًا، إلا أنَّه تمالك نفسه مجددًا وقام واقفًا ووضع ذراعه على كتفي وهو يقول بنعومةٍ:

- شوف يا حاج، إللي حصل حصل خلاص ومفيش حاجة في إيدينا دلوقتي، والتقرير إللي معاك ده مش هنعرف تعمل بيه حاجة، والحي أبقى من الميت.

صمتَ قليلًا، سحب نفسًا من سيجارته ثم نفثه بجدَّةٍ، وأردف قائلًا:

- أمجد الله يرحمه، مات في حادثة سير، كان ماشي جنب المستشفى، عربية مجهولة خبطته وهوا بيعدي الشارع، هنعمل محضر بكده، وهنكتب تقرير طبي تاني بالحادثة، وأنا شخصيًا، مسئول إني أجيبلك التعويض إللي يستحقه لحد باب بيتك.

تمهَّل قليلًا، ثم ربَّت على كتفي بتعاطُفٍ مصطنعٍ وقال بنبرةٍ ذات مغزى:

- على فكرة، ده هيبقى مبلغ كويس قوي وأكيد هينفعكوا في الأيام الصعبة دي، أظن كده يبقى كل الأطراف مَرضيَّة.

دفعتُ ذراعه عن كتفي بعنفٍ، وصِحْتُ فيه بحدَّةٍ:

- عاوزين تاخدوه مني حيَ وميت، يا ظلمة يا ولاد الكلب.

تغيَّرت ملامحه فجأةً، وارتسمتْ على وجهه علاماتُ الغضب الشديد وتبدَّل صوته غليظًا وهو يقول بنبرةٍ مُهددةٍ:

- بُص بقى يا راجل انت، أنا مستحملك بقالي كتير علشان مقدّر الظروف إللي انت فيها، لكن قلة أدب أنا مش هاسمح.

نظرتُ إليه بتحدٍّ سافرٍ وأنا أقول:

- يعني هتعمل إيه يعني؟

لانت ملامح وجهه مجددًا، ثم قال بنبرته الناعمةِ المستفزةِ:

- مش مهم أنا هاعمل إيه، لإنك أكيد عارف، لكن المهم إنت هاتعمل إيه؟

أجبته بجدَّةٍ:

- أنا هاوديكوا كلكوا في ستين داهية، وهبلغ النيابة عنكوا يا مجرمين، إيه عايزين تقتلوا القتيل وتمشوا في جنازته!

ابتسم شريف ابتسامةً صفراءَ، ثم ألقى بسيجارته بعد أنْ فرغ منها على الأرض، دهسها بقدمه وهو يقول:

- التقرير الطبي إللي معاك، مش هاتقدر تعمل بيه حاجة، ده صورة ضوئية، والدكتور إللي كتبه، مش هايشهد معاك في المحكمة لأنه هيغير رأيه، كمان هنجيب واحد يشهد إن هوا إللي خبط أمجد بالعربية بتاعته، وبكده يا حلو، هايكون ضاع عليك التعويض إللي ممكن تاخده لو سمعت كلامي، ده غير إن أنا هاتهمك أنت وأكرم ابنك التاني، إنكوا كنتوا مشاركين مع أمجد في مؤامرة قلب نظام الحكم، وطبعًا إنت عارف ده معناه إيه.

صمت قليلًا وهو يرمقني بنظراتٍ مَقيتةٍ، ثم قال:

- معناه ضياع مستقبلك ومستقبل ابنك التاني كمان، ده بخلاف الفصل من الوظيفة، يعني لا هاتطول بلح الشام ولا عنب اليمن، وتخيل بقى مراتك وبنتك لوحدهم في الحياة الصعبة دي، عايشين بمرتب الحكومة بتاع مراتك، أكيد هيمشوا على حل شعرهم.

سالت الدموع من عينيَّ، بعد أنْ أحسسْتُ بالضعف والعجز فصرختُ في وجهه:

- اخرسْ قطع لسانك! أنا مراتي أشرف منك ومن أهلك.

تجاهل إهانتي الأخيرة واستمرّ يضغط على مشاعري وهو يقول:

- تفتكر يا شحاتة، أمجد هايكون مستريح في الوقت ده في تربته؟

هززتُ رأسي بعنفٍ مُحاوِلًا تناسي ما يقول، ثم قلتُ وأنا أنتحب:

- أنا في الجحيم، أنا في الجحيم ظالم.

أدرك أنه قد نجح في مسعاه، فاقترب مني كالشيطان مُوَسْوِسًا بهدوء بعد أنْ ربَّت على كتفي:

- بس هو في الجنة، مع الصديقين والشهداء.

خارت قواي وخانتني قدماي، لم أعدْ قادرًا على الوقوف فسقطت على كرسي الانتظار مُنهارًا وأنا أبكي بصوتٍ مرتفعٍ، جلس شريف بجواري وهو يقول:

- وبعدين مش يمكن إللي حصل ده نعمة من المولى عز وجل، حد يطول يا عم شحاتة إن ابنه يبقى شهيد ويشفع له يوم القيامة؟

قالها ثم ربَّت على فخذي، وقال ضاحكًا:

- يا راجل يا طيب، في حدّ عاقل يرفس النعمة برجليه؟

أخذتُ أرددُ بذهولٍ:

- أنا في الجحيم ظالم، حسبنا الله ونعم الوكيل.

مدَّ شريف يده وهو يقول بنبرةٍ متصنعةِ الودِ:

- يللا يا عم شحاتة، هات التقرير إللي معاك، أظن ما بقاش له لازمه دلوقتي.

أخذتُ أتلفتُ حولي يائسًا، لعلي أجد من يُنقذني من براثن هذا الشيطان، لم أجد أحدًا، كان موظفُ المشرحة متسمرًا في مكانه، ينظرُ لي باكيًا ولا يقوى على النطق بكلمةٍ، نظرتُ إلى التقرير في يدي نظرة وداعٍ أخيرةٍ، مددتُ يدي المرتعشة به إلى شريف.

أخذه بلهفة، وبانت على ملامحه علاماتُ الارتياح، مزَّقه قطعًا صغيرةً، يستحيلُ معها جمعه من جديد، انفرجت شفتاه عن ابتسامة واسعة، وهو ينثر القطع المُمزّقة على أرضية قاعة الاستقبال، انكفأتُ على وجهي أحاولُ لملمة قطع الأوراق الصغيرة، وقد تبعثرت في أرضية القاعة، كلّما جمعت جزءًا وضعته في فمي وابتلعتُه، حتى لا يتمكن أحدٌ من أخذه مني مجددًا، انتفض موظف المشرحة مِن مكانه، أتى إليَّ مُسرعًا وحاول معاونتي على النهوض عن الأرض وهو يقول بنبرةٍ باكيةٍ:

- معلش يا حاج، ربنا يعوض عليك.

أسعدني أنْ يُعاونني بعد أنْ ظننتُ ألَنْ ينجِدني أحدٌ، فقلت وأنا أنظر إليه باسمًا:

– ساعدني يا بني علشان أجمع أمجد.

نظر إليَّ الموظف بإشفاقٍ، ثم قال مُخاطِبًا شريف:

– لا حول ولا قوة إلا بالله، الراجل دماغه راحت.

نظر شريف حوله بضيقٍ، ثم خاطبني بتأفُّفٍ قائلًا:

– وبعدين يا عم شحاتة، مش إحنا اتفقنا خلاص؟ يللا امسك نفسك وقوم علشان تتعرف على الجثة وتستلمها وتمضي على محضر الحادثة.

قاطعَنا صوت أحمد يقول بجدَّةٍ:

– إيه يا عمي؟ في إيه؟

اقترب أحمد مني على الأرض وربَّت على كتفي وهو يقول:

– متخافش منه يا عمي، مش هيقدر يعملك حاجة، النظام إللي يخاف من شوية شباب في الجامعة يبقى نظام ضعيف وهش وقربت جدًا لحظة نهايته.

أشعل شريف سيجارةً أخرى، ثم قال مخاطبًا أحمد بسخريةٍ:

– إيه يا سي أحمد، أنتّ مش خلاص مضيت على اعترافك، سيب الراجل بقى يّطلع له بأيَ مصلحة.

رمقه أحمد بغِلٍ، وقال:

- مصلحة! هوا من إمتى الحدَّاية بتحدف كتاكيت يا باشا؟!

تجاهل شريف إهانة أحمد له ثم قال بصوتٍ مرتفعٍ مناديًا على أحد معاونيه:

- جمال، يا جمال.

اقترّب منه على الفور أحد الأمناء مرتديًا زيَّه الرسميَّ وهو يقول بأدبٍ جمٍّ:

- تمام يا فندم.

رمقه شريف باستعلاء، ثم قال بنبرةٍ متعاليةٍ:

- شوف الدكتور عبدً الراضي خلص التقرير إللي طلبناه منه وألا لسه.

أومأ الأمين برأسه، ثم قال:

- كلُّه تمام يا فندم، الدكتور عبد الراضي كتب التقرير الطبي ومنتظرين تعليمات معاليك.

هزَّ شريف رأسه برضًا، ثم قال:

- طيب يللا خليه يحصلنا على التلاجة، علشان الراجل يمضي على التقرير والمحضر، خلينا نقفل الموضوع المهبب ده، جتكوا القرف.

هزَّ الأمين رأسه، وانطلق مُسرِعًا لإبلاغ الطبيب بتعليمات شريف، نظر أحمد لي بأسًى ثم قال:

- ليه كده يا عمي، هوا دم أمجد رخيص للدرجة دي؟

لم أردَّ عليه ودخلت في نوبة بكاء مريرةٍ، أكمل هو متسائلًا:

- يا عمي همَّا هدِدوك بجاجة؟

لم أردَّ مجددًا، في حين تدخَّل موظف المشرحة في الحديث وقال مخاطبًا أحمد:

- يا ابني سيبه في حاله، هوا مش ناقصك والحمل عليه كبير، ربنا يكون في عونه، بكره تكبر وتعرف يعني إيه مسئولية بيت وعيال.

أطفأ شريف سيجارته وهو يقول بعَجَلٍ:

- يللا يا اخوانا، ساعدوا الراجل علشان يقف وسندوه لغاية التلاجة، خلونا نخلص، مش ناقصين عَطلة أكتر من كده.

عاونَني الموظف وأحمد على الوقوف بصعوبةٍ بالغة، كانت قدماي بالكاد تقوَيان على حملي، استندت عليهما للتَحرُّكً في اتجاه غرفة الثلاجة، كانت الغرفة في نهاية الممر أمامنا، كان الطريق طويلاً، كنت أجرُّ قدميَّ على الأرض جرًا، كنتُ كالمحكوم عليه بالإعدام، وهم يقتادونه إلى غرفة تنفيذ الحكم.

دخلنا الغرفة، وقد تسارعتْ أنفاسي وتعالى صوت دقَّات قلبي، كانت باردةً، منقبضةً وكئيبةً، جاءنا صوت أحد الأشخاص وهو يقول:

- كله تمام يا شريف بك، إحنا في الخدمة.

التفت شريف تجاه صاحب الصوت، وقال بنبرةٍ راضيةٍ:

- طول عمرك بتنجز يا عبد الراضي.

ابتسم الدكتور عبد الراضي ابتسامةً صفراءَ لزجةً، ثم قال بمداهنةٍ فاقعةٍ:

- خدامك عبد الراضي، طول ما معاليك عني راضي.

قهقه شريف ضاحكًا، ثم قال:

- طيب يا سيدي، خلصنا بقى من الموضوع الغم ده بسرعة.

تحرَّك عبد الراضي بسرعةٍ، وفتح إحدى الثلاجات ثم أشار إليَّ بالاقتراب، اقتربتُ بخطواتٍ مرتعشةٍ، مدَّ يده وفتح كيسًا أسودَ يُغلف الجثمان، كان أمجد راقدًا بسلامٍ، وجهه بشوشٌ، شاحبٌ مشوبٌ بزرقة الموت.

حاولتُ التحدُّث فلم أستطع، اختنقت الكلماتُ في حلقي، كان حلمي وأملي راقدًا أمام عينيَّ، انكفأتُ عليه أقبله بذهولٍ، سالت دموعي كما لم تَسِلْ من قبل، أخذتُ أمسح بكفي على وجهه بحنانٍ وشوقٍ، كانت خصلةٌ من شَعره قد سقطت على جبينه الشاحب فأعدت ترتيبها، احتضنتُه بلهفةٍ وشوقٍ، أحسستُ ببرودته تنتقل إليَّ.

أبعدني أحمد عنه برفقٍ، وهو يقول:

- خلاص يا عمي، وحِّد الله.

أفلتُّ من قبضته، ثم اقتربتُ من جثمان أمجد مرةً أخرى ولثمتُ جبهته، دنوتُ من وجهه ثم قلتُ بصوتٍ باكٍ:

- سامحني يا بني، أبوك ضعيف وغلبان.

خاطب شريف الطبيب بجدَّةٍ قائلًا:

- ما تخلّص يا دكتور، خلينا نمشي من هنا.

اقترب عبد الراضي مني بحذرٍ، ثم قال:

- بتمضي وألا بتبصم يا حاج؟

أجابه شريف بسخريةٍ:

- لأ بيمضي يا دكتور، دا راجل متعلم ومثقف.

ناولني عبد الراضي الأوراق، وقّعتُها دون أنْ أنظر إلى ما كُتب فيها، اقترب مني شريف مبتسمًا مادًا يده لمصافحتي، لم أمد يدي إليه، قلتُ له بصوتٍ ميتٍ:

- أنا في الجحيم، أنا في الجحيم ظالم.

أومأ شريف برأسه متفهمًا، ثم قال:

- ولا يهمك يا شحاتة، أنا مقدر الموقف إللي أنت فيه، بكره الصبح هنخلّص الإجراءات كلها، وتقدر تستلم الجثة، وزي ما وعدتك، يومين بالكتير والتعويض هايكون عندك، هايوصلك لغاية باب البيت.

قالها، ثم التفت مخاطبًا أحمد:

- وأنت يا أحمد، روح لأمك وإخواتك، والتفت لمذاكرتك، وسيبك من الكلام الفارغ إللي بيضحكوا بيه عليكوا.

لم يردَّ عليه أحمد واكتفى بأنْ حدجه بنظرةٍ مليئةٍ بالغِل والغيظ، أخرج شريف من جيبه كارتًا شخصيًا وضعه في جيبي وهو يقول:

- ده الكارت بتاعي، لو احتجت لأيَ حاجة ابقى كلمني، إحنا عمرنا ما بننسى الرجاله بتاعتنا.

انصرف شريف عقب أنْ أنهى عبارته الأخيرة، انصرف وقد تركني جسدًا خاويًا، جسدًا بلا روح، كنت أحسُّ بأنَّ روحي معلّقةٌ في سقف الغرفة تنظر وتُراقب ما يجري كأنها تُشاهد فيلمًا، شاهدتُ عبد الراضي يُغلق الكيس الأسود على جثمان أمجد وهو راقدٌ بلا حولٍ أو قوةٍ، رأيته يُغلق باب الثلاجة، يُغلقها على روحي.

انتبهتُ على صوت أحمد وهو يقول:

- يللا يا عمي علشان أروَّحك.

قلتُ بوهنٍ شديدٍ:

- لا يا بني، روح أنت لأهلك وسيبني أنا محتاج أتمشَّى لوحدي شوية.

خرجتُ من باب المشرحة عقب أنْ ودَّعني أحمد، على وعدٍ بلقاء في الغد لإنهاء إجراءات استلام جثمان أمجد، سرتُ هائمًا على وجهي، لا أعلم أين أذهب، كانت الرؤية مشوَّشةً، كان عقلي عاجزًا عن استيعاب ما حدث.. هل حقًا تنازلتُ عن حق ابني؟ ماذا سأقول لأمه؟ ماذا سأقول لأكرم؟ أحسَسْتُ بأنَّ شياطينَ الإنس والجن قد تكالبت عليَّ جميعًا كي تسلبني إرادتي، كي تسلبني روحي، كي تسلبني عقلي، أخذت أرددُ بلا وعيٍ، وأنا أرى أطيافًا وخيالاتٍ تتراقصُ من حولي:

«أنا في الجحيم، أنا في الجحيم ظالم»

لم أعُدْ إلى منزلي منذ ذلك اليوم المشئوم، ظللتُ هائمًا على وجهي، أطوف في الشوارع والأزقة بالقرب من المشرحة، كنت أنام

بالقرب من أيَ مسجدٍ مِن المساجد المنتشرة في تلك المنطقة، يومًا أبيتُ على باب مسجد السيدة نفيسة، يومًا على باب علي زين العابدين، يومًا على باب السيدة عائشة، بعد عدَّة ليالٍ، لا يعلم عدَّتها إلا الله وجدت الدنيا وقد انقلبت من حولي.

كان الناسُ قد خرجوا في كلِ مكانٍ، يملأون الشوارع والطرقات، يهتفون بحماسٍ وقد توحَّدت مشاعِرهم ومطالبهم:

«عيش، حرية، عدالة اجتماعية»

«الشعب يريد إسقاط النظام»

لم أشترك معهم في الهتافِ أو المسير، فقد تبلَّدت مشاعري، تحجَّرت أحاسيسي، كنت أنظرُ إليهم وأضحك بهستيريا، كنتُ أمسك بالحجارة عن الأرض وأقذفهم بها، كانوا ينظرون إليَّ بإشفاقٍ، كنت أقذفهم بالحجارة وأنا أرددُ بجنونٍ:

«كلكم في الجحيم، كلكم في الجحيم ظالمين»

قادتني قدماي وسط أتون الثورة المتأجج بنيران الظلم والفقر والحرمان- بعد أنْ تبدل بي الحال فصرتُ مجذِوبًا من المجاذيب الذين يملأون هذه المنطقة- إلى مسجد الرفاعي بالقرب من قلعة صلاح الدين، أصبحتُ لا أحتمِل التوتر والصراعات، أخذتُ أتأمل القلعة وأنا ألعنها في سرَي، أحملها المسئولية عن ضياع حلمي وأملي ومقتل ولدي.

سمعتُ صوتًا صادرًا من داخل المسجد، اقتربتُ من مصدره لعلي أجد السكينة والهدوء، شعرتُ بقوةٍ خفيَّة تجذبني إلى الداخل، انتابِني الفضولُ لمعرفة هذا الصوت، اقتربتُ أكثرَ وأكثر.

رأيتُ أناسًا كثيرين متجمعين في صفَّيْن وهم يتمايلون يمنةً ويسارًا بخشوع، رأيتُ شخصًا يقفُ ما بين الصفيْن وهو يُصفِق بيديْه منظمًا إيقاعهمْ مُنشدًا بصوتٍ رخيم، اقتربتُ أكثر لأسمع ما يقول، شعرتُ برجفةٍ خفيفةٍ تسري في أوصالي، وقفتُ في صفٍّ وأمسكَ أحد الأشخاص بيدي. . كان الشيخ يُنشد قائلًا:

«يا صاحب القبة الخضراء وساكنها، أوصى في حسنك لا شيء يماثلها»

أخذ الجمع يُرددُ مُتمايلًا بخشوعٍ:

«حيٌّ حيْ، حيٌّ حيْ»

أكمل الشيخ إنشاده متغنيًا:

«مَقَالَةُ ابن الرفاعي كان حَاصِلُها، لِحُجرةِ المُصطفى شَوقًا يُواصِلُها»

تمايل الحضورُ يمينًا ويسارًا وردَّدوا مُجدَّدًا:

«حَيٌّ حَيْ، حَيٌّ حَيْ»

تغنَّى الشيخُ بعد أنْ سارع من إيقاعه:

«في حالة البعد روحي كنت أرسلها، تُقَبِّل الأرض عني وهي نائبتي»

أغمضتُ عينيَّ وشاركت المريدين تمايُلهم بعد أنْ سَرتْ في نفسي نشوةٌ غريبةٌ، وردَّدتُ معهم:

«حيٌّ حيْ، حيٌّ حيْ»

ازدادت سرعةُ الإيقاع، وأصبح الشيخ ينشد بسرعةٍ:

«وهذه دولة الأشباح قد حضرت، فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي»

أخذ الجمعُ يتمايل بسرعةٍ كبيرةٍ وأنا معهم، نرددُ بخشوعٍ تامٍّ:

«حيٌّ حيْ، حيٌّ حيْ»

تداخلت الصور أمام عينيَّ وأنا أتمايلُ بسرعة شديدةٍ مع جموع المُريدين، وقع بصري بعد أنْ أصبحت الرؤيةُ مُشوَّشةً أمامي على الطوَّاف، كان مُستندًا بظهره على أحد أعمدة المسجد، يُشير إليَّ أنْ أنظر لأحد الأشخاص الواقفين في الصف أمامي، نظرتُ إليه، لم تصدق عيناي ما رأته، كان أمجد واقفًا أمامي يتمايلُ يُمنةً ويُسرة، وهو ينظرُ إليَّ مبتسمًا، ثم التفت إلى الواقف بجواره وهو يهزُّ رأسه مُسلِّمًا عليه، كان الشيخ محمد، يا الله! هذا الشيخ محمد من روعي بابتسامته الصافية، جلتُ ببصري في الحضور، رأيت خليل يقف على مقربةٍ منهم وقد أضاء وجهه بابتسامة مشرقة، خرجتُ من الصف كالمجنون وأنا أتلفَّتُ حولي بذهولٍ، رأيت شمس الدين يجلس في أحد أركان المسجد يُمسك مصحفًا يقرأ فيه، رفع رأسه إليَّ مُحييًا، هممتُ بالخروج من المسجد إلا أنني لمحتُ عبد الله داخلًا إلى المسجد، يتقاطر من وجهه ماءُ الوضوء، أيقنتُ أنَّ عقلي قد ذهب بلا رجعة، رأيتُ حنا واقفًا مستندًا على باب المسجد وهو يلوح لي بيده بسعادةٍ غامرةٍ، فررتُ من المسجد مفزوعًا ممَّا رأيتُ، أعطاني أحد الأشخاص رغيفًا من الخبز به لحمٌ، أخذته على عجلٍ وأنا أحاول ارتداء حذائي، هرعتُ أعدو خارجًا من المسجد وأنا أتلفَّتُ خلفي بذعرٍ، تعثَّرت بأحد الأشخاص، قُمتُ

من عَثْرتي على الفور، هممت بالاعتذار له، وجدتُها امرأةً عجوزًا، تفرَّستُ في ملامحها جيدًا، اتَّسعت عيناي هلعًا، كانت أم حنا، ربَّتت على يدي بحنانٍ ثم ابتسمت وهي تقول بصوتٍ هادئٍ:

إحجل بعيد يا موت، بعيد عن الناس والبيوت

لسه الحياه يا دوبها بتدب في عروق مولودي

غادرت صحن المسجد راكضًا وقد أيقنتُ بذهاب عقلي، أخذتُ أرددُ بجنونٍ:

«حيٌّ حيْ، حيٌّ حيْ»

***

- إيه يا شحاتة خلاص، خلَّصتْ؟

قال الدكتور حسين عبارته السابقة بعد أنْ انتهيتُ من الكلام، لم أردَّ عليه واكتفيتُ بأنْ أومأتُ برأسي إيماءةً خفيفةً، أوقف جهاز التسجيل، ثم أكمل قائلًا:

- أمَّال إيه إللي حصل لك بعد ما حاولت الانتحار والناس مسكتك؟

نظرتُ إليه بحزنٍ، ثم قلت:

- ولا حاجة، فُقت لقيت نفسي في المستشفى، وبعدين رحت المحكمة، ومن هناك جابوني على هنا .

مدَّ يده وأمسك بمفكرته الصغيرة الموضوعة على المنضدة، أخذ يتأمَّلها للحظاتٍ وهو يتفرَّس في ملامحي بعينٍ فاحصةٍ مُدرَّبةٍ، نحَّاها جانبًا

ثم دنا بوجهه مني، رمقني بعينٍ تلمع من حدَّة الذكاء لفترةٍ طالت، حتى شعرتُ بأنها لن تنتهي.

أسند ظهره إلى المقعد، بعد أنْ عدَّل من وضع نظارته الطبية في حركةٍ لا إراديةٍ، أخرج من جيب قميصه قلمًا أخذ يداعبه بأنامله ثم قال:

- شوف بقى يا عم شحاتة، أنا عارف كويس إنك لا مجنون ولا حاجة.

صمتَ قليلًا ليرى أثر كلامه على ملامح وجهي، ظللت أنا مُسيطرًا على أعصابي ومحافظًا على تلك النظرة الجامدة التي لا توحي بشيء، أكمل كلامه قائلًا:

- أوعى تفتكر إنك تقدر تضحك عليا بشوية الحركات إللي بتعملهم دول.

عدَّل من جلسته، ثم قال بسخريةٍ واضحةٍ:

- أنا شفت وعالجت عيانين نفسيين بعدد شعر راسي.

مسح على شعره الأبيض، ثم ابتسم بحزنٍ وقال:

- هوا أنا شبت من شوية!

كنتُ لا أزال مستمرًا على جمود تعبيرات وجهي، أنظر محدقًا في الفراغ كأنَّ مُحدثي لا وجود له. أخذ يتأمَّلني مليًا ثم قال بنبرةِ من اعتاد على تلك التصرفات:

- أنت عارف التهمة إللي متوجهة لك عقوبتها إيه؟

تجاهلته كأنه لم يقل شيئًا، فأردف قائلًا:

- الإعدام يا شحاتة.

لم يهتز لي جفنٌ أو يؤثر حديثه فيَّ على الإطلاق، أكمل حديثه وقد علتْ نبرةُ صوته قليلًا:

- تقرير النيابة بتاعك مكتوب بحرفية عالية، بصراحة مافيش فيه ثغرة واحدة.

قام من جلسته وسار حتى وصل إلى مكتبه الأرابيسك، فتح أحد أدراجه، أخرج ملفًا ضخمًا ممتلئًا عن آخره بالأوراق، وبدأ يتفحَّص ويدقق فيه، حتى توقَّف عند ورقةٍ معينةٍ، ثم شرع يقرأ ما فيها بصوتٍ مرتفع:

«حيثً إنَّ المتهم/ شحاتة عبد الصبور المصري الشهير بـ (شحاتة المصري) قد ترصَّد بالمجني عليه/ رائد شرطة شريف عبد الدايم فرحات في مساء يوم الجمعة الموافق ١٧ من شهر يونيو لعام ٢٠١١ أسفل منزله الكائن في شارع البارودي بقسم عابدين- محافظة القاهرة، وكان المتهم قد أعدَّ العدَّة وعزم النية على ارتكاب جريمته النكراء، فأعد معه حقيبة قماشية بها جركن يحتوي على سائل البنزين القابل للاشتعال وكان في حوزته علبة كبريت، ولما رأى المجني عليه باغته من الخلف وسكب عليه البنزين وأشعل النار فيه، ولم يقم بالهرب بل ظل يُشاهده وهو يحترق، ثم اعترف أمام الشهود الذين تجمَّعوا لمحاولة إنقاذ المجني عليه أنه هو الذي قام بإشعال النار فيه عمدًا . . .»

أحسستُ بوميض يلمع في عينيَّ رغمًا عني، وتراقص شبحُ ابتسامة رضا على شفتيَّ أخفيتها سريعًا وأنا أسمع ما قرأه، نظر إليَّ الدكتور حسين طويلًا متأملًا تعبيرات وجهي وردود أفعالي، ثم قال:

- شوف يا شحاتة، أنا شفت ناس كتير زيك بيعملوا فيها مجانين علشان يفلتوا من العقاب، مفيش ولا واحد منهم قدر يفلت مني، لكن إنت وضعك مختلف.

نظرتُ إليه مباشرةً في عينيه للمرة الأولى منذ بدأ معي جلسات الكشف والتحليل النفسي، ابتسم الدكتور حسين بإشفاقٍ، ثم قال:

- إحنا شكلنا لك لجنة من أكبر أساتذة الطب النفسي علشان يتابعوا حالتك عن قرب، وكلهم قالوا إنك تصرفاتك هادية وإنك متعاون، وإن حالتك مستقرة، بتنام في الحدود الطبيعية وبتاكل طبيعي وبتصلي بانتظام، ده بخلاف إن مفيش أي أعراض لأمراض عضوية ظهرت عليك، وكنت بتقابل أهلك في مواعيد الزيارة بصورة طبيعية جدًا، وكل التحاليل المعملية بتاعتك ممتازة، كمان معدل الذكاء بتاعك عالي جدًا، كل ده مالوش غير معنى واحد بس. . .

أطرق رأسه إلى الأسفل قليلًا، ثم نظر مباشرةً في عينيَّ وقال:

- إنك رايح تقابل عشماوي من غير نقاش.

ارتسمت على وجهي ابتسامةٌ واسعةٌ، واعتدلتُ في جلستي وأنا أنظر إليه صامتًا، هزَّ رأسه متعجبًا وهو يقول:

- الغريب إن أنا من ساعة ما شفت الملف بتاعك وأنا متأكد إنك وراك حكاية عجيبة، وفعلًا توقعي طلع في محله. . .

قاطعتَه قائلًا:

- وبعدين؟

ابتسم الطبيب ابتسامةً لها معنًى، وهو يُكمل قائلًا:

- أنا عملت شوية اتصالات في الفترة إللي أنت قضيتها معانا في المستشفى، وكلها أكدت لي إن الرائد شريف كان ماشي مشي مش مضبوط، وسمعته كانت مش تمام، وإن هوا كمان إللي قتل ابنك.

صمت لوهلةٍ، ثم استطرد:

- كمان عرفت إنك كنت بتقرا كتب كتير، علشان كده ما استغربتش لما قعدت تألف لي الحكايات العجيبة بتاعتك علشان تقنعني إنك مجنون، لكن إللى إنت مقدرتش تخبيه في كلامك، هوا شعورك بالقهر والكبت والظلم وحاولت تخليه يبان قدامي إن هو الدافع والمبرر للقتل.

ابتسمتُ بمرارةٍ وأنا أقول بجمودٍ:

- ولو كان ينفع أموّته أكتر من مرة كنت عملت كده.

هزَّ الطبيبُ رأسه دلالة الفهم، ثم قال بنبرةٍ هادئةٍ:

- إللي أنت متعرفوش يا شحاتة إنك كنت مريض نفسي بجد، ومحتاج لعلاج طويل.

نظرتُ إليه بامتعاضٍ، ثم قلتُ بضيقٍ:

- مش فاهم، قصدك إيه؟

عدَّل الطبيبُ من وضع نظارته الطبية وهو يقولُ شارحًا:

- يعني أنت كنت محتاج لجلسات علاج نفسي، لكن حالتك المرضية مش بتأثر على وعيك وإدراكك.

نظرتُ إليه مستفهمًا.. فأكمل شارحًا:

- درجة أولية من درجات الجنون اللحظي، لكنها للأسف ما وصلتش للمرحلة إللي توقف عندك الوعي والإدراك.

رفعتُ رأسي ناظرًا إليه، وقلتُ:

- يعني أنت عاوز تقول إيه يا دكتور؟

أطال الطبيبُ النظر مباشرةً في عينيَّ، ثم أشاح بوجهه بعيدًا عني وقال:

- تفتكر يا شحاتة أنا هكتب إيه في التقرير بتاعي؟

هززتُ رأسي مبتسمًا ثم نظرتُ له نظرةً مليئةً بالأسف، وقلتُ بصوتٍ يعتصره الحزنُ والألم:

- صدقني يا دكتور، مش هاتفرق معايا كتير، أنا أصلًا ميت من اليوم إللي أمجد ساب فيه البيت ومشي.

أطرق الدكتور حسين رأسه إلى الأرض مُداريًا دموعه التي سالت، ثم رفع سماعة هاتف مكتبه مناديًا على أشرف لإعادتي إلى العنبر، غادرتُ غرفته برفقة أشرف، وقد بتُّ شاردًا لا أعلم مصيري.

كان شريطُ حياتي يمرُّ أمام خيالي سريعًا، خرجتُ معه إلى حديقة المستشفى، كانت لا تزال على حالها من البوار والخراب، تحسَّرتُ على

ما قد كان، لمحتُ بطرف عيني مجموعةً من الشباب، يعملون بجهدٍ وكدٍّ لإصلاح الحديقة وإرجاعها أفضل ممَّا كانت، ابتسمتُ بعد أنْ تيقّنتُ أنَّ الأمل في هؤلاء الشباب، اقتربتُ أثناء سيري منهم، فنظروا إليَّ بإشفاقٍ واضح، ثم ما لبثوا أن انكبوا على عملهم بجديةٍ واضحةٍ.

سمعتُ أحدهم يقول لزميله بإصرارٍ:

- صدقني يا صاحبي، مافيش قدامنا غير حل واحد.

ردَّ عليه زميله بسخريةٍ:

- إيه هوا بقى يا فالح؟

ردَّ الشاب بتصميمٍ وإصرارٍ:

- العمل هو الحل.

***

«بداية»..

«في الأصل، لا تُوجد بداية ولا نهاية،
إنما يعودُ كل شيءٍ إلى ما منه ابتدأ»



(٧)

فجأةً، فتح الدكتور حسين عينيْه مفزوعًا، اعتدل في جلسته على الفراش وأخذ يمسح عرقه الغزير، بعد أنْ راوده هذا الكابوسُ اللعينُ الذي يصرُّ على أنْ يؤرق منامه وينغص عليه ليله، تلفَّت حوله بحذرٍ بعد أن استعاد رباطة جأشه، قام من فراشه ذاهبًا إلى المطبخ لشربِ الماء، بعد أنْ أحسَّ بجفافٍ شديدٍ في حلقه.

كانت قد مرَّت سبعةُ أشهرٍ كاملةٍ، منذ أنْ تمَّ تنفيذُ حكم الإعدام في شحاتة، عقب أنْ أنهى الدكتور حسين تقريره، وذيَّله برأيه الطبي، وانتهى فيه إلى أنَّ شحاتة كان يُعاني من حالة نفسية تستدعي العلاج، لكنها لم تكن تؤثر على وعيه وإدراكه، بناءً على هذا التقرير أسَّست المحكمةُ حكمها بإعدامه شنقًا.

منذ هذا التاريخ، لم يهدأ له بالٌ أو يغمض له جفنٌ، فقد تكالبت عليه الكوابيس المؤرقة، التي لم تتغير، كان ذات الحلم البغيض، يتكرر كلَّ ليلةٍ بكلِ تفاصيله المفزعة.

كان يرى في منامه، أنه يغرق في بحيرةٍ ضحلة ماؤها شديدُ العَكَر، يُحاول التشبُّث بلوحٍ خشبيٍ مهترئ، بينما هو ينافحُ الغرق، ثم يشاهد تمساحًا ضخمًا يُحاول الفتك به، إلا أنَّ اللوح الخشبيَّ يحمله ويُسرع به حتى يقذفه إلى اليابسة، يقوم مُسرعًا راكضًا بكل ما أوتي من قوةٍ، إلا أنَّ قدميْه كانتا ثقيلتيْن تعوقان حركته، كان يُشاهد نفسه ينجح في النهاية في الوصول إلى مرتفع صخريٍ، يُحاول بمشقة بالغة تسلقه بحثًا عن الخلاص، لكنه كان في كلِّ درجةٍ منه يُقابل حيةً مُخيفةً، حتى يصلَ إلى الدرجة السابعة فيرى حيةً شديدة الضخامة تشعُّ عيناها الحمراوان ببريقٍ مخيفٍ، يستيقظ بعد أنْ تقترب منه مُصدِرةً صيحةً هائلةً.

أغلق باب الثلاجة بعد أن روى ظمأه وقد اعترته الحيرة، ما بال هذا الكابوس اللعين لا يتوقف عن ملاحقتي، لا بدَّ أنَّ له معنًى، لا شك في أنه يحمل رسالةً معينةً، لمعت في ذهنه خاطرةٌ فقرر تدوينها في مفكرته الصغيرة، توجَّه من فوره إلى مكتبه، وأخرج من درجه الخاص بعمله السابق مفكرته، فقد كانت سنواتُ خدمته في مستشفى الأمراض النفسية قد انتهت بإحالته إلى المعاش، بعد انتهائه من حالة شحاتة.

نفض عن المفكرة ما علق بها من ترابٍ، جلس خلف مكتبه وشرع يقلب صفحاتها بيديه، استرعى انتباهه ورقةٌ باهتةٌ، وجدها مطويةً بعناية بين طيَّات المفكرة، تذكرها على الفور، إنها رسالةٌ قد سلَّمها له مأمور سجن الاستئناف، أبلغه أنها كانت آخر طلب لشحاتة المصري قبل تنفيذ حكم الإعدام عليه، دمعت عيناه، وهو يتذكر هذا المسكين وما لاقاه من مصيرٍ مشئومٍ، كان يعلم في قرارة نفسه بأنه قد

ظُلم كثيرًا، لكنَّ ضميره المهنيَّ لم يكن يسمح له أنْ يخالفَ قَسَم المهنة في آخر عهده بها.

فتح الورقة المطوية بيدٍ مرتعشةٍ، وشرع يقرأ ما كُتب فيها:

«عزيزي الدكتور حسين،

أكتبُ إليك الآن وأنا مُقبلٌ على حياةٍ جديدةٍ، حياةٍ أبديةٍ، لا ظلم فيها ولا هوان، ولكنه العدل، فقط العدل المطلق والخلود.

أعلم أنَّ لديك بعضَ التساؤلات التي لم تجد لها إجابةً في أثناء جلساتك معي، ولكن اعذرني فلم يكن لديَّ الحقُّ في توضيحها لك في ذلك الوقت، أما الآن، وبينما أستعدُّ للعالم الآخر بعد أنْ كشف عني الغطاء، فلم يعدْ هناك ما يمنعني من إجابتك.

أمَّا عن سؤالك لماذا بدأتُ حكايتي من نهايتها، فإجابته أنَّ نهاية رحلتي هي بداية رحلتك.

وأمَّا سؤالك عن الطوَّاف، فهو دليلك في تلك الرحلة.

وأمَّا عن رغبتك في معرفة جدوى تلك الرحلة، فاعلم أنَّك بها تعرف من أنت في الحقيقة، فمعرفتك من أنت هي قاعدتك التي لا تنهدم، وسَكِينتُك التي لا تزول.

وختامًا، فالبدايةُ والنهايةُ لا تكونان إلا في الخطِ المستقيم فقط.

بانتظار لقائك في عالمٍ أفضل.

شحاتة المصري»

مسح الدكتور حسين دموعَه، ثم طوى الرسالةَ مجددًا ووضعها بعنايةٍ في مفكرته، أمسك بقلمه يُدوّن فيها ما ورد على خاطره:

«مأساةٌ أنْ يموتَ بك شيءٌ، وأنت حيٌّ، فكيف إنْ ماتت كلُّ الأشياء، وبقينا أحياء أمواتًا؟»

توقَّف عن الكتابة بعد أنْ سمع صوتًا خفيفًا في غرفة المكتب، دار ببصرهِ دورةً كاملةً في المكان لكنه لم يُبصر شيئًا، عاد إلى أفكاره من جديد، تساءل، هل كان مُخطئًا عندما حكم بتقريره الطبي على شحاتة بالموت، لكنه لم يكنْ يقبل بتصديق كل تلك الخرافات، كان يتعجَّب في داخله، كيف أنَّ الإنسان بعد أنْ وصلَ إلى ما وصل إليه من تقدُّم لا يزال يعتقد في تلك الخرافات، لا بدَّ أنْ يعرفَ حقيقة تلك الخرافات، ليُفنّدها ويثبت زيفها أمام العالم بأسْره.

ترامى إلى سمعه الصوتُ مجددًا، ولكنه كان أكثر قوة، توتَّرت أعصابه فقام من خلف مكتبه بحذرٍ، وشرع يجوبُ أرجاء الغرفة باحثًا عن مصدر الصوت، لم يجد شيئًا.

فجأةً، سمع من خلفه صوتًا يقول بنبرةٍ عميقةٍ:

- هل أنت بخيرٍ يا ولدي؟

ارتجفتْ أطرافُه، واتَّسعت حدقتاه من الرعب وهو يلتفتُ خلفه ببطءٍ شديدٍ، سمعه يقول بنبرةٍ ارتجّت لها جدرانُ الغرفة:

- أحقًّا ترغبُ في المعرفة؟

***

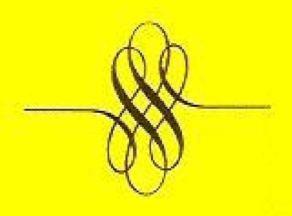


رواية

الطوّافُ عملٌ روائي أول للأستاذ/ منتصر أمين..
تفوّق من خلاله في نقل فكرته التي طوّع من أجلها الزمنَ ببراعة..
اللغةُ قويةٌ والربطُ السرديّ متميزٌ متين..
لا يشعرُ القارئُ بالنقلات الزمنية في الرواية والتي جاءت سلسةً للغاية.
فلم يقع الكاتبُ في مطبّ التفكيك. الأمرُ الذي يؤكد تمكنه من صنعته..
بدايةٌ مبشرةٌ جدًا.. تنبئ بمولدِ كاتبٍ بارعٍ سيكون له باعٌ في الروايةِ المصرية..

الكاتبُ والروائي/ هشام الخشن

..وأما عن رغبتك في معرفة جدوى تلك الرحلة، فاعلمْ أنك بها تعرفُ مَن أنت في الحقيقةِ
، فمعرفتُك مَن أنت هي قاعدتُك التي لا تُهدَم، وسكينتُك التي لا تزول.
وختامًا: فالبدايةُ والنهايةُ لا تكونان إلا في الخطِ المستقيم.




ISBN 9789778520422



تصميم الغلاف:
عبد الرحمن الصواف

